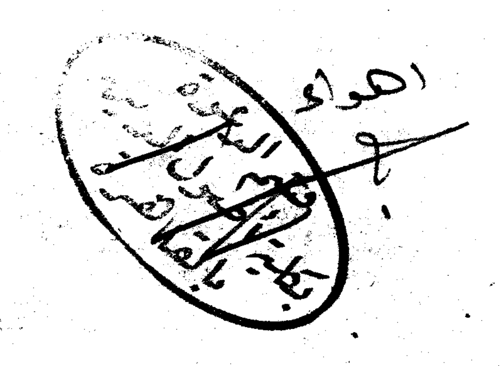


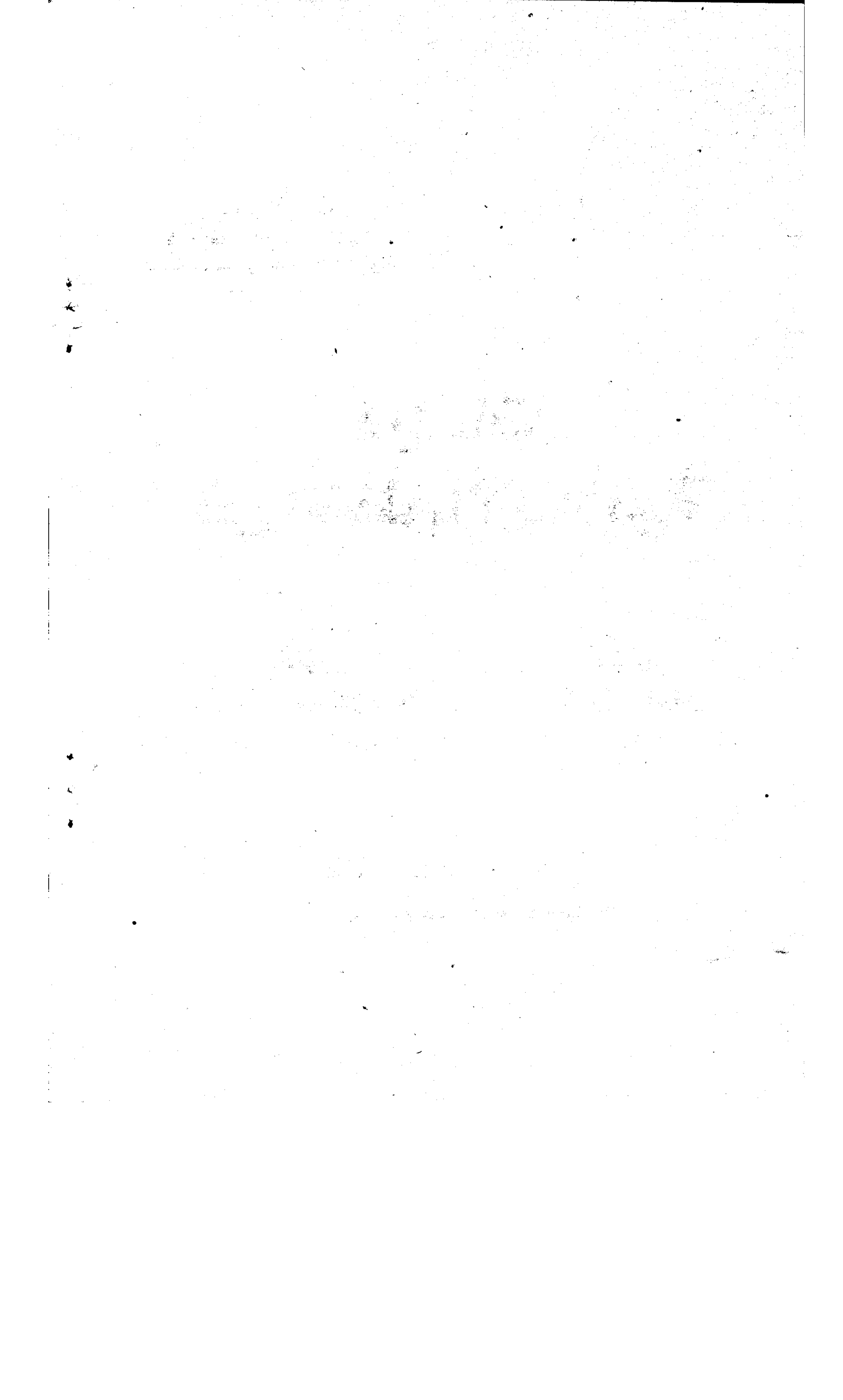
جـامعة الأزهـر
كلية أصول الدين - القاهرة
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

دراسات في النظم الإسلامية

دكتور
مصطفى أحمد أبو سمك
أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

دكتور
بكر زكي عوض
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

دكتور
محمدي عبد البصير خضيري
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله أجمعين، وعلى من سار على سنتهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين ...

أما بعد ...

فإنه من الحقائق الثابتة أن أفراد الإنسان ليسوا نتاج قالب واحد، ولا صوراً مكررة لشكل ثابت، وإنما هم آحاد لجنس متعدد الأشكال والأعراض، مختلف الألسنة والألوان، متفاوت القدرات والطاقات، متباين الأهداف والنزعات. ولعل هذا التباين والتفاوت والاختلاف يبين لنا جانباً من آفاق قدرة الله سبحانه في الخلق والإيجاد. قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١).

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن أفراد الإنسان مدنيون بطبيعتهم اجتماعيون بفطرتهم، لأن مصالح الأفراد لا تتم إلا بالتعاون، وحوائجهم لا تقضى إلا بالاجتماع ... ومن ثم لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمفرده، بل هو مضطر إلى الاجتماع مع غيره من بني جنسه.

وإذا كان أفراد الإنسان على هذا النحو من حاجة بعضهم إلى بعض، ومن اختلاف وتباين وتفاوت بين آحادهم، فلا بد لهم من نظم وأحكام تنظم علاقاتهم وتحكم تصرفاتهم حتى لا يصطدم إنسان بإنسان، ولا تتعارض مصلحة فرد مع مصلحة آخر، فيضطرب المجتمع ككل، ومن ثم يقع في هاوية التشاحن

---

(١) سورة الروم الآية ٢٢ .

والتطاحن، نتيجة التصادم وتعارض المصالح الفردية الأمر الذى يبين ضرورة النظم والأحكام لأى مجتمع يريد أفراده أن يحيوا حياة الأمن والاستقرار.

ومن الأمور البدهية أن كافة النظم والأحكام تقوم على أصول وقواعد تبين الحقوق والواجبات، وعلى قوانين ومبادئ تضع الحدود والضوابط، وعلى ثقافة تحدد العقائد والتصورات ... هذه الأمور كلها ... من أصول وقوانين وثقافة ... يرتبط بها المجتمع الخاضع لها ارتباطاً وثيقاً، يجعل صلاح أمره رهنا بصلاح الأصول والقواعد التى تقوم عليها نظمه، والثقافة التى ترتكز عليها أحكامه.

وكتابنا - دراسات فى النظم الإسلامية - يؤكد - فى عبارة مجملة - ما هو مركوز فى الفطر السليمة ومتفق عليه بين أولي الألباب ... أن خالق الشىء هو وحده الأعلم بما يصلح مخلوقه، ومن ثم تكون النظم الإلهية وما ترتكز عليه من ثقافة إسلامية هما - دائماً وأبداً - خير ما يصلح البشر أفراد ومجتمعات .. فما تخطه يد الحكمة الإلهية لا يرقى إليه ما تحدثه أفهام الناس وعقولهم. وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

وشتان - فى ميزان الحق ومنطق العقل - بين مخلوق ما أوتى من العلم إلا قليلاً، وبين الخالق المحيط بكل شىء علماً وهو الحكيم الخبير.

ويؤكد كتابنا على هذا المضمون فى هذه المباحث تلك التى تناولها وعالج موضوعاتها ثلاثة من الباحثين على نحو ما يلى:

كتب الدكتور محمدى عبد البصير خضيرى من أول الكتاب وحتى ص ٦٨ وكذلك من ص ٢٦١ وحتى نهاية الكتاب.

وكتب الأستاذ الدكتور / مصطفى أحمد أبو سمك من ص ٦٩ وحتى ص ٨٨ .

---

(١) سورة النحل آية ١٧ .

وكتب الأستاذ الدكتور / بكر زكى من [ص ٨٩ وحتى ص ٢٦٠] من الكتاب.

وبعد ...

فها نحن نقدم ثمرة الجهد المتواضع، راجين أن يستفيد منه الطلاب فى مرحلتهم الجامعية، وأن يفيدوا المجتمع به فى حياتهم العملية. وراجين أيضاً أن يستبين فيه طلاب المعرفة ما تنفرد به النظم الإسلامية عن غيرها من النظم والثقافات الأخرى والله نسأل أن يبارك هذا الجهد العلمى، وأن يحقق به ما أردنا من نفع وخير، إعلاء لكلمة الحق، وهداية وإسعاداً للناس أجمعين، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

المؤلفون

الفصل الأول

النظم مفهوما ونشأة

المبحث الأول: مفهوم النظم

المبحث الثاني: نشـأة النظـم

المبحث الأول

مفهوم النظم

أولاً: فى اللغة:

يحتاج الباحث عن معانى الألفاظ الطالب للفهم الصحيح أن يرجع إلى قواميس اللغة يستوضحها ويسترشد بها فيما تشير إليه حول الألفاظ التى يريد فهم معانيها.

وقد جاءت مادة نظم فى المعاجم اللغوية مشيرة إلى المعانى المتعددة. يقال: النظم: التأليف، ونظمت اللؤلؤ أى جمعته فى السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته، وكل شئ قرنته بآخر أوضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته»[١] ويقال: ليس لأمره نظام أى لاتستقيم طريقته، وليس له هدي ولامتعلق ولا استقامة. ومازال على نظام واحد، أى عادة»[٢].

والنظام: الترتيب والاتساق. ويقال:نظام الأمر: قوامه وعماده[٣]. وتناظمت الأشياء: تضامت وتلاصقت»[٤] وجاءنا نظم من جراد، وهو الكثير»[٥].

وعلى هذا فالمعانى التى تفيدها مادة نظم تدور حول: الجمع والاقتران والترتيب والتأليف والاتساق، وهذا بغرض التكثير والتكثيف فجمع المتفرقات والمتشابهات فى الموضوع والشأن الواحد تكثير وتكثيف وتعظيم.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٤٤٦٩/٥.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) المعجم الوسيط ٩٣٢/٢.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) لسان العرب ٤٤٦٩/٥.

وقد أضفت اللغة العربية على مادة نظم مسحة جمال من خصائصها التى تتميز بها فجمعت بين الأمور المادية والمعنوية التى تتصل بالإنسان فى كل ماحوله زمانا ومكانا، وذلك مثل تنظيم أوقات العمل والراحة والتزاور، ومثل تنظيم الأعمال والصناعات والأمور المعيشية وغير ذلك، ومثل تنظيم الإنسان لعاداته وسلوكه وسيرته وهديه وأفكاره.

وقد أعطى هذا المدلول اللغوى لكلمة نظم فى اللغة العربية اتساعاً وشمولية قلما أن يوجد فى لغة أخرى.

وهذا المدلول اللغوى أقرب مايكون إلى الطبيعة الإنسانية التى تجمع بين المادية والروحية.

ثانياً: فى الاصطلاح:

يرتبط التعريف المصطلح عليه للأشياء بالقدرة على تصورها، والتصور مرتبط بالفهم وشموليته وعمقه. ومن هنا تعددت وتنوعت التعريفات لمصطلح النظم.

١) مفهوم النظم الوضعية:

تعددت أقوال علماء الاجتماع فى النظام والنظم على تعدد مدارسهم وتنوع أفكارهم.

وفى البداية نقول: «يستخدم مصطلح نظام اجتماعى فى علم الاجتماع للإشارة إلى كل ماهو ثابت ومقرر فى المجتمع»[(١)].

ويرى (جولدنر) أن النظم هى الطرق المقننة لحل مشكلات المجتمع[(٢)].

---

(١) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الإجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٤٤.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية لطلاب قسم الاجتماع. نخبة من أساتذة قسم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ص ٢٤٤.

أما كولى وديفيز فإنهما ينظران إلى النظم على أنها مركبات واسعة من المعايير التى يقرها المجتمع ليعالج بها أو ليقابل بطريقة منظمة مايعتبره حاجاته الأساسية.

ويقول ديفيز فى محاولة تحديد أوضح: «إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر، مكونة أجزاء من البناء الاجتماعى، تعرف بتنظيمها المحكم وتمايز وظائفها»[1].

والمتأمل فى مفهوم النظم لدى علماء الاجتماع يرى أنه «ليس هناك تطابق تام بين النظام والحاجات المجتمعية، فالحاجة الواحدة قد يشترك فى إشباعها أو تحقيقها أكثر من نظام على الرغم من أنها قد تمثل لبعض النظم وظيفة ثانوية»[2]، وهذا بدوره يؤدى إلى فقدان النظم خاصية الترابط والوحدة فى الهدف والغاية والتعاون لبناء الإنسان السوى.

«فالأسرة - مثلا - باعتبارها من النظام الاجتماعى لايمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التى تؤثر فيها، والتى قد تحدد مستقبل نموها كالنظم الخلقية والنظم الاقتصادية والنظم السياسية وغيرها، ولذلك فإدراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهرى لفهم الحياة الاجتماعية»[3].

وبناء على ذلك جاءت رؤية علماء الاجتماع لمفهوم النظم «رؤية قاصرة حيث كانت نظرتهم إلى النظم البشرية فحسب، ولم ينظروا إلى النظم التى جاءت عن طريق الوحى، وذلك لأنهم نظروا إلى الدين نظرة قاصرة فجعله

---

(١) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع ص ٢٤٥.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٥.

(٣) نفس المصدر.

بعضهم نظاماً من النظم التى يصنعها الإنسان أو المجتمع، وذلك خطأ علمى كبير وقع فيه علماء الاجتماع فى البيئات التى عرفت الرسالات المحرفة فعزلتها، ولا يليق تقليدهم هذا فى البيئات التى عرفت صفاء الوحى ونقاءه فى الإسلام»(١).

٢) النظم فى مفهوم الإسلام:

تتصل النظم بالدين الإسلامى اتصالاً وثيقاً تمتد جذوره إلى المدلول اللغوى لكلمة النظم فبينهما علاقة لغوية وثيقة، فكلمة الدين فى اللغة «تمثل فى الذهن العربى تصورات أربعة أساسية:

أولها: القهر والغلبة من ذى سلطة عليا.

والثانى: الاطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذى السلطة.

والثالث: الحدود والقوانين والطريقة التى تتبع.

والرابع: المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب.

وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الاسلام بهذا المعنى تارة أخرى حسب لغاتهم المختلفة. إلا أنهم لما لم تكن تصوراتهم لتلك الأمور الأربعة واضحة جلية ولا كان لها من السمو والبعد نصيب، كان استعمال كلمة (الدين) مشوبا بشوائب اللبس والغموض. ولذلك لم يتح لها أن تكون مصطلحا من مصطلحات نظام فكرى متين. حتى نزل القرآن فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضه، فاقتناها واستعملها لمعانيه الواضحة المتعينة واصطنعها مصطلحا له مخصوصا. فأنت ترى أن كلمة (الدين) فى القرآن الكريم تقوم مقام نظام بأكمله. يتركب من أجزاء أربعة هى:

---

(١) انظر د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلامية، هجر للطباعة والنشر ١٩٨٧ ص ٧.

١) الحاكمية والسلطة العليا.

٢) الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣) النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤) المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له»[1].

ومن الأمثلة على المعنيين الأول والثاني قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾[3].

ومن الأمثلة على المعنيين الثالث والرابع قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[7].

وهكذا فكلمة الدين تشير إلى النظام والنظم ولكنها ليست على إطلاقها، بل لابد أن تقيد بالدين الإسلامي لتخرج كل ماعداه مما يسمى دينا سواء كان وضعيا أو محرفاً لأنها لاتحتوي على نظام

---

(١) أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، دار التراث العربي ١٩٧٥ ص ٨٢.

(٢) سورة الزمر الآية: ١١، ١٢.

(٣) سورة النحل آية: ٥٢.

(٤) سورة يوسف آية: ٧٦.

(٥) سورة الشورى آية: ٢١.

(٦) سورة الكافرون آية: ٦.

(٧) سورة الذاريات آية: ٥، ٦.

كامل بل يعتريها القصور فى كثير من جوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وهذ ماأفاده القرآن الكريم فهو «يستعمل هذه الكلمة مصطلحا جامعاً شاملا يريد به نظاما للحياة يذعن فيه المرء لسلطة عليا، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد فى حياته بحدوده وقواعده وقوانينه ويرجو فى طاعته العزة والترقى فى الدرجات وحس الجزاء، ويخشى فى عصيانه الذلة والخزى وسوء العقاب. ولعله لايوجد فى لغة من لغات العالم مصطلح يبلغ من الشمول والجامعية أن يحيط بكل هذا المفهوم»[١].

وعلى ضوء ماقدمنا من الممكن أن نقول: إن النظم تساوى الدين الإسلامي، هذا على سبيل الإجمال، أما على سبيل التفصيل والبيان فمن الممكن أن نقول: النظم الإسلامية هى القواعد والقوانين والحدود الإلهية التى شرعها الله – تعالى – للإنسان لتقوده إلى السعادة فى كل المجالات ومختلف العلاقات فى الحياة وبعد الممات.

أو أن نقول: «هى القواعد والمبادئ والعادات التى تقوم عليها الحياة فى ظل الإسلام – عقيدة وشريعة وخلقا – والتى تحدد للإنسان حركة نشاطه فى كافة المجالات ومختلف العلاقات»[٢].

ويمكننا أن نعرف نظام الإسلام ككل بأنه هو ماتفيده مجموعة القواعد والمبادئ التى جاء بها الإسلام لتحديد النشاط البشرى فى الحياة على مستوى الأفراد والجماعات داخل إطارها»[٣].

---

(١) أبو الأعلى المودودى: المصطلحات الأربعة فى القرآن ص ٨٥.

(٢) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته، مكتبة المسلم العصرية إسلاميات ٥٢ المؤسسة العربية الحديثة ١٩٨٨م ص ٩.

(٣) د. عبدالغفار عزيز وآخرون: أضواء على النظم والثقافة الاسلامية، مؤسسة الوفاء للطباعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ص ٦.

المبحث الثاني

نشأة النظم

بعد أن وقفنا على ماهية النظم ومفهومها عند علماء الاجتماع وفى المفهوم الإسلامى يتسنى لنا أن نبحث قضية أخرى ألا وهى نشأة النظم وتاريخها، ويحق لنا عند ذلك أن نسأل سؤالا هو من الأهمية بمكان. فنقول: متى عرف الإنسان القوانين فى حياته؟ ومتى خضع الإنسان للنظم والنظام فى تنظيم حياته؟ وماهى معتقدات الناس فى ذلك؟ وماهو موقف الباحثين؟ وحتى تأتى إجابتنا علمية موضوعية لابد أن نعرض للآراء الواردة بشأنها.

أولا: نشأة النظم الوضعية:

يصور لنا بعض المتخصصين فى علم الاجتماع هذه القضية فيقول: «لقد نشأت النظم الاجتماعية من خلال اجتماع الأفراد، وتبادل أفكارهم، واتحاد مصالحهم بصفة تلقائية، فظهرت قواعد خاصة لتحقيق دوافعهم الاجتماعية وحاجاتهم الضرورية وأهدافهم المشتركة، وسرعان ماترسبت هذه القواعد فى بنية المجتمع وتركيبه، ويكتب لها الاستقرار النسبي، وتنفعل بها مشاعر الأفراد. هذه القواعد والأوضاع والقوالب العامة هى مانسميه بالنظم الاجتماعية»(١).

إذن فالنشأة ليست محددة ولا واضحة وإنما هى ترجيحية أكثر منها حقيقية ولايصح بشأنها حقيقة مسلمة، وهذا بدوره يلقى بظلال التضليل المتعمد حتى يعيش الإنسان حياته بعيداً عن المصدر الحق فى ذلك والرأى الصواب، وهذا يشير إلى أصابع أعداء الدين الخفية التى تعبث بالعقول

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع المفاهيم والقضايا، المكتب الفنى بالزيتون ص ١٦٧.

حتى تصرفه عن غايته السامية ومهمته الحقيقة التى خلق من أجلها، لأنه مما لاشك فيه أن معرفة الإنسان بنشأة النظم وتاريخها يعطى وجوده قيمة وأهمية وهنا يأتى دليل العناية الإلهية بالإنسان منذ خلقه واستخلافه فى الأرض، وتبدو أهميته ووقوفه فى وجه المادية الملحدة.

وتبدو علامات الاضطراب واضحة وجلية على آراء علماء الاجتماع فيما يخص نشأة النظم من خلال موضوع بحثهم وتعدد جوانبه واختلافهم فى تحديد مفهومه ومدى أهمية كل نظام بالنسبة للآخر.

ومن هنا كان الخلط بين وجود النظم فى حياة الإنسان وبين بداية اهتمام أوربا وغيرها بموضوع النظم.

ويوضح مقصودنا ماجاء فى «المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية» تحت مصطلح «نظام اجتماعى»: «يستخدم فى علم الاجتماع مثل استخدامه الإنجليزى الشائع للإشارة إلى كل ماهو ثابت ومقرر فى المجتمع، وقد ظهرت عبارة «نظام رأس المال» و «نظام الأسرة» فى أعمال أوجست كونت فى القرن التاسع عشر»[1].

وهكذا فالاسهامات حول نشأة النظم من علماء الاجتماع عديمة الجدوى، وعلى العكس فقد ساهمت فى الإلحاد، كما أن إسهاماتهم فى هذا العلم لم تبدأ إلا فى القرن التاسع عشر، وهى اسهامات نظرية لم يكن لها جانب تطبيقى، والأبواب المطروقة عندهم قليلة وفقيرة كما سنعرض فى حينه إن شاء الله تعالى.

وقد تعددت النظريات حول تكوين المجتمع البشرى ونشأته وجاءت على النحو التالى:

---

(١) مصدر سابق ص ٢٤٤.

* أن أساس الجماعة كان يقوم على صلة روحية تجمع أفرادها على تقديس شئ مشترك، تعتقد أنها نسلت منه، يسمى: التوتم[١].

* أن هذا الأساس هو القبيلة أو العشيرة.

* أن الأساس هو الأسرة[٢].

وكانت صلة الإنسان بالنظم فى ذلك الوقت «تقوم على القوة فكانت الجماعات هى التى تنشئ الحق وتحميه وهى الحكم فى كل خصومة والفيصل الحاسم لكل نزاع، وكان القوى هو صاحب الحق فى كل مايناله بالغلبة والقهر»[٣].

وأمام هذه النظريات تبقى النظم فى حياة الإنسان غير واضحة المعالم، فهو فى نظرية التوعية ينتمى مع الأفراد الآخرين إلى توتم واحد، «فإذا كان هذا التوتم هو الذئب مثلا، فهذا يعنى أنهم يؤلفون مع فصيلة الذئاب وحدة اجتماعية، وأسرة مشتركة ذات طبيعة واحدة»[٤].

وفى نظرية القبيلة أو الأسرة الأمية - أى التى تنتسب إلى الأم - كان الأفراد لايخضعون إلا للقوة فى أمورهم، وكانت النساء مشاعا للرجال، والولد لاينسب لغير أمه»[٥].

وقد استند أصحاب هذا الرأى إلى نظرية التطور إلى الأفضل التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ونادى بها العالم الانجليزى «داروين». كما حاولوا دعمها ببعض مايجرى فى بعض النظم قديما وحديثاً»[٦].

---

(١) التوتم هو عبارة عن حيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية، تعتقد الجماعة أنها تناسلت منه.
(٢) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى مطبعة حسان ١٩٨٤ ص ١٠.
(٣) د.محمد طموم: الإنسان الأول والتشريع السماوى ١٩.
(٤) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى ص ١١.
(٥) د. على بدوى: أبحاث فى التاريخ العام للقانون ص ١٧.
(٦) د. محمد طموم: مصدر سابق ص ١٤.

وفى النظرية الثالثة - نظرية الأسرة - ذهب علماء الاجتماع إلى أن الأسرة الأبوية التى تقوم على رابطة الدم من جهة الأب والجد كانت هى الخلية الأولى، حيث كانت الأسرة التى تتألف من زوجين وأولاد، ويكون الأب هو صاحب السلطة فيها وينسب الأولاد إليه، هى أساس الوحدة الاجتماعية الأولى ومنها تكون المجتمع البشرى على ظهر الأرض»[١] وفى تقييم النظريات الثلاث يرى البعض أنه «يصعب ترجيح أحد الآراء الثلاثة»[٢].

وقد أدى الخلط فى نشأة الانسان إلى الخلط فى نشأة النظم وتاريخها وأصبح الأمر أقرب مايكون إلى التخمين والرجم بالغيب، فأين تكون الحقيقة ؟

ثانيا: نشأة النظم فى التصور الاسلامى:

١) الإنسان الأول والنظم (آدم) عليه السلام:

ترتبط النظم فى وجودها بوجود المجتمع، والإنسان هو أساس المجتمع، وقد تناول القرآن الكريم قضية بداية المجتمع الأول ونشأته ببيان خلق الإنسان الأول وهو آدم - عليه السلام - والذى جاء على النحو التالى:

* التقديم لخلق الإنسان وذلك فى قول الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[٣].

* خلق الإنسان الأول وبيان طبيعته وعناصره، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٤]. وقوله تعالى:

---

(١) نفس المصدر ص ١٦.

(٢) د. صوفى أبو طالب: مبادئ تاريخ القانون، دار النهضة العربية بمصر ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ص ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة البقرة آية: ٣٠.

(٤) سورة الحجر آية: ٢٨، ٢٩.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[١].

فأما قبضة الطين فهى الجسد البشرى الذى يحتوى على ذات العناصر التى يتكون منها طين الأرض. وأما نفخة الروح فلا نعلم شيئاً عن كنهها ولكننا نرى آثارها واضحة فى قبضة الطين. فعن طريقها منح الإنسان كيانه الإنسانى المتفرد، الذى تميز به عن المادة وعن الحيوان»[٢] ومن آدم خلق الله زوجه حواء، ومنهما بدأ التناسل والتكاثر البشرى وتكونت القبائل والشعوب والمجتمعات والأمم.

وإذا أردنا أن نعرف بداية المجتمع، فإن الله – سبحانه – ذكر أن المجتمع الإنسانى بدأ برجل وامرأة هما آدم وحواء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٣]. وتوضح هذه الآية أن ذرية آدم وحواء تكاثرت منهما وتطورت إلى شعوب وقبائل، وهذا ماتوضحه الآية الأخرى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾[٤]. ولم يقتصر الأمر على الشعوب والقبائل، بل حتى هذه تطورت فى نهاية الأمر إلى مايسمى بالأمم، حيث تعتبر العقائد والأديان هى المميزة بينها»[٥] وإليها الاشارة بقول الله – تعالى –: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٦]. وإقامة الأمة أمر إلهى ومطلب ربانى

---

(١) سورة ص آية: ٧١، ٧٢.

(٢) محمد قطب: حول التفسير الإسلامى للتاريخ، مؤسسة بدران ص ٣٧.

(٣) سورة الحجرات آية: ١٣.

(٤) سورة النساء آية١.

(٥) منصور زويد المطيرى: الصياغة الاسلامية لعلم الاجتماع الدواعى والامكان، كتاب الأمة ٣٣ ط أولى ١٩٩٣م ص ١١٠.

(٦) سورة آل عمران آية: ١١٠.

وواجب دينى إجتماعى وهذا مايشير إليه قول الله - تعالى - :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

ومما سبق يقرر القرآن الكريم الحقائق التالية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية المجتمعات:

* أن آدم هو الإنسان الأول الذى خلقه الله خلقا مستقلا منفصلا عن بقية الأجناس الأخرى للاستخلاف فى الأرض وعمارتها بمنهج العبادة لله.

* أن الله خلق له زوجه حواء من نفسه لتكون المودة والرحمة والسكن بينهما أتم وأكمل وأشمل وأعم، وبذلك كانت النواة للأسرة الأولى.

* ومنذ هذه اللحظة بدأت الأسرة الأولى فى التكاثر والتناسل فكان أولاد آدم، وهذا مايقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

وأما عن موقف الانسان الأول من النظم والقوانين والقواعد المنظمة لحياته بما فيها من معتقدات وأفكار ومعاملات وأخلاق، «فمن الأمور البدهية حاجة المجتمع إلى قانون ينظم العلاقة بين الأفراد، ويقضى على النزاعات والخصومات، ويحكم ويعدل. وقد اتبع آدم - عليه السلام -وزوجه القانون الإلهى، وهو الدين الحنيف»(٣) وقد بينت آيات القرآن الكريم هذا الجانب أوضح بيان، فآدم نال من التكريم الإلهى مالم ينله مخلوق آخر، وأوليات التكريم تقتضى المحافظة على هذا المخلوق ولايتم ذلك إلا بالنظم والقوانين والقواعد

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٢) سورة المائدة آية ٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ١١٢.

تلك التى تبينها الشرائع الإلهية يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

وآدم – عليه السلام – علمه الله الأسماء كلها وخصه دون بقية المخلوقات بالبيان، ومن جملة الأسماء التى علمه الله إياها النظم والقواعد، وقد استوعبها آدم واستظهرها من خلال خصيصة البيان، يقول تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾(٣).

هذا على سبيل الاجمال أما على سبيل التفصيل والبيان فهناك علامات ومعالم واضحة في حياة آدم تؤكد مصاحبة النظم له منذ البداية، فقد نظم الله له حياته الزوجية وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾(٤). أى أن حواء كانت زوجة لرجل واحد هو آدم – عليه السلام – ولم تكن مجرد امرأة، وإنما كانت زوجة أى قرينة له، تقوم الحياة بينهما على مواثيق وعهود مغلظة، لكل منهما فى هذه الحياة دوره وعمله.

وظهرت صورة النظام والقانون الإلهى فى حياة آدم من خلال مفردات القانون والتى تتمثل فى المأمورات والمحظورات، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥). ومن جملة القوانين الإلهية التى أوحاها الله إلى آدم لتنظيم حياته ما جاء فى قول الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء آية: ٧٠.
(٢) سورة الرحمن آية ١:٤.
(٣) سورة البقرة آية ٣١.
(٤) سورة البقرة آية ٣٥.
(٥) سورة الأعراف آية ١٩.
(٦) سورة طه آية: ١١٧.

وهكذا «لم يترك الله - تعالى - حياة هذه الأسرة تسير فوضى، دون تنظيم وضوابط تحكم سلوك الزوجين، وإنما إراد الله - سبحانه وتعالى - أن ينظم حياتهما ويدربهما على النظام والطاعة»[١].

ولم يكن هذا جديداً على آدم فقد عاشر من قبل «قانونا صدر لغيره، وخوطب به الملائكة، ورأى آدم عاقبة مخالفته، وهو مايبينه قول الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[٣].

ولم يقف القانون الذى صدر للملائكة على الأمر بالسجود - وهو محتمل التنفيذ وعدم التنفيذ - وعلى صدور الحكم من الحاكم - جل وعلا - بالجزاء والعقوبة، بل أضيف إلى ذلك تنفيذ الحكم، وإيقاع الجزاء على المجرم العاصى الخارج على القانون، فإذا نظرنا إلى الأمر الصادر من الله للملائكة وتنفيذ الأمر، وظهور تمرد وعصيان ومخالفة من أحد المأمورين، وصدور الحكم وتنفيذه، نجد أن عناصر القاعدة القانونية وخواصها موجودة ومتحققة، كما هى موجودة ومتحققة فى القانون الصادر للأسرة الأولى، المكونة للمجتمع الإنسانى»[٤].

ولما نزل آدم إلى الأرض نزل مزوداً بهذه التجربة العملية وذلك لأهمية النظام ودوره فى إصلاح حياة الفرد والجماعة، وقد تلقى آدم من ربه أول دستور جامع لقواعد وقوانين ومبادئ إدارة الحياة والاستخلاف فى الأرض وإلى هذا يشير قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

---

(١) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى ص ٥٩.

(٢) سورة البقرة أية: ٣٤.

(٣) سورة ص أية: ٧٥: ٧٨.

(٤) المصدر السابق ص ٦٢.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١). وأعلن الله آدم أن التشريع والقانون هو ماكان من عند الله وحده لاشريك له، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢). وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٣). وهكذا فخصائص النظم كانت واضحة في حياة الإنسان منذ الأسرة الأولى، وإلى هذا تشير كلمة (هدى) التي تفيد النظام كما سبق في المعنى اللغوي لكلمة نظم.

وفي قصة ابني آدم توضيح وبيان لرحلة الإنسان مع النظم الإلهية، وقيامها منذ اللحظة الأولى ترعى جوانب حياته المتعددة، يقول تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٤).

يروي ابن كثير عن ابن عباس قال: «نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى دميمة فقال أخو الدميمة

---

(١) سور البقرة آية: ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٨، ٣٩.

(٣) سورة طه آية: ١٢٣، ١٢٤.

(٤) سورة المائدة آية: ٢٦/٣١.

أنكحني أختك وأنكحك أختى فقال لا أنا أحق بأختى فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله»[١].

٢) معالم النظم فى حياة آدم وأسرته:

ظهرت معالم النظم فى حياة آدم وأسرته من خلال الحقائق القرآنية على النحو التالي:

* أن الأسرة كما رأينا هى الخلية الأولى للمجتمع الإنساني، وفى ذلك الذى ورد في القرآن الكريم ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٢] رد كاف على من يقول: إن أساس الخلية الاجتماعية هو القبيلة أو العشيرة.

* أن هذه الأسرة كانت أسرة أبوية، والقيادة فيها كانت للزوج آدم، حيث توجه الخطاب فى كل الأحوال، سواء أكان الخطاب من الله – سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى (١٢٠) ﴾ ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾[٣].

---

(١) قال ابن كثير: إسناده جيد. تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث ٤٢/٢.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٥ سورة النساء آية: ١.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٩، ٢٠. سورة طه : آية ١١٦ : ١٢٠.

* علم الله آدم معنى القانون والنظام، ومايترتب على الطاعة والمعصية والفرق بينهما.

* علم الله الإنسان أموراً كثيرة ومعانى متعددة لايمكن حصرها، منها على سبيل المثال:

الجنة والنار، الخلود والتأقيت، الكفر والتسليم، المعصية والطاعة، الكبر والخضوع، المتعة والشقاء، السكن والاستقرار والخوف والحزن، الأمر والنهى والاباحة، يوم القيامة والحشر، الهبوط والخروج، الهدى والاعراض، العرى والستر (العورات) الجوع والظمأ، وغير ذلك[1]. ومن المعالم التى نستخلصها مايأتى:

* أن تشريع الزواج كان موجوداً، وأنه لم يكن مباحاً بكل النساء، وأن بعض النساء كن محرمات على بعض الرجال، فلا يجوز الزواج بهن.

* أن الزواج بدأ برجل وامرأة واحدة، دون تعدد مطلقا، حيث لاتعدد فى النساء ومن باب أولى لم يوجد تعدد فى الرجال بالنسبة للمرأة الواحدة، كما يدعى أصحاب النظريات السابقة، القائلون بالنظام القبلى الأمى فى تكوين المجتمع الإنسانى الأول.

* تحريم القتل، وعلم أفراد المجتمع الإنسانى الأول بذلك التحريم، ومايترتب عليه من إثم، ودخول النار، لأن ذلك جزاء الظالمين.

* دفن الإنسان شرع من أول وجود الإنسان وموت أول إنسان على الأرض[2].

* القربى والتقرب، ووسيلة التقرب، وعلامة القبول وعدم القبول، ومن الذى يتقبل منه.

---

(١) انظر د. محمد طموم : الانسان الأول والتشريع السماوى ٥٨، ٥٩، ١٠٤.

(٢) سورة المائدة اية: ٣١.

* الصفات الأخلاقية، التقوى وخوف الله، والمعصية والاثم، والظلم والاعتداء وجزاء ارتكاب المعاصي.
* اليوم الآخر والحساب والجنة والنار[١].

وبذلك يكون آدم – الإنسان الأول – قد بدأ حياته متبعاً للوحي الإلهي، مما يؤكد أنه كان هناك قانون ونظام وتشريع يحكم سلوكه وتصرفه، بل وتفكيره وقلبه لتصلح عقيدة الإنسان، ويكون مؤمنا بالله – تعالى – خالقه، ولم يقف الأمر على مجرد الارشاد والتوجيه والتنبيه، وإنما كان هناك جزاء وعقاب، وتنفيذ وإيقاع لهذا الجزاء على الفور، وهذا بخلاف العقوبة الأخروية لمن أصر على مخالفة أوامر الله – تعالى – وتمادى فى ذلك وكفر.

وكل هذا يؤكد وجود القانون والتشريع الإلهى الذى بدأ مع الإنسان الأول – آدم – وطبقة آدم على نفسه وعلى أسرته.

٣) النظم فى حياة ذرية آدم - عليه السلام -:

رافقت النظم ذرية آدم من بعده فى كل زمان ومكان، وهذا مايوضحه القرآن الكريم من خلال الحقائق التى تتصل بنشأة المجتمعات الإنسانية.

الحقيقة الأولى: إرسال الرسل:

والرسل بشر، ولكل رسول رسالة تحتوى على القواعد والمبادئ المنظمة لحياة من أرسله الله إليهم، وحتى تتضح لنا هذه الحقيقة لابد أن نستعرض بعض النصوص القرآنية الواردة فى هذا الموضوع، يقول تعالى:
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ

(١) المصدر السابق ص ١٢٨.

هدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾(١). وهذه الآية تقرر أن الله «بعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة وينهون عن عبادة ماسواه»(٢). فما بقي في الأرض أحد لم تبلغه الدعوة يقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣). أرسلناه إليهم بشيراً ونذيراً إما بنفسه وإما بما أبقى في أعقابهم من شرائعه من أقواله وأفعاله ورسومه مع مالهم من العقول الشاهدة بذلك، والنذارة دالة على البشارة»(٤). ومن ثم تلاحقت رسالات الأنبياء وتواصلت يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥). وذلك حتى لايبقى لأحد من الناس على الله احتجاج يقول تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾(٦).

وقد كانت أخبار الرسالات معروفة لدى الأقوام والأجيال، فكان اللاحق على علم ودراية بالأنبياء والرسل السابقين يقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(٧). ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾(٨). ويقول على لسان نبي الله شعيب - عليه السلام - وهو يذكر قومه بالرسل السابقين: ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ

---

(١) سورة النحل آية: ٣٦.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٦٨/٢.
(٣) سورة فاطر آية: ٢٤.
(٤) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تخريج عبدالرزاق غالب، دار الكتب العلمية لبنان ط أولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ٢١٩/٦.
(٥) سورة المؤمنون آية: ٤٤.
(٦) سورة النساء آية: ١٦٥.
(٧)، (٨) سورة الأعراف آية: ٦٩، ٧٤.

قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾(١). ويقول على لسان مؤمن آل فرعون الذى آمن برسالة موسى -عليه السلام- وهو يذكر قومه برسالات بعض الرسل السابقين: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾(٢).

وهكذا أرسل الله الأنبياء والرسل دعاة ومؤسسين ومطبقين للنظم الإلهية فى حياة المجتمعات الإنسانية.

ومن ثم كان عددهم كثيراً ليناسب تفرق الناس شعوباً وقبائل وليقوم بالدور الإعلامى الشامل الكامل الذى يغطى كل الأماكن والبقاع التى وقفت صعوبة المواصلات والاتصالات حائلا أمام جمع الناس على رسالة واحدة حتى جاءت الرسالة العالمية الخاتمة رسالة سيدنا محمد - ﷺ- والتى تؤكد نظم الاتصالات الحديثة أن العالم أصبح قرية صغيرة تمثل وحدة واحدة تضمن لها الرسالة المحمدية الخاتمة القواعد والمبادئ والقوانين التى تنظم لها حياتها فى كافة المجالات.

وفى الهدى النبوى شرح وبيان لهذه الحقيقة التى تتصل برسل الله - تعالى - من ناحية كثافتهم فى السابق وتواصلهم الزمانى والمكانى منذ آدم -عليه السلام- وإلى أن وصلت منظومة النبوة والرسالة إلى سيدنا محمد - ﷺ - عن أبى ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يارسول الله: كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: يارسول الله: من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت يارسول الله: بنى مرسل. قال: نعم

---

(١) سورة هود آية ٨٩.

(٢) سورة غافر آية: ٣٤.

خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا... وأول البنيين آدم وآخرهم نبيك»[١].

الحقيقة الثانية: إنزال الكتب:

جاء الهدى الإلهى المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾[٢]. لينظم جوانب الحياة الإنسانية من خلال الكتب التى أنزلها الله - تعالى - على أنبيائه ورسله يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[٣]. وقد أوجب الله على «عباده - فى مواطن عديدة من التنزيل الحكيم - أن يؤمنوا بما أنزل على رسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه على خاتمهم وعليهم أجمعين - من كتب وصحف»[٤]. فقال - تعالى -: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٥].

وهذا شأن المؤمنين الصادقين، فالإيمان بالكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء والرسل إيمان بشمولية النظم الالهية وحقيقتها فى حياة الإنسان منذ وجد، وأما الكفر والتكذيب والتفريق بين الكتب المنزلة أو التحريف فيها والتمسك بها مع نزول اللاحق فإن هذا المعتقد يعمل

---

(١) ابن مردويه في تفسيره. الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى فى كتابه الأنواع والتقاسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزى فذكر هذا الحديث فى كتابه الموضوعات وقدروى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابى آخر عند ابن أبى حاتم. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٨٥/١. وأخرجه الامام أحمد فى مسنده بسنده إلى أبى أمامه - ﷺ - ٢٦٦/٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٨.

(٣) سورة النساء آية: ١٦٣.

(٤) د. جوده المهدى: الإيمان والتقوى فى القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦ هـ ١٩٩٥م/ ٤٠.

(٥) سورة البقرة آية: ١٣٦.

لصالح التيار المادى الملحد الذى يبحث الاجتماع والنظم الإنسانية بعيداً عن الوحى الإلهى الصحيح والعناية الإلهية بالإنسان منذ وجوده. وعليه فقد توعد الله - تعالى - هذا الصنف الأخير بما ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[2].

ومن ثم كان الإيمان بكل الكتب التى أنزلها الله على رسله لتنظيم حركة الإنسان فى الحياة هو معتقد الصادقين من أولى الألباب والنهى يقول الله - تعالى -: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[4].

وقد أوقفنا القرآن الكريم على بعض الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله، وذكرلنا المنهج العام للوحى الإلهى عموماً ومايقوم به هذا الوحى من دور فى حياة الإنسان، بل إن هذا الوحى هو الإنسان نفسه، فالإنسان الصحيح السوى هو الوحى الإلهى فى الايمان به والطواعية والإذعان والاستجابة له، ومن ثم فكل وحى لايسعد الإنسان فليس بإلهى أو داخله التخريف والتبديل.

---

(١) سورة النساء آية: ١٣٦.

(٢) سورة النساء آية: ١٥٠، ١٥١.

(٣) سورة الشورى آية: ١٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٨٥.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾(١).

هذا بشأن التوراة وقت نزولها، كان فيها الهدى والنور من أصول الشريعة وفروعها فيما يتعلق ببنى إسرائيل، وكانت مصدر الحكم والنظم للأنبياء والربانيين والأحبار، أما بعد ذلك فقد تغير حال التوراة وذلك بسبب الذين استحفظوا عليها يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾(٣).

ومن جمله الكتب التى أنزلها الله – تعالى – الإنجيل، وقال فى شأنه وقت إنزاله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤). وقد شهد القرآن الكريم للإنجيل الصحيح بتحقق صفات خمس فيه وهى: أنه ذو هدى وأنه ذو نور وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنه هدى وأنه موعظة للمتقين.

ويلقى الفخر الرازى الضوء على هذه الصفات فيقول: «إن الإنجيل هدى بمعنى: أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه وبراءة الله – تعالى – عن الصاحبة والولد، والمثل والضد، وعلى النبوة والمعاد، فهذا هو

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٧٥.

(٣) سورة المائدة آية: ١٣.

(٤) سورة المائدة آية: ٤٦.

المراد بكونه هدى. وأما كونه نورا: فالمراد به كونه بيانا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف. وأما كونه مصدقا لما بين يديه: فيمكن حمله على كونه مبشرا بمبعث محمد - ﷺ - وبمقدمه. وأما كونه هدى - مرة أخرى - فلأن اشتماله على البشارة بمجئ محمد -ﷺ - سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد - ﷺ - ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى فى ذلك لاجرم أعاده الله تعالى مرة أخرى تنبيها على أن الإنجيل يدل دلالة واضحة على نبوة محمد - ﷺ - فكان هدى فى هذه المسألة التى هى أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير. وأما ماكونه موعظة: فلا شتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة، وإنما خصها بالمتقين لأنهم الذين ينتفعون بها»[1].

تلك هى صفات الإنجيل الذى أنزله الله - تعالى على عيسى بن مريم، وأما بعده فقد أصبحت أناجيل ليست من كلام الله -تعالى - ولهذا لم تنسب إليه - سبحانه - وإنما نسبت إلى واضعيها من البشر. يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[2].

وهناك الزبور أنزله الله - تعالى - على نبيه داود -عليه السلام - يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[3]. وهناك صحف سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ذكرها القرآن الكريم فى

---

(١) مفاتيح الغيب ٤١١/٣.

(٢) سورة المائدة آية: ١٤.

(٣) سورة الإسراء آية: ٥٥.

قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾(١). كما كانت هناك صحف لنبى الله موسى - ﷺ - ، وهذه الكتب حرفها وبدلها أهل الكتاب فأصبحت مصدراً للمتناقضات وأصلاً للإفساد والتفرقة بين بنى الإنسان.

وقد جاءت الكتب الإلهية لتحقق للإنسان أمنه وأمانه فكانت وثيقة الصلة فيما بينها تحمل النظم والقوانين الإلهية التى تربى الإنسان وتنظم له جوانب حياته المختلفة.

وقد تحدثت السنة النبوية الشريفة عن هذا الرصيد الذاخر من الوحى مبينة غزارته ونوره فى حياة البشرية، وذلك كما جاء عن أبى ذر - ﷺ - «قلت يارسول الله: كم كتاباً أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب (١٠٤) أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان..»(٢).

وبعد أن قطعت الإنسانية شوطاً طويلاً جمع الله كل الكتب السابقة فى القرآن الكريم وجعله مصدر الهداية والنظم الإلهية الوحيد، لايجتمع معه كتاب آخر مهما كانت صلته بالوحى قبل ذلك يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٣).

وما أجمل الإسلام وهو يوصل للنظم الالهيــة منذ بداية الإنسان ويجعلها عقيدة وفكراً إسلاميا لايصح الإسلام ولايكمل الإيمان إلا بهذه العقيدة التى تحمل فى طياتها الاقرار بنظم الله، فالمسلم كما رأينا مطالب بأمرين: -

---

(١) سورة الأعلى آية: ١٨، ١٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٨٦/١.

(٣) سورة البقرة آية: ٢.

* الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل والأنبياء السابقين.
* الإيمان بالرسل والأنبياء السابقين.

وقد روى الإمام البخارى ومسلم فى صحيحهما الحديث الذى يبين ذلك ويوضحه واللفظ للإمام مسلم عن عبدالله بن عمر قال: حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد بياض الشعر لايرى عليه أثر السفر لايعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى - ﷺ - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، قال يامحمد أخبرنى عن الإسلام: فقال رسول الله - ﷺ -:الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً: قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال فأخبرنى عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرنى عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان. قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى: ياعمر أتدرى من السائل. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان. باب تعريف الايمان والاسلام - شرح النووى المطبعة الأميرية ١/١٥٧.

البخارى فى صحيحه كتاب الايمان، باب سؤال جبريل النبى - ﷺ - عن الايمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبىّ - ﷺ - له فتح البارى، راجعه طه عبدالرءوف سعد، مصطفى محمد الهوارى، مكتبة القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ١/١٩٢.

ثالثاً: موازنة بين النشأتين:

ربط علماء الاجتماع حديثهم وبحثهم فى نشأة النظم ببحثهم فى نشأة الإنسان الذى تطور فى نظرهم عن مخلوقات أخرى، ومن ثم لم يكن حديثهم محدداً ولايقينيا وغاية مايقال فيه: إنه إفتراضات وتصورات تجعل الإنسان فى أسفل سافلين، ولذلك أسباب عديدة نذكر منها مايلى:

* نقل معطيات العلم التجريبى إلى مجالات النظم والاجتماع وتعميم هذه المعطيات فى كل المجالات الحياتية.

* الخلط بين الثوابت والمتغيرات فى الأنفس والآفاق.

* التخلى عن أصول المنهج العلمى فى البحث، ومن ذلك دخولهم فى مجالات لا تتوفر لديهم المعلومات ولا الأدوات الكافية للبحث فيها.

* غياب الجانب الخلقى عن مقاصد البحث والدراسة، وبالتالى غياب العلاقة بين البحث العلمى والغاية العظمى التى تتمثل فى عبادة الله بالمنهج الذى ارتضاه أى الدين الصحيح الذى أنزله لينظم حياة الإنسان فى يسر وسهوله فى كل مجالات الحياة، وهذا يتطلب التخلى عن العصبيات والقوميات والرجوع بالإنسان إلى آدميته التى يشترك فيها الجميع.

* كان لرجال الدين من أهل الكتاب وغيرهم دور كبير فى إقصاء الدين عن ساحة البحث العلمى وعدم الاقتناع به، ومن ثم كان من بين المجالات التى اهتم علم الاجتماع بدراستها والبحث فيها ما أسموه «بالنظم الدينية» التى تعددت، واختلفت الأديان باختلاف الشعوب تبعاً للقواعد المضطربة التى وضعها علماء الاجتماع.

ولنا أن نستأنس في هذا المقام بأقوال بعض الباحثين بغية إلقاء الضوء على جوانب هذه القضية.

إن أخطر مايحاول دعاة التغريب والماديون وأصحاب الفلسفات أن يقولوا: إنهم يصدرون فيما يقولون به من نظريات وأيدلوجيات ومذاهب عن أساس علمي لايقبل النقض، ونحن نعلم أن هناك فارقا بعيداً جداً بين العلم بين الفلسفة وبين معطيات العلم التجريبي القائمة على البحث والتجربة على النحو الذي يتم داخل المعامل وبين الفرضيات التي لم تؤكدها التجربة بعد، أو التي قال بها العلم في مرحلة ما ثم جاءت تجارب أخرى غيرت هذه المسلمات وتخطتها. ذلك أن الخطأ والخلط إنما يجئ نتيجة تبني الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها من مجال العلم التجريبي، أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة إلى مجال المفاهيم الإنسانية وقضايا النفس والاجتماع والأخلاق، بينما لاتصلح أساليب العلم التجريبي في التطبيق على شئون الإنسانيات من نفس وإجتماع وأخلاق، هذه التي يجب أن تدرس وفق منهج غير مناهج العلوم المادية[1].

والسبب في ذلك يرجع إلى الكنيسة الأوربية فقد كانت «سببا غير مباشر أحيانا وسببا مباشراً أحيانا أخرى في نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله، وذلك لأن القائمين على هذه الكنيسة أدخلوا في دينهم كثيراً من الخرافات والخزعبلات، وجعلوها عقائد دينية، كألوهية عيسى - ﷺ - والصلب والفداء، وأضافوا إلى ذلك كثيراً من الخرافات، الدارجة عن الأرض والكون والحياة، وعندما اكتشف العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة هب رجال الكنيسة ينكرون ذلك، ويتهمون من يعتقد

(١) أنور الجندي. معلمة الإسلام. دار الصحوة ١٤٢٦ هـ ١٩٩٦/م ٢/ ٤٠١.

بالحقائق الجديدة ويصدق بها بالكفر والزندقة، ولكن حركة العلم لم تتوقف وقدم العلماء براهين جديدة على نظرياتهم العلمية فبدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها تهزم كل يوم هزيمة جديدة، فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادى كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس، فكان الرفض لكل المعتقدات الدينية والكراهة العامة لكل عقيدة تنادي بالإيمان بالغيب واتهام الرسل جميعا بالكذب والتدليس وهكذا برزت تيارات الإلحاد العالمى»[١]. وهكذا اتخذت الكنيسة ورجالها الآراء والمواقف التى كان من شأنها أن تنيع فى بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف فى الإلحاد أقصى الحدود[٢].

وقد استغل اليهود ذلك فنقلوا النظريات والمصطلحات والمفاهيم من مجال العلم إلى مجال الفلسفة والاجتماع والنظم «فإنها تخضع لكثير من الأهواء والدوافع، وقد ظهرت نظريات متعددة فى مجال العلم البيولوچى ثم لم تلبث أن نقلت إلى مجال العلوم الاجتماعية كحقائق مسلمة، من ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء. وقد تبين أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليما على إطلاقه، وأن تطبيقه فى المجال الاجتماع ليس صحيحا دائماً»[٣].

وهنا يمكننا أن نعلل اهتمام اليهود بالنظريات الجديدة ونقلها من ميدان العلم إلى ميدان الفلسفة والاجتماع والنظم، وقد جاء ذلك

---

(١) انظر عبدالرحمن عبدالخالق: الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، مكتبة الحرمين ط ثانية ص ٨.

(٢) أندرو ديكسون وايت: بين الدين والعلم تاريخ الصراع بينهما فى القرون الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء، ترجمة إسماعيل مظهر، دار العصور بمصر ١٩٣٠ ص ٢٧.

(٣) أنور الجندى: معلمة الاسلام ٢/٤٠١.

فى البروتوكول التانى «إن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل.

والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهود) سيكون واضحاً لنا على التأكيد»[١].

وكان لذلك أثره البالغ فى معظم البلاد الإسلامية وخصوصاً على شباب الجامعات تخصص الآداب والقانون، فالقائمون على تدريس علم الاجتماع وتاريخ القانون ومايتصل بذلك من نشأة المجتمعات والنظم يخالفون حقائق القرآن الكريم ويستبدلون بها آراء اليهود من علماء الاجتماع الروس والأوربيين الذين أصبحوا تابعين لهم «منذ سنة ١٩١٣/م حيث ظهرت أول رسالة مصرية فى علم الاجتماع»[٢].

وعلى الجانب الآخر جاءت الحقائق الإسلامية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية النظم واضحة تتصل بمصدرها الإلهى متتابعة فى عقيدة الإيمان بالكتب التى أنزلها الله على رسله حاملة لأصول وقواعد النظم، وعقيدة الإيمان بالرسل الذين غطت وشملت رسالاتهم الأرض. أينما وجد الإنسان، وقد توافقت هذه الرسالات مع الإنسان زمانا ومكانا، فالأصول واحدة والأهداف مشتركة والغايات متحدة يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[٣]. وتلك إشارة إلى الإطار العام الذى يجمع بين الرسالات وتتفق عليه وتعمل من أجله وذلك من خلال

---

(١) محمد خليفة التونسى: الخطر اليهودى بروتوكولات حكماء صهيون، تقدير وترجمة عباس محمود العقاد، المكتب العربى لبنان ط رابعة ص ١٢٣.

(٢) منصور زويد المطيرى: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٨٧.

(٣) سورة الشورى آية: ١٣.

المحافظة على النظم والقواعد والقوانين الإلهية، وإلى هذا تشير لفظة الدين الواردة في الآية التي آنية. «والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ماوصى به نوحا ومحمدا وإبراهيم وموسى وعيسى، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة»[1]. كما كانت الرسالات الإلهية - وهذا في التصور الإسلامي - المنظمة لحياة الإنسان قائمة على رعاية مصالح وأحوال الإنسان في المكان والزمان اللذين يعيش فيهما الإنسان وصولاً به إلى المثل الكامل والقدوة الصالحة والإنسان السوى الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ومن ثم كان لكل رسالة بعض السمات والخصائص والتشريعات التي تتفق مع الزمان والمكان تحقيقا لمقتضيات التربية الإلهية، وهذا أمر تقره وتأخذ به أصول ومناهج التربية تبعا للفروق الفردية الواقعة بين الناس والنشأة الاجتماعية وغير ذلك من الملابسات الأخرى التي تتصل بمجتمع دون مجتمع وبزمان دون زمان، وإلى هذه الحقائق يشير قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾[3].

ولم يكن هذا تطوراً وإنما كان تربية تناسب مقتضى الحال تبعاً للعلم والحكمة الإلهية، ومن ثم كان التضييق أحيانا والتوسعة أحيانا أخرى، مع التنوع في طرق الأداء، وكل هذا تربية للإنسان للقيام بالأصول والقواعد الأساسية التي اتفقت فيها كل الرسالات فكانت في النهاية رسالة واحدة، والحقيقة الثابتة في ذلك أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء - عليهم السلام - وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك: أنه أجمع

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ١٥٦/٢٧.

(٢) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٣) سورة الحج آية: ٦٧.

الأنبياء - عليهم السلام - على توحيد الله - تعالى - عبادة واستعانة وتنزيهه عما لا يليق بجنابه، وتحريم الإلحاد فى أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيما لايشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن لله ملائكة لايعصونه فيما أمر ويفعلون مايؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ويفرض طاعته على الناس، وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق والجنة حق والنار حق، وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله، وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح، وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصى، والجهاد مع أعداء الله، والاجتهاد فى إشاعة أمر الله ودينه فهذا أصل الدين، وإنما كان الاختلاف فى صور هذه الأمور وأشباحها »(١).

---

(١) عبدالرحيم الدهلوى: حجة الله البالغة، دار التراث القاهرة ١٩٧٧م ١/٨٦.

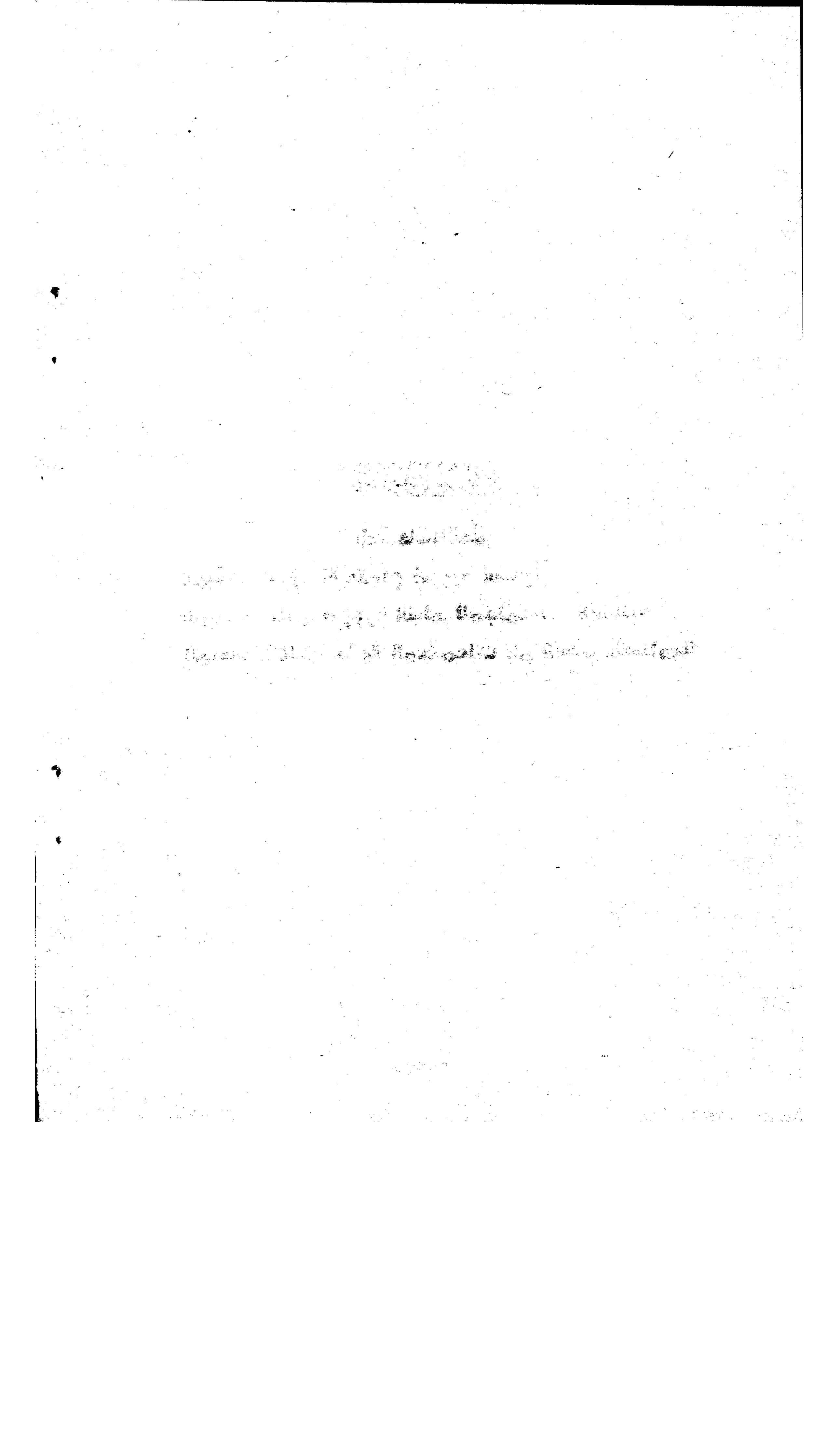
الفصل الثاني

المجتمعات والنظم

المبحث الأول: الإجتماع ضرورة إنسانية

المبحث الثاني: ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية

المبحث الثالث: حاجة المجتمعات إلى النظم الإسلامية



المبحث الأول
الاجتماع ضرورة إنسانية

أولاً: أسبابه ودوافعه:

قيام المجتمعات ضرورة تقتضيها السنن والقوانين التي خلق الله الإنسان عليها، وهذه حقيقة لاخلاف عليها.

يقول ابن خلدون: «إعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه»(١).

لقد أوجد الله المجتمع البشرى، لنفس الحكمة التى أوجد لها الإنسان كفرد، وأوجد لها العالم، «فغاية وجود المجتمع البشرى تتفق وتتمشى مع الغاية من الوجود الإنساني - بخاصة - من ناحية، ومع غاية وجود العالم - بعامة - من ناحية أخرى، فالله - سبحانه وتعالى - القدير على كل شئ، لو شاء لجعل الإنسان مخلوقا فرديا، لايعيش في مجتمع بالضرورة، ولكنه شاءه اجتماعيا، تحقيقا للحكمة التى من أجلها خلق الإنسان، وهى الابتلاء، حيث يمتحن الله الناس بالناس فى المجتمع عن طريق التفاعل بينهم، المتمثل فى العلاقات والمعاملات الاجتماعية بشتى صنوفها»(٢).

والمجتمع هو مجموعة من الأفراد، يربط بينها رابط مشترك يجمعها تعيش عيشه مشتركة، وتنظم حياتها علاقات منتظمة معترف بها فيما بينهم. قد يكون هذا الرابط الأرض ومايقوم عليها من مصالح مشتركة كالمجتمع السويسرى وقد يكون الجنس والأصل ومايتصل به من لغة وثقافة وتاريخ ومبادئ وهو المجتمع القومى، وقد يكون المبادئ السائدة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم بيروت ط رابعة ١٩٨١/م ٢٠٢ ومابعدها.

(٢) د. فاروق أحمد دسوقى: مقومات المجتمع المسلم دار الدعوة الاسكندرية ١٧٥.

والمعتقدات المشتركة، ومايتولد غنها من أفكار وعواطف وسلوك، وهو المجتمع العقائدى كالمجتمع الإسلامى»[١].

وللاجتماع البشرى أسباب كثيرة ودوافع عديدة تجعله مطلبا إنسانيا وحاجة وجدانية فطرية.

يأتى على رأس هذه الدوافع وتلك الأسباب الدافع النفسى، فالإنسان يميل بفطرته إلى الأنس بالجماعة، ومن أجل ذلك كانت عقوبة السجن حرمانا من الجماعة، يشعر معه السجين بالألم النفسى[٢].

وهناك الدافع المادى. فالإنسان لايستطيع أن يقوم بتحصيل حاجته بمفرده«ولنضرب مثلا بحاجة الإنسان إلى الغذاء الذى به بقاؤه، «فإن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل مايمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطه - مثلا - فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لاتتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى، وهب أنه يأكله حبا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج فى تحصيله - أيضا - حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة

---

(١) المصدر السابق ١٧٦ ومابعدها.

(٢) وفى قصة الثلاثة الذين خلفوا إشارة إلى ذلك فقد عالجهم رسول الله -ﷺ- بترك الحديث معهم من جميع أفراد مجتمعهم فكان العلاج ناجعا ولكن بعد أن وصلوا إلى مرحلة عبر عنها القرآن الكريم ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ سورة التوبة: آية ١١٨ مع أن سجنهم كان نفسيا معنويا لاحقيقيا.

أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم»(١).

وهناك الدافع الأمني الذي لايتحقق إلا بالأخوة الإسلامية والمحبة الايمانية التي تقوم على التوصي بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى ومجالس العلم والذكر وتلاوة القرآن، وليس هذا تحيزا، وإنما بيانه: أن الأمن أمر نفسي، والنفس لايعلمها إلا الذي خلقها فهي تحتاج في أمنها إلى أسباب من شرعه تناسبها وتتفق مع طبيعتها وجوهرها وعمقها حتى يتحقق لها الإشباع النفسي الذي عبر عنه القرآن بالسكينة والرحمة والمودة والمحبة والخشية والأمن والنور.

وعلى كل فهو دافع إلى الإجتماع الإنساني ينضم إلى الدوافع السابقة، والناس جميعا متساوون في هذه الدوافع، ففطرتهم واحدة وتكوينهم واحد، لذلك، «احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة، متظاهرين متعاونين، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، أي أنه لايمكن التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا»(٢).

ثانيا: إشارات قرآنية:

القرآن الكريم كتاب دلالة وهداية، يمكن الإنسان من توظيف ملكاته، ولكن بطريقة مثلى تتفق مع أحكامه ونظمه، وقد خلق الله الإنسان واستعمره في الأرض، وجعل له ميلا وفطرة إلى الاجتماع الإنساني الذي لاتتم مصالحه إلا به. هذا الميل وتلك الفطرة تتحرك من

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٤١.

(٢) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق د. أبواليزيد العجمي، دار الوفاء بالمنصورة ط ثانية ١٤٠٨هـ ١٩٧٧م ص ٣٧٤.

خلال دوافع مادية ومعنوية تدفع بالإنسان إلى تحقيق تلك الضرورة التى خلق الكون من أجلها، وفى القرآن إشارات إلى أن الاجتماع الإنسانى سنة ربانية وفطرة إنسانية، وفيه معالجة للدوافع التى تحقق هذا الاجتماع.

أما إشارته إلى أن الاجتماع ضرورة ففى قوله تعالى:﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(١). ولاتتكون القبائل والشعوب فى قرى ومدن إلا إذا أحست بفطرة هذا الاجتماع وضرورته، وحركتها إليه الدوافع.

ويعرض القرآن الكريم مثلا عمليا ونموذجا تطبيقيا لبيان هذه الفطرة وتلك السنة الربانية من خلال نبى الله ورسوله إبراهيم -عليه السلام- وذلك فى قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٢). وقوله:﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(٣).

وفى هذه الآيات يعالج القرآن الكريم الحقائق المتصلة بضرورة الاجتماع الإنسانى مبينا أنه فطرة ينبغى على الإنسان أن يأخذ لها من الوسائل مايحققها، وقد أفادت الآيات القرآنية الكثير من الحقائق التى تتصل بذلك.

---

(١) سورجة الحجرات: آية ١٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٣) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

* أن الاجتماع الإنساني ضرورة وفطرة «اجعل هذا بلدا» «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» «أسكنت من ذريتي بواد» «قال ومن كفر».

* أن هذه الفطرة وتلك الضرورة ترتبط بدوافع لايملك تحقيقها إلا الخالق لها ولأسبابها ودوافعها التي تحركها كالأمني والنفسي والمادي ولذلك قال: «بواد غير ذي زرع» وقال: «وارزقهم من الثمرات» وقال: «رب اجعل هذا البلد آمنا».

* أن الاجتماع البشري لايكون عشوائيا، وينبغي أن يسبق بالدراسة والتخطيط وحسن الاختيار حتى يحقق أهدافه وغاياته ولذلك قال: «عند بيتك المحرم» حتى يتحقق للاجتماع البشرى أمنه الحقيقي في جوار مؤسساته الإيمانية العلمية والفكرية والثقافية وهي المساجد عموما، وفي النص إشارة إلي المحافظة علي المجتمع من المؤسسات الصناعية وكل مايسبب عدم الراحة والأمن أو يفتح علي المجتمع أبواب الشهوات والمعاصي.

* أن دوافع الاجتماع الإنساني ليست ذاتية وإنما هي وسيلة إلي غايات كبرى ومقاصد عليا ولذلك قال: «ربنا ليقيموا الصلاة» «لعلهم يشكرون».

وقد استخرج الفخر الرازي من هذه الآيات بعض الحقائق التي تتصل بالاجتماع الإنساني منها، أن إبراهيم - عليه السلام - «طلب من الله نعمة الأمان، والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لايتم شئ من مصالح الدين والدنيا إلا به»[1]. ومنها أن إيصال الثمرات إليهم يحتمل أن يكون بسبب التجارات، ويحتمل أن يكون على سبيل التجارات، ويكون المراد: عمارة القرى بالقرب

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/١٣٥.

منها لتحصيل الثمار منها»[١]. ومنها أن إبراهيم طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات»[٢]. وبذلك تأخذ دوافع الاجتماع الإنسانى صبغتها الربانية ووجهتها الإسلامية.

وإلى جانب القرآن الكريم جاءت السنة النبوية منبهة على ذلك «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٣]. «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤].

وفى ظل هذا التوجيه النبوى تتبلور الدوافع وتظهر حقائق الإيمان لدى المسلم فيشارك أهل مجتمعه المودة والرحمة والعطف، وهذا يحقق ترابط المجتمع الإنسانى وتواصله ويبتعد به عن عوامل الإندثار.

(١، ٢) المصدر السابق ١٩/١٣٧.

(٣) رواه البخارى. كتاب المظالم. باب نصر المظلوم. فتح البارى ١٠/١٨٠.

ومسلم. كتاب البر والصلة. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم. شرح النووى ١٦/١٣٩.

(٤) رواه مسلم. كتاب البر والصلة. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم. شرح النووى ١٦/١٤٠.

المبحث الثاني
ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية

أولاً: عرض وبيان:

من الحقائق الثابتة أن المجتمع ضروري للإنسان، لأنه لا وجود للإنسان إلا في مجتمع، ووجوده في غير مجتمع مجرد تصور، والنظام ضروري للمجتمع أيا كان هذا النظام»[١].

يقول ابن خلدون: «إعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الإجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لابد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه»[٢].

ويؤكد ضرورة النظم للمجتمعات أمور عديدة:

* الطبيعة الإنسانية التي تحمل الخير والشر وتمتلك الحرية الكاملة في تصرفاتها ووقوعها تحت المؤثرات الخارجية والداخلية مما يجعل مواقف الناس تتعدد تجاه الشئ الواحد، وهذا يؤدي إلى التناحر والتصادم.

* الاستعداد الإنساني، فقد خلقه الله مستعداً للتعلم وأعطاه القدرة على البيان ومنحه وسائل للإدراك وملكات للإبداع، والتنظيم يحافظ عليها أولا وينميها ويزيدها صفاء ثانيا، وترك التنظيم يبددها ويغيرها وهذا يفقد الإنسان الإحساس بالجمال والتذوق للمعاني ويعرض إنسانيته للضياع.

---

(١) د. محمد طلعت أبو صير، د. مصطفى أبو سمك: دراسات في النظم الإسلامية ١٩٠

(٢) المقدمة ٣٠٢

* المثال الكونى حول الإنسان بكل أجزائه ومكوناته يقوم على التنظيم فكل شئ فى الكون فى مكانه الصحيح، وكل مخلوق يعرف دوره ويؤدى عمله تبعاً لسنة التسخير الإلهى. يقول تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[1]. ويقول: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].

وهذا النظام الكونى يطالب الإنسان بضرورة تنظيم حياته، حتى لاتمتد يده إلى العبث بنظامه الذى يضفى عليه جمالاً ربانيا.

* الواقع الحياتى العملى، «فالعلاقة بين أفراد الجماعات البشرية تضرب فى اتجاهات متعددة، فالفرد يريد أن يشبع حاجات كثيرة، لايتم إشباعها إلا عن طريق الآخرين (وتلك هى الضرورة) فيريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتزوج وأن يأمن على نفسه وعلى ماله وعلى عرضه، فكيف يحقق كل هذا؟.

لابد من وجود نظم تحدد ماله وماعليه في جماعته التى يعيش فيها، وقد تدخل هذه الجماعة فى علاقة مع غيرها من جماعات، ولابد من وجود نظم تحدد هذه العلاقات.. وكلما نمت الجماعات البشرية كلما احتاجت إلى مزيد من النظم»[4].

ومن هنا بدأت الجماعات والأمم تبحث عن حل لكل هذه القضايا - وهذا فيما يخص غير المسلمين منذ آدم وإلى الآن - فكانت الأعراف

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢.

(٢) سورة طه: آية ٥٠.

(٣) سورة يس: آية ٤٠.

(٤) د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٢.

والتقاليد وكان مايسمى بالضبط الاجتماعى، ومفهومه «ذلك النمط من الضبط الذى يمارسه المجتمع على جميع أفراده للمحافظة على النظام ومراعاة القواعد المتعارف عليها أو الموضوعة»(١).

ويشير هذا المفهوم إلى القوى التي يمارسها المجتمع على أفراده والطرق أو المعايير التي يفرضها للهيمنة والإشراف على سلوكهم وأساليبهم فى التفكير والعمل، وذلك لسلامة البنيان الاجتماعي والحرص على أوضاعه ونظمه والبعد عن عوامل الانحراف، ومن ثم تبدو أهمية الضبط لتقرير العلاقة بين النظام الاجتماعى والفرد أو العلاقة بين الوحدة والمجموع»(٢).

وبناء على ماتقدم أصبحت النظم ضرورية للمجتمعات الإنسانية بعد أن تكونت وأصبحت تمثل كتلا بشرية، وهذا مايشترك الناس جميعا فى الإقرار به وهو ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية، أما الخلفية المعرفية التى يبنى عليها علماء الاجتماع هذه الحقيقة لتصبح واضحة لدى الأفراد وضوحاً يتيح للإنسان حرية الاختيار بين النظم فهذا أمر كتمه علماء الاجتماع، أو لم تتيسر لهم أدواته، أوهم أرادوا المغالطة.

ثانيا: حقائق قرآنية:

بناء الفكر لدى الأفراد أمر مهم، وتقديم مفردات الأشياء ضرورى فكل ذلك يساعد على قبول الحقائق ويجعلها محل تسليم، وقد سلك القرآن الكريم هذا المسلك وهو يعرض لضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية، وتلك تربية نظمية، فقد عرض هذه الحقيقة من جوانبها المختلفة وزواياها

---

(١) د. محمد عبدالمعبود مرسى: دراسات فى مشكلات الضبط الإجتماعى ص ٦.

(٢) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الإجتماع ٣٨٢.

المتعددة حتى تأخذ هذه الحقيقة مكانها الصحيح من قلب المسلم وعقله بصورتها الصحيحة التى تجعل الإنسان يختار النظم الإسلامية على غيرها، وتجعل المسلم يزداد تمسكا بنظمه الإسلامية.

والنصوص فى ذلك كثيرة تخاطب الجميع ولكن العالم الاجتماعى المسلم يحسن قراءتها وتدبرها وتصنيفها فى صورة تغطى هذا الجانب المهم، فليس المهم أن يقرر الأفراد ضرورة النظم ولكن الأهم أن يقتنع الإنسان بالنظام الحق، وهذا دور الباحثين المسلمين فى العلوم الاجتماعية.

وقد عرض القرآن الكريم هذه الحقيقة فى النقاط التالية:

* أن ضرورة النظم توجيه إلهى وتعليم ربانى، فهى ليست من اختراع المجتمع الذى دعته الحاجة إليها، فقد علم الله آدم عليه السلام أن التنظيم ضرورة إيمانية عندما أمره ونهاه وعندما أنزله إلى الأرض قائلا له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1]. والهدى هو النظام الإلهى وقد وعد الله به آدم، وانتظار آدم له إنما ليدرك أهميته.

* بيان مصدر النظم وأن الله هو الحاكم يقول تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2]. وأن الناس أمام الله فى هذا النظام سواء.

* وصف من لم يهتم بالنظم الإلهية ولم يقر بضرورتها بالعجز ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[3]. مع بيان حال من يحافظ على النظم ويبين للناس ضرورتها للمجتمع.

---

(١) سورة طه: آية ١٢٣.

(٢) سورة يوسف: آية ٤٠.

(٣) سورة المائدة: آية ٣١.

عرض نماذج للمصلحين الذين يشغلهم حال المجتمع عندما يفقد النظم الإلهية وينسى ضرورتها. يقول تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾(١). ويقول: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٢). وفى هذا لوم لقومه وحث لهم على اتباع المرسلين الذين يحملون رسالة النظام الإلهى، وماكان لتقصيرهم من سبب إلا أنهم نسوا ضرورة النظم الإلهية فنكرهم بهذه الضرورة. كما هو الحال والشأن فى مؤمن آل فرعون ولقمان وزوجة فرعون، وأهل الإيمان فى مواجهة أصحاب الأخدود، كلها نماذج جاء عرضها فى القرآن لغرس حقيقة ضرورة النظم الإلهية فى القلب والعقل المسلم، فالرجوع إلى الحق والالتزام به لايكون إلا بعد معرفة ضرورته وأهميته.

* أن النظم الإلهية هى المحور الأساسى والشرط الرئيسى وحجر الزاوية لقيام الحضارات وبقائها. وهذا اختصار لعوامل البقاء والاندثار التى تمثل قانونا إلهيا يعمل فى الأمم والمجتمعات.

وقد بين القرآن ذلك أوضح بيان عند ماتحدث عن المجتمعات القديمة وذكر عوامل القوة والضعف فيها وبين أسباب اندثارها وزوالها، وعوامل قوتها وبقائها، فمملكة سبأ وقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم توفرت لهم دوافع الاجتماع البشرى حتى شيدوا هذه الحضارات ولكنها لم تكن كفيلة ولا كافية لبقائها، لأن الدوافع تحتاج إلى نظام من خلق فى الإنسان هذه الدوافع.

وأما مملكة ذى القرنين ونبى الله داود وسليمان - عليهما السلام -

---

(١) سورة القصص: آية ٢٠.

(٢) سورة يس: آية ٢٠.

فقد توفرت لهم أسباب النجاح والقيام بمهمة الخلافة فى الأرض حتى أدت دورها الإسلامى الحضارى.

وهذا أسلوب قرآنى غير مباشر لترسيخ الحقائق فى القلوب والعقول نمن يقارن بين الصورتين والنموذجين تتضح له أهمية وضرورة النظم الإلهية الإسلامية.

ويراعى القرآن الكريم فى التعليم السننى والاجتماعى الفروق الفردية فيعرض النماذج الكبيرة فى صورة فردية تقريبا للحقيقة وزيادة فى البيان والتوضيح، فهذه للسواد الأعظم وتلك للمتخصصين ومن يرصدون النتائج، ومن هذا القبيل حكايته عن قارون وصاحب الجنتين وأبولهب والوليد بن المغيرة المخزومى وفى المقابل ذكره لأهل الكهف والعبد الصالح وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم.

ولما كانت الحقائق واحدة والنفس الإنسانية واحدة والنعم الإلهية واحدة والسنة الإلهية فى بقاء الأمم أو زوالها واحدة فإنها صالحة لاستغراق كل أفراد الجنس فى كل زمان ومكان، وبذلك ينقل الإسلام التجارب التى خاضتها الأمم السابقة ورصدها القرآن مختصراً الزمن ليجعلها واقعا حقيقا للمعاصرين لنزول القرآن ومن يأتى بعدهم إلى قيام الساعة، وأنهم فى نفس التجربة والابتلاء فلابد من البحث عن مخرج يقول تعالى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١).

وهكذا يقرب القرآن الأفكار ويبنى العقول ويقدم الدليل وينفى الشبهات ويبعد الشوائب ليزداد اليقين بضرورة النظم الإسلامية، فلايجد القلب مناصا من التسليم لحكم الله ونظامه.

---

(١) سورة التوبة: آية ٦٩.

المبحث الثالث

حاجة المجتمعات إلى النظم الإسلامية

أولاً: من ينظم المجتمعات؟

إذا كان الإجتماع البشرى ضرورة إنسانية وفطرة خلق الله الإنسان عليها، وإذا كانت النظم ضرورية لصيانة المجتمعات ورقيها، فإن هذا لايتم «إلا فى ظل نظم تحدد الحقوق والواجبات، وتضع الحدود والعقوبات، وتملك قوة السيطرة على الأفراد والجماعات، لذا كانت المجتمعات - ولاتزال - فى حاجة ماسة إلى نظم تنظم حركتها، وتكفل لها النجاح فى خطواتها، وتحقق لها السعادة الدائمة»[1].

ولما كانت النظم الوضعية فى دنيا الناس كثيرة، وكانت هناك نظم الوحى والتى يتجاهلها علماء الاجتماع، فإن الإنسان يقع بين أمور عديدة: إما التقليد والسير على طريق الآباء، وإما اتباع الهوى، وإما أن يبحث عن الحقيقة التى تتلاءم مع الفطرة، وليس هذا إلا فى نظم الإسلام.

وكما يقول ابن خلدون عن الوازع الحاكم الذى ترجع إليه المجتمعات فى نظمها: «تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها مايتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم»[2]. فالنظم إما أن تكون إلهية، وإما أن تكون بشرية، والأولى أساسها الوحى، والثانية ترجع إلى العقل.

---

(١) د. مصطفى أبوسمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦.

(٢) المقدمة ص ٣٠٢.

أما بالنسبة للعقل فهو الطريق الذى سلكه الذين أعرضوا عن طريق الوحى فى تنظيم المجتمعات، ومن خلاله وضعوا لأنفسهم تشريعات جاءت على هيئة أفكار وفلسفات ومذاهب وتيارات عرفت عند البعض بالشيوعية والديمقراطية والعلمية وغير ذلك من المسميات والاتجاهات التى لايمكن الحكم عليها بالنجاح أو الفشل فى تنظيم المجتمعات إلا بعد الوقوف على غايات وأهداف المجتمعات البشرية والعمران الإنسانى، ومعرفة أهداف ومقاصد النظم فى حياة الناس.

ثانياً: غايات المجتمعات والنظم:

عندما تتضح الغاية من الاجتماع الإنسانى يستبين للعقل البشرى السليم المصدر الحقيقى لتنظيم المجتمعات دون تعصب أو عنصرية.

ونستطيع أن يقول إن الغايات التى يتفق عليها الجميع أن يكون كل فرد فى المجتمع متمتعا بكل حقوقه، فنفسه محفوظه، ورأيه مكفول الحماية، وعرضه مصون، وماله فى أمن، قد وجد حاجاته الضرورية، ووجد حاجاته التحسينية، وشعر بالأمن والاستقرار، وأمن من جور الآخرين عليه»[١]. وهذه غايات جمع كبير من البشر، ويضيف إليها المسلمون «أن من الغايات التى ينبغى أن يحرص عليها - أيضا - للمجتمعات البشرية كلها. أن تجد دينها محفوظا لتحقيق عبوديتها لخالقها، ورازقها ومسخر الكون لها، وبالقيام بحق العبودية تتحقق الغايات السابقة من العيش الرغد ومن الأمن والطمأنينة. وتبقى الغاية الأخرى وهى تحقيق النجاة لهذه المجتمعات يوم لقاء ربها من عذابه والفوز بالنعيم بجنته[٢].

وهذه الغايات يجمعها مايعرف فى النظم الإسلامية بالكليات الخمس أو الضروريات الخمس، «ومجموع الضروريات خمسة وهى: حفظ الدين

(١، ٢) د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٤.

والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة»[١]. من الملل التي شرعها الله تعالى. وعندما ننتقل إلى الغايات التي تحققها النظم فإننا نرى البروفيسور جورج هيتكروس باتون يتساءل قائلاً: «ما (المصالح) التي لابد للدستور المثالي أن يحافظ عليها؟ إنه سؤال يتعلق «بالقيم»، ويدخل في فلسفة التشريع. وما أكثر مانرجو من الفلسفة أن تساعدنا، ولكن ماأقل ماهي مستعدة لبذله في هذه السبيل. فقد فشلنا في الكشف عن «ميزان للقيم» يمكن قبوله لدى جميع الأطراف»[٢].

فالغاية الجامعة للمجتمعات والنظم هي تحقيق السعادة للإنسان، ومفهوم السعادة لايستطيع الإنسان أن يحدده لأنه مخلوق، ولذلك إذا ترك له تحديد هذا المفهوم فإن الآراء ستتعدد والأهواء ستختلف «حتى قال خبير في التشريع «لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جوابا»[٣].

وإذا كانت السعادة منوطة بالنظم والمجتمعات، وطريق ذلك، «البحث عن العدل، فإذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالا هاما هو: ما العدل؟ وكيف يمكن تعيينه؟ كما يقول اللورد رايت، أما جون أستين فيقول:

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الإنسان لن يستطيع الكشف على أساس واقعي للتشريع، رغم الجهود الجبارة التي بذلت في هذا الحقل منذمئات السنين، ويزداد يوما بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع، لأن الفلسفة قد فشلت في بحثها عن أهداف الدستور»[٤].

---

(١) الشاطبي: الموافقات ٢/١٠.

(٢) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، كتاب المختار ١٩٩١م ٢١٧.

(٣) المصدر السابق ٢١٤.

(٤) نفس المصدر ٢١٦ ومابعدها.

ثالثاً: قصور العقل البشرى فى التنظيم:

لايخفى على أحد أن التخصص فى كل المجالات مطلوب، وأن الحقائق لاتأتى إلا من أهل التخصص، وقد مر بنا كلام علماء التشريع والقانون الغربيون وهو يشير إلى قصور العقل البشرى عن الوصول إلى تحقيق غايات الإجتماع والنظم.

وأوجه القصور فى تنظيم العقل البشرى للمجتمعات كثيرة منها:

* القصور الزمانى. فالإنسان محدود بحدود زمنية، فلو علم حاضره الذى يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضى بالإطلاع والمدارسة فإنه لايدعى علما بالمستقبل، ولذلك لو صلح نظامه فسيكون ذلك الصلاح فى حدود فترة زمنية محدودة، ثم يأتى الغد بما لم يعمل له حسابا، ومن أجل هذا يتغير النظام... وأى نظام يكون على هذه الدرجة من التغيير السريع لايحقق للمجتمع استقراراً واطمئناناً، بل يبقى فى تقلب مستمر.

* القصور المكانى. فوسائل الإدراك فى الإنسان محدودة بقدرات محدودة لا تتجاوز مكانا محدداً، والإنسان لايدعى الإحاطة بالبيئات كلها، وإن صلح نظامه فى بيئته فإنه لايتفق مع البيئات الأخرى، وتبعا لذلك تتعدد النظم ويأتى الاختلاف والتصادم ويأتى حب السيطرة وفرض النظم من القوى على الضعيف دون النظر إلى خصائص كل بيئة، فيقع الشقاق مكان التعارف والتنافر مكان التعاون، لأن الإنسان لم يعترف بقصوره المكانى والزمانى، ولم يترك ذلك لمن لايحيط به الزمان ولا المكان وهو الله الخالق سبحانه.

* الجهل بحقيقة الإنسان والأشياء. فالإنسان مخلوق فكيف يحيط بحقائق الأشياء وهو يجهل حقيقة نفسه وكيف يضع نظما وهو محل النظم، وتلك بدهية من البدهيات ولكن الضلال فيها كبير. يقول «ألكسيس كارليل»: لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لانفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير فى وسطها حقيقة مجهولة، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة.. وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب»(١).

وقد لمس هذا الباحث الكثير من جوانب القصور بحقيقة الإنسان، فكيف ينظم لنفسه من يجهل نفسه فضلا عن أن ينظم لغيره؟.

* الميل إلى طرف من الأطراف. وهى حالة لاشعورية تحكم الإنسان إذا لم تكن له وجهة من الحق، فهى التى توجه النوافع وتنظم ملكات النفس «وباستقراء للفكر البشرى قديمه ومعاصره نجد أن المفكر يجنح فى تفكيره لجهة من الجهات ولطرفه من الأطراف، وذلك لأنه يفكر باللون الذى ربى عليه، فمن ربى على نزعة مادية تطرف وصار إليها. ومن ربى على نزعة خيالية فى فكره صار إليها، ومنهم من يميل مع الفرد على

---

(١) ألكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريدمكتبة المعارف بيروت ١٤٠٧١هـ ١٩٨٦م ١٦: ١٨.

حساب الجماعة، ومنهم من يميل مع الجماعة على حساب الفرد، وهكذا نرى ميلا وتطرفا إلى جانب واحد. ولما كان هذا الميل فى التفكير من عادة البشر كان النظام الذى يأتى من قبلهم لايحقق التوازن فى المجتمعات البشرية»[١].

وهذا يبين لنا كيف نشأت المذاهب والتيارات الكثيرة، ولماذا نشأت؟

ومن الأمثلة التى تشرح ذلك أفلاطون ذلك اليونانى الذى أخذ يفكر لمجتمعه ويرسم معالم لمدينة يتخيلها ويريد أن يحقق الخير والسعادة من خلالها. ولكن كيف يتوصل إلى ذلك؟.

إن تفكيره عجيب ومدمر، إنه يرى قتل الأولاد الذين يولدون لآباء شريرين حتى يقضى على الشر.

وهو يريد لمدينته أن تكون قوية والسبيل إلى ذلك أن يقضى على المرضى والضعفاء من الأولاد»[٢].

وهذا اللون من التفكير القديم له نظائر فى الفكر المادى الحديث وتعاد كتابته وصياغته تحت مسميات جديدة.

رابعا: حتمية النظم الإسلامية للمجتمعات:

القول بحتمية النظم الإسلامية للمجتمعات البشرية له من الأدلة والشواهد مايؤيده، ويجعله بمعزل عن العنصرية، وخصوصاً إذا كانت البشرية لاتعرف غاياتها من الاجتماع الإنسانى ولاتعرف غايات النظم وأهداف الدستور، فضلاً عن جهل الإنسان بحقيقة نفسه وقصوره المكانى والزمانى وميله فى تفكيره لجهة من الجهات.

---

(١) محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٥ ومابعدها.

(٢) عمر عودة الخطيب: المسألة الإجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، مؤسسة الرسالة ط ثانية ١٩٧٨م ٤٦.

وهنا يأتى دور النظم الإسلامية فى تنظيم المجتمعات وأنها الأجدر بذلك. وهذا أمر حتمى كحتمية السنن والقوانين الكونية التى خلقها الله وأبدعها.

وحتمية النظم الإسلامية للمجتمعات تقوم على ركائز إسلامية وحقائق قرآنية يلخصها الدكتور مصطفى أبوسمك بقوله:

«إن مرد احتياج المجتمعات إلى النظم الإسلامية وحده، راجع إلى ماتتمتع به من:

* صلاحية ذاتية.

* آثار طيبة.

وهذا هو جوهر الاختلاف بين النظم الإسلامية والوضعية[1]».

وبشئ من التفصيل نتناول المصطلحين السابقين.

أولاً: الصلاحية الذاتية:

صلاحية النظم الإسلامية للمجتمعات البشرية نابع من ذاتها، فالنظم وثيقة الصلة بالمجتمعات فمصدر النظم هو خالق الكون والإنسان، وتتجلى صلاحية النظم الذاتية فى الحقائق التالية:

١) أنها نظم الخالق الذى خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه، وخلق الكون وصنعه فأتقنه، ومنهما وعليهما تقوم المجتمعات، فالعلاقة بينهما واحدة وقائمة، وهى وحدة المصدر، ووَحْدَة الخالق والصانع الذى يرجع إليه فى معرفة أسرار صنعته وكيفية عملها. والسبيل إلى ذلك ممثل فى الوحى الإلهى.

---

(١) انظر نظرات فى نظم الاسلام وثقافته٢٦.

وقد جاءت هذه الحقائق فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[١]. وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾[٤]. وفى قوله تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٦].

وهذه الآيات تقرر أن الله هو الخالق للكون والإنسان، وأنه يعلم دقائق هذا الخلق وأسراره، فلايسأل عن الخلق غيره، ولا ينظم أموره سواه، وهذه الحقيقة تقرها العقول السليمة وحقائق العلوم الإنسانية التجريبية، ومما لاشك فيه أن هذه الحقيقة تجعل الثقة كاملة فى النظم الإسلامية، فهى نظم الخالق الصانع الرازق.

٢) أن هذه النظم تنطلق من أصول وركائز تجعلها حاضرة فى قلب المسلم وعقله دائماً، وتمدها بحيويتها وفاعليتها المستمرة، كما تحميها من المؤثرات الداخلية والخارجية فلها أساس فكرى عقدى، ومنهج تعبدى سلوكى متواصل، ولها واقع عملى يجرى فى إطار خلقى تربوى.

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٢.
(٢) سورة لقمان: آية ١١.
(٣) سورة الصافات: آية ٩٦.
(٤) سورة ق: آية ١٦.
(٥) سورة الملك: آية ١٤.
(٦) سورة الأنعام: آية ٥٩.

فالمسلم أينما كان يراقب الله، وهو يغذى هذه المراقبة بشعائر العبادة التى تثبت فى قلبه معالم النظم وأحكامها، ثم هو يدلل على تغلغل تلك العقيدة فى قلبه واستقرارها فى عقله بسلوك خلقى يطبق من خلاله هذه النظم فتبقى النظم حاضرة على الدوام لديه. وبذلك فالنظم الإسلامية لاتحتوى على أحكام وقوانين فقط، ولو كانت كذلك لكانت بعيدة عن القلب والعقل وكانت أقرب إلى النسيان والفتور، ولكنها تحمل معها مقومات حبها واستحضارها والتفكر فيها والمحافظة عليها فتبقى جديدة مثمرة، سهلة واضحة.

وهذا الارتباط بين النظم الإسلامية والعقيدة والعبادة والأخلاق منظومة كاملة فقها وتطبيقاً، ونعنى بهذا أن مجرد الالتزام بأحكام الإسلام فى أى مجال (سياسة – معاملات – قضاء – حدود) دون الالتزام بسائر العبادات، أمر يسلب (الإسلامية) عن الأحكام الملتزم بها، حتى لو كانت هذه الأحكام إسلامية فى شكلها وصورتها، فهيهات أن تبقى صفة الإسلام لفرد أو لمجتمع يفرط فى أداء العبادات»[1]. أو يتخلى عن مكارم الأخلاق، فكلها مظاهر وحقائق العقيدة الصادقة.

ثانياً:الآثار العلمية:

١) جمعها بين التربية وحسن التوجيه.

جاءت النظم الإسلامية تجمع بين الفكر والتطبيق، فالنصوص (الدستور) مكتوبة فى القرآن ومحفوظة فى الصدور، ويأخذ المسلم حظه منها فى الصلوات الخمس سرية كانت أو جهرية، فردية كانت أو جماعية، ثم هو بعد ذلك مطالب بتطبيقها وتحقيقها وهذا يتأتى من

---

(١) د. مصطفى أبوسمك: مصدر سابق ١٩.

الاتصال المباشر لأحكام النظم بالعقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة والخلق الكريم، وفى ظل هذه المنظومة يقبل المسلم بكل ملكاته وجوارحه على مفردات هذه النظم ينزل أحكامها على حياته الشخصية والعامة يوما فيوما وشيئا فشيئاً تدفعه إلى ذلك عقيدته وعبادته وأخلاقه، وهو فى كل ذلك يترسم خطى الطاعة ومعالم الإيمان فتتحقق له الشخصية السوية والفكر الواعى والعقل الناضج والقلب السليم، وتلك هى الصورة المثلى التى تنشدها التربية، إنها الاستقامة التى تبنيها النظم الإسلامية فى المسلم يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وهكذا تضع النظم الإسلامية الإنسان على الطريق المستقيم محركة فيه جوارحه الظاهرية وملكاته وقدراته الداخلية، وذلك بالامتثال والتطبق لمفردات هذه النظم فى كل صغيرة وكبيرة وفى كل شأن من شؤون حياته، وتلك تربية الظاهر، وأما تربية الباطن وطهارته فتساعد عليه وتصنعه العقيدة بمفرداتها التى تتصل بالعلم الإلهى والمراقبة والخشية لله سبحانه وتعالى، وبذلك تتفوق النظم الإسلامية فقد جمعت بين الأحكام والقوانين وبين الأثر الفعال لهذه النظم والذى يتمثل فى التربية الظاهرية والباطنية، الجسدية والروحية القلبية والعقلية.

٢) تحقق الأمن والاستقرار:

لما كانت النظم الإسلامية مصدرها خالق الإنسان جاءت على قدر الإنسان ووفق طبيعته، فالمناسبة قائمة بين الحكم وطاقة الإنسان، ومن ثم كانت قادرة على تحقيق الإشباع النفسى الذى يصبو إليه الإنسان ويبحث

---

(١) سورة الملك : آية ٢٢.

عنه، محققة لاستقراره من خلال الأمن الذى تشيعه العقيدة فى قلب المسلم، فصفات الله وأسماؤه الحسنى تغطى جوانب النفس الإنسانية وتجيب على كل تساؤلاتها، قاضية على الشكوك قاطعة للأوهام مزيلة للخوف والقلق فكما للجسد غذاؤه فكذلك للروح غذاؤها وطاقتها، وسبيل الأمن غذاء الروح بتعاليم النظم وأحكامها، إنه أمن تحققه معرفة الإنسان بحقائق الماضي والحاضر والمستقبل، تلك المعرفة التى عالجته عند التقصير وفتحت له أبواب القرب من الله يزداد منها كلما رغب فى ذلك، تزرع فيه الأمل وتقيه الملل يشعر به المسلم في يسر العبادة وقلة التكاليف ووجود العزائم والرخص، والتوبة والمغفرة، كل هذا تحققه النظم الإسلامية وتغذية في المسلم من خلال العقيدة والعبادة التي تأخذ بقلب المسلم إلى شكر المنعم وذكره الذى تحقق الطمأنينة ومعالم الإيمان التى تحقق الأمن يقول تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٢).

إن الحلول التى تضعها النظم الإسلامية فى مواجهة المشكلات، والمعيار الذى تفاضل به بين الناس، والميزان الذى تصحح به المفاهيم والبرهان الذى تقيم على أساسه القيم والفضائل كفيلة أن تقى الإنسان الغضب والانفعال والهوس والجنون وتبعده عن الأزمات وتحقق له السكينة وتحيطه بالنور.

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ٨٢.

٣) التوافق والانسجام:

النظم الإسلامية بناء واحد ونسيج واحد، لاتعرف التضارب ولا الإختلاف، فليس فيها حكم يعارض حكما ولا نص يخالف نصا آخر، وماذلك إلا لأن المشرع واحد وقوله الحق وحكمه الصدق «إن الحقائق لايمكن أن تكون متناقضة، ولما كان الإسلام قد قدم للبشرية الحقائق كاملة، وحسم بذلك كل المنازعات والخلافات التى ثارت حول كثير من قضايا الإنسان والكون والحياة، فإنه قد أرسى دعامة الوحدة الفكرية والروحية على قاعدة المنهج الربانى الذى هدم الخرافات والأوهام والتناقضات»[١]. إنها ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾[٢]. إن أهداف النظم وغاياتها تقوم على تحقيق التوافق والانسجام فى الأحكام وتعمل على تطبيق ذلك فى المجتمع أفراداً وجماعات، «إنها النظم التى حصرت كل غايات البشر فى غاية واحدة هى إرضاء الله تعالى، كما حصرت أهداف الناس فى هدف واحد هو تحقيق العبودية لله والتحرر من عبادة ماسواه»[٣]. إنه انسجام الأحكام وتوافقها وتلاقى الغايات وتعانقها فى يسر وسهولة تنفرد به النظم الإسلامية. وهذا التوافق فى الأحكام توافق قانونى فى الحكم والمقاصد، وتربوى نفسى يسير فى انسجام مع خصائص النفس وملكاتها لتحقق فى النهاية صلح الإنسان مع نفسه ومع نظمه ولتحقق له إنسجاماً مع الجماعة فى الوحدة والهدف يقول تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات فى الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ط تاسعة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ٧٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٨.

(٣) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٢٠.

سيرحمهم الله ﴾(١). ونختم حديثنا عن حاجة البشرية إلى النظم الإسلامية وحتميتها للمجتمعات بما ذكره الدكتور يوسف القرضاوي من مقومات تجعل هذه الحاجة ضرورية وحتميتها لازمة، وتجعل رسالة الأمة حضارية، وتلك هي المقومات:

١) رسالة العقيدة الموافقة للفطرة.

٢) رسالة العبادة الدافعة للحضارة.

٣) رسالة العقل المهتدي بالوحي.

٤) رسالة العلم المرتبط بالإيمان.

٥) رسالة الإيمان المقترن بالعمل.

٦) رسالة العمل الملتزم بالدعوة.

٧) رسالة الدنيا المعدة للآخرة.

٨) رسالة الجسم الممدود بالروح.

٩) رسالة القوة المدافعة عن الحق.

١٠) رسالة المال الصالح للمرء الصالح.

١١) رسالة الحقوق المتوازنة مع الواجبات.

١٢) رسالة الحرية الخادمة للفضيلة.

١٣) رسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.

١٤) رسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع.

---

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

١٥) رسالة المجتمع الذى لايطغى على الأفراد.

١٦) رسالة الأمة المنفتحة على العالم.

١٧) رسالة الدولة المقيمة للدين.

١٨) رسالة التشريع المحقق للمصالح.

١٩) رسالة العدل المؤيد بالإحسان.

٢٠) رسالة الفن الملتزم بالقيم[١].

(١) د. يوسف القرضاوى: حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا، وهبة ط أولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م ٧٢.

المبحث الرابع

مصادر النظم الإسلامية

النظم الإسلامية مصادر عديدة تستقى منها أحكامها، ومنابع معينة تؤخذ منها تشريعاتها .. مصادر هى للنظم بمثابة الأدلة الدالة على صدقها، ومنابع هى للأحكام بمثابة البراهين المبينة صحتها .. مصادر ومنابع تنقسم — فى جملتها — إلى قسمين :

الأول : قسم الأدلة النقلية   والآخر قسم البراهين العقلية .

أما الأدلة النقلية فتتمثل فى القرآن والسنة ، وأما البراهين العقلية فتتمثل فى الإجماع والقياس .

وإليك الآن بيان كل مصدر من هذه المصادر الأربعة :

* * *

أولا : القرآن الكريم

من المسلم به أن القرآن الكريم أول وأهم مصدر من مصادر النظم الإسلامية بل هو المصدر الذى يكسب بقية المصادر الأربعة — نقلية وعقلية — قدسيتها وقوتها . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »[1] .. فالأمر بإطاعة الله ورسوله

---

(١) سورة النساء : آية ٥٩

أمر باتباع القرآن والسنة ، والأمر بإطاعة أولى الأمر من المسلمين أمر باتباع ما اتفقت عليه كلمة المجتهدين من الأحكام لأنهم أولو الأمر التشريعى ، ثم الأمر برد القضايا المتنازع فيهـا إلى الله ورسوله أمر باتباع القياس حيث لا نص ولا إجماع[1] » .

والقرآن الكريم مع أنه كتاب فى غنى عن التعريف والتبيين بحقيقته ومدلول لفظه ، إلا أن العلماء قد درجوا على تعريفه بما يجمع خصائصه التى تميزه عن النصوص النبوية المقدسة — فقالوا : « القرآن هو كلام الله تعالى المنزل بلفظه ومعناه على محمد ﷺ ، والمتعبد بتلاوته والمتحدى به ، والمنقول إلينا متواتراً مكتوباً فى المصاحف مبدوءاً بسورة الفاتحة ومختتما بسورة الناس » .

ونفهم من هذا التعريف ما يلى :

١ — القرآن الكريم ليس كلام مخلوق .. من إنس أو جن أو ملائكة .. وإنما هو كلام الله الخالق سبحانه وتعالى .

٢ — والقرآن هو الكتاب الذى أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه ، سيدنا محمد ﷺ ، ومن ثم كانت آياته عربية . قال تعالى فى شأن القرآن الكريم : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »[2] .. إنه لا يسوغ فى منطق العقل أن تختلف لغة الكتاب السماوى عن لغة من تنزل عليه من الأنبياء المرسلين ، حتى تصبح الفائدة محققة والثمرة مرجوة . قال تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى »[3] . يقول الإمام ابن

---

(١) مصادر التشريع الإسلامى ص ١٣

(٢) سورة فصلت : ٣

(٣) سورة فصلت : ٤٤

كثير فى تفسيره لهذا الجزء من الآية الكريمة « لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد (لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) أى لقالوا هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا أعجمى وعربى ، أى كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه »[1].

٣ ـ والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى الكلام المغاير للأحاديث القدسية والنبوية من الزوايا الآتية :

(أ) القرآن كلام الله تعالى لفظاً ومعنى ، أما الأحاديث فألفاظها ليست منزلة من قبل الله سبحانه وتعالى .. إن ألفاظ الأحاديث القدسية نصوص توقيفية : تلقى الرسول ﷺ مضمونها من الله عن طريق الوحي فبينه ﷺ للناس بكلامه .

وألفاظ الأحاديث النبوية الأخرى : نصوص توفيقية : استنبطها الرسول ﷺ بفهمه فى كلام الله أو بتأمله فى حقائق الكون ، فعبر ﷺ عن ذلك بأسلوبه .

(ب) القرآن هو النص الإلهى الذى لا تجوز عبادة الصلاة بغيره ، ومن ثم لا تجوز عبادة الصلاة بالنص النبوى .. قدسيا (منسوباً إلى الله تعالى) كان الحديث أو غير ذلك .

(ج) القرآن هو النص الإلهى المتحدى به الثقلين .. من الإنس والجن .. أن يأتيا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بأقصر سورة من مثله . . ولن يستطيعا الاتيان . قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص١٠٣

القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[١] » . . وليس للأحاديث بنوعيها شيء من هذا التحدي .

(د) القرآن هو الكتاب الإلهي الوحيد ، والنص الإسلامي الذي صانه الله تعالى وتعهد بحفظه وحده (دون غيره من الأحاديث القدسية والنبوية) أبد الآبدين قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٢] » . . حقاً لقد حفظ الله القرآن ، وأتى الواقع مؤيداً لذلك ، كما جاء التاريخ شاهد صدق على هذا الحفظ بشقيه . . الحفظ في الصدور ، والحفظ في السطور . . وهما شقان لم يحظ بهما - أحدهما أو كليهما - سوى القرآن الكريم من بين كتب السماء. يقول السيد رشيد رضا إن الكتاب الإلهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عمن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معاً هو القرآن[٣] . . لقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن ، ووكل حفظ غيره من كتب السماء إلى البشر ، فتعالى القرآن بهذا الحفظ الإلهي عما أصاب غيره من التحريفات والتناقضات ، يقول د. دراز عن هذا الذكر الحكيم « لم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » أي بما طلب إليهم حفظه - والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد »[٤]

إن القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي لا جدال في كونه

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨
(٢) سورة الحجر : ٩
(٣) الوحي المحمدي ص ٦٤
(٤) النبأ العظيم د. دراز ص ٧

قطعى الثبوت والصحة . . وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يصيبه التحريف فى كله ولا فى بعضه ، ومن ثم فهو المصدر الأول لكافة النظم والأحكام . . لا يبرم حكم إسلامى إلا بعد الرجوع إليه ، ولا يقضى بأمر شرعى إلا فى ضوء ما جاء به .

ولا غرو أن يكون هذا شأن القرآن الكريم. ذلك الكتاب المنزل من الله الحق، ليحكم بين الناس جميعاً بالعدل والإنصاف ، دون أدنى تمييز أو تفرقة بين أصحاب العقائد والأجناس المختلفة . . فالمخالفون للإسلام فى عقيدته لا يحرمون بمخالفتهم من عدله وخيره ، والمخالفون للإسلام فى شريعته لا يحرمون بمخالفتهم من إنصافه وحقه قال تعالى مخاطباً خاتم أنبيائه وكل حاكم مسلم من بعده « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما[1] وقال تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى[2]

نقول : لا غرو أن يكون القرآن الكريم هو المصدر الأول لكافة النظم والأحكام . .

إنه الكتاب المنزل تبيانا لكل شىء ، الشامل فى آياته لمختلف الأحكام والتشريعات . . ففى القرآن الأحكام العقدية من مثل قوله تعالى فى بيان أركان الإيمان « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[3] » . .

---

(١) سورة النساء : ١٠٥
(٢) سورة المائدة : ٢
(٣) سورة البقرة : ٢٨٥

وفى القرآن الأحكام التعبدية .. من مثل قوله تعالى فى بيان أركان الإسلام « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا [١] » وقوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة [٢] » وقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون [٣] » وقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا [٤] » .

وفى القرآن الأحكام السلوكية .. من مثل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها [٥] » وقوله تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا [٦] » وقوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير [٧] » .

وفى القرآن الكريم أيضاً أحكام الأسرة .. من مثل قوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم [٨] » وقوله تعالى « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان [٩] » وقوله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة [١٠] » .. وقوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [١١] .. وفى القرآن الكريم أيضاً أحكام المعاملات .. من مثل قوله تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا » [١٢] .. وقوله

---

(١) سورة النساء : ١٠٣
(٢) سورة المزمل : ٢٠
(٣) سورة البقرة : ١٨٣
(٤) آل عمران : ٩٧
(٥) سورة النساء : ٥٨
(٦) سورة الاسراء : ٣٤
(٧) سورة لقمان : ١٨ ، ١٩
(٨) سورة النور : ٣٢
(٩) سورة البقرة : ٢٢٩
(١٠) سورة البقرة . ٢٣٣
(١١) سورة النساء ، ١٠
(١٢) سورة البقرة ٢٧٥

تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه»[1] ..
وفى القرآن أيضاً الأحكام الجنائية .. من مثل قوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب»[2» ، وقوله تعالى «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله»[3] ، وفى القرآن أيضاً الأحكام الدستورية .. من مثل قوله تعالى «وشاورهم فى الأمر»[4] ، وقوله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»[5] .

وفى القرآن أيضاً الأحكام الدولية .. من مثل قوله تعالى «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»[6] .

نقول : لقد اشتمل القرآن الكريم على الأحكام المذكورة وعلى غيرها من مثل أحكام الجهاد ، والمعاهدات ، والمصارف المالية ، والموارد وغير ذلك من الأحكام التى لا يتسع المقـــام للاستشهاد عليها .. الأمر الذى يجعلنا نقرر : أن القرآن الكريم هو الكتاب الذى يتبوأ مكانة الصدارة ومنزلة الأولية فى ميدان الأحكام والنظم ، بل فى كل ميدان من ميادين المعرفة والثقافة .

* * *

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .
(٢) سورة البقرة ١٧٩ .
(٣) سورة المائدة ٣٨ .
(٤) آل عمران ١٥٩ .
(٥) سورة الحجرات ١٣ .
(٦) سورة الممتحنة ٨ .

ثانيا : السنة

عرف العلماء السنة فى اصطلاح الاصوليين « علماء الاصول » بقولهم : السنة ما نقل عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير . فمثال القول ماتحدث به ﷺ فى مختلف المناسبات مما يتعلق بتشريع الاحكام كقوله ﷺ : « إنما الاعمال بالنيات » . وقوله ﷺ « لا وصية لوارث » . ومثال الفعل ما نقله الصحابة من أفعال النبى ﷺ فى شئون العبادة وغيرها ، كأداء الصلوات ، ومناسك الحج ، وآداب الصيام ... ومثال التقرير ما أقره الرسول ﷺ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه .. كقوله لمعاذ « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » .. وكتقرير من تيمم لفقد الماء وعدم إعادة الصلاة إذا وجده بعـــد الصلاة[1] .

والسنة النبوية الشريفة — فى ميدان الاحكام والنظم — تحتل المنزلة الثانية بعد المصدر الاول — القرآن الكريم — إنه ما من واقعة أو قضية تعرض لنا — نحن المسلمين — إلا ويجب عرضها على كتاب الله لنتبين فيه حكما وقضاء ، فإن وجدناه امتثلنا ونفذنا ، وإن لم نجد انتقلنا بالقضية والواقعة ، إلى سنة رسول الله ﷺ ، فإن وجدنا فيها حكما وقضاء امتثلنا ونفذنا ، وما ذلك إلا لأن السنة النبوية ، هى المصدر الثانى — بعد القرآن الكريم — لشتى الأحكام والنظم الإسلامية .

إنها المصدر الثانى للأحكام العقـــدية والعبادية ، وللأحكام التشريعية والتنظيمية ، وللأحكام الخلقية والسلوكية .. يؤكد القرآن الكريم تقريرنا

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٥٣ ، مصادر التشريع الإسلامى لمدكور ص ٤٥

هذا في غير موضع ، ويبين مكانة السنة أوضح تبيين ، وذلك حين يقرن طاعة الرسول بطاعة الله . قال تعالى « وأطيعوا الله ورسوله »[1] ، وقال تعالى « قل أطيعوا الله والرسول »[2] . وقال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[3] . وكذلك حين يفرد القرآن بالذكر طاعة الرسول وحدها باعتبارها فرضاً . قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »[4] . ثم يجمل القرآن وجوب الطاعة للرسول ﷺ بهذا الخطاب الجامع فيقول سبحانه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[5] .

علاقة أحكام السنة بأحكام القرآن :

يقول ابن قيم الجوزية : والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون موافقة من كل وجه .. فيكون القرآن مثبتاً للحكم والسنة مؤكدة لما أثبته القرآن من حكم ، ومثال ذلك ما جاءت به السنن مؤكدة أحكام القرآن كوجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم، وحرمة الشرك وشهادة الزور وقتل النفس المعصومة وعقوق الوالدين .

ثانيها : أن تكون السنة بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .. وهي يشمل : تفصيل المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق .. أما تفصيل المجمل فمن مثل قوله ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي » . وقوله ﷺ بعد تبيينه العملي كيفية

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦
(٢) « آل عمران آية ٣٢
(٣) « النساء آية ٨٠
(٤) « النور آية ٥٦
(٥) « الحشر آية ٧

الحج : « خذوا عنى مناسككم » . وأما تخصيص العام فمن مثل قوله ﷺ : « لا ميراث لقاتل » خصص الوارث بغير القاتل فى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » .. وأما تقييد المطلق فمن مثل قوله ﷺ « الثلث والثلث كثير » قيد مطلق الوصية فى قوله تعالى « من بعد وصية » ومن مثل تقييد السنة قطع أيدى السارق والسارقة باليد اليمنى وتحديد القطع من الرسغ .

ثالثها : أن تكون السنة منشئة لحكم سكت عنه القرآن ، كتحريم أكل لحوم الحمر الوحشية ، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وقوله ﷺ « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ، وبيان المقادير الشرعية التى تجعل الرضاع محرماً فى الزواج[1].

شبهة داحضة :

قد تواجه أحياناً من ينتمى إلى الإسلام ، ويزعم بلا استحياء أن المسلم يكفيه القرآن فقط ، لأنه نزل تبياناً لكل شىء ، ومن ثم فلا حاجة ولا ضرورة للسنة !!

ونبادر بالرد على أصحاب هذه الشبهة الباطلة فنقول :

صحيح أن القرآن الكريم تبيان لكل شىء ، ومشتمل على كل أمر ، لكن القرآن نفسه هو الذى نص على أن الرسول ﷺ قد أرسله الله ليعلم المؤمنين أمور دينهم المبسوطة فى القرآن . قال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » [2]

---

(١) نقلا من مصادر التشريع الإسلامى ص ٤٧ ، ٤٨ والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للسباعى ص ٥٣ بتصرف

(٢) سورة آل عمران : ١٦٤

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الحكمة شيء آخر غير القرآن، وهي ما أطلع الله رسوله عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته، الأمر الذي يعبر عنه العلماء بالسنة[١]. روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال — منبئاً عن أصحاب الشبهة المزعومة .. ومرشداً إياهم إلى الحقيقة الإسلامية الخالدة — : «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله».

إن من الواجب على أصحاب الشبهة المفتراة أن يعلموا أن السنة قد بينت عدداً من الأحكام لم يتناولها القرآن الكريم، على نحو ما أشرنا إليه سابقاً، ثم إن من الواجب أن يتذكر هؤلاء — إن كانوا قد نسوا — أنه لولا بيان السنة لمشتملات الجانب التعبدي، ما استطاع مسلم أن يعرف الصور الحقيقية لشعائر الإسلام وعباداته .. وعلى سبيل المثال نحن نعرف أن الله سبحانه فرض علينا أن نقيم الصلاة .. فقال سبحانه مخاطباً كل مسلم: «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل»[٢]. لكن من الذي عرفنا عدد ما فرض من الصلوات وتحديد مواقيتها، وعدد ركعاتها، ومعرفة أسمائها، وترتيب حركاتها من الافتتاح حتى الاختتام؟ إن الذي عرفنا ذلك كله هو الرسول ﷺ في سنته النبوية .. عرفنا ﷺ كل ما يتعلق بفريضة الصلاة ثم قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وما يقال في الصلاة يقال مثله في شأن كل من الزكاة والصوم والحج.

---

(١) أنظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٥٦، والسنة في مكانتها وتاريخها د. عبد الحليم محمود ص ٣٢

(٢) سورة هود آية ١١٤

وإلى هنا - وفى ضوء ما ذكرنا - يستطيع أصحاب الشبهة السابقة الذكر أن يتبينوا كيف تكون السنة النبوية الشريفة شيئاً ضرورياً لتحقيق الإسلام . . عقيدة وشريعة . . ومن ثم فلا غنى عنها [السنة] بأى حال من الأحوال . وكيف يمكن الاستغناء عنها والاكتفاء بالقرآن فقط - على حد الزعم المفترى - مع أنها تعتبر - بأسلوب القانون - المذكرة التفسيرية للقانون الإلهى الذى تضمنه القرآن الكريم ، كما تعتبر - بالأسلوب العسكرى - خط الدفاع الأول عن حصن القرآن الكريم .. ذلكم الحصن المنيع الخالد أبد الآبدين .

• • •

ثالثاً - الإجماع

الإجماع هو المصدر الثالث للنظم الإسلامية ، وهو مصدر يهمنا أن نلقى على ما يتعلق به من نقاط ، وما يشتمل عليه من جزئيات ، أضواءاً تنير كافة جوانب ما يتعلق به وما يشتمل عليه ، مستأنسين فى ذلك بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وبأبحاث العلماء وأقوال الباحثين فى هذا الميدان .

تعريف الإجماع فى اللغة :

ورد الإجماع فى اللغة : بمعنى العزم والتصميم . ومنه قوله تعالى « فأجمعوا أمركم وشركاءكم[1] كما ورد أيضاً بمعنى الاتفاق : يقال أجمعنا على كذا : أى اتفقنا عليه :

---

(١) سورة يونس . ٧١

تعريفه فى اصطلاح الأصوليين :

عرف الأصوليون الإجماع بقولهم « هو اتفاق المجتهدين من المسلمين فى أى عصر من العصور بعد وفاة رسول الله ﷺ على حكم شرعى فى قضية لم يرد بحكمها نص » وأركان الإجماع على ذلك هى ما يلى :

١ - وجود عدد من المجتهدين عند وقوع الحادثة ، إذ لا عبرة بوجود غيرهم

٢ - اتفاق المجتهدين على الحكم وقت حدوث الواقعة ، بحيث لا يخالف فى الحكم أحد منهم أو يرجع عنه . وإلا فلا ينعقد الإجماع .

٣ - أن يكون الاتفاق بعد وفاة الرسول ﷺ ، وفى واقعة لا نص فى حكمها .. بمعنى أنها واقعة لم ينزل فيها قرآن ، ولم تمض فيها سنة رسول الله ﷺ .

حجية الإجماع :

يستمد الإجماع حجيته (كونه مصدراً أساسياً من مصادر النظام الإسلامية) من القرآن والسنة ومنطق العقل .

أما القرآن فمن مثل قوله تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا »(١) ففى هذه الآية الكريمة يتوعد الله سبحانه وتعالى كل مخالف خارج على سنة رسوله ﷺ وكل مخالف خارج على كلمة المسلمين (إجماعهم) ولو لم يكن محرما ما توعد عليه .. بمعنى ولو كان الخروج على شىء غير محرم فالتوعد قائم

---

(١) سورة النساء ١١٥ .

لأن اتباع ما أجمع عليه المسلمون واجب شرعى .... ويقول سبحانه « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »[1] . . وهذا أمر بالرجوع إلى الله والرسول عند التنازع، فإذا لم يكن تنازع بل اتفاق ، حل هذا الاتفاق محل الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ولا معنى للإجماع سوى هذا[2] .

وأما السنة : فقد بينت وأثبتت أن الحكم الذى اتفقت عليه آراء المجتهدين هو حكم الأمة . . وذلك من مثل قوله « ﷺ » « من فارق الجماعة شبرا فمات ميتة جاهلية[3] وقوله « ﷺ » لسائل يسأله عن أمر يجنبه ويلات الفتن ، [illegible] شاط . الأمن والسلامة . . قال « ﷺ » « للسائل » تلزم جماعة المسلمين وإمامهم[4] وقوله ﷺ لم يكن الله ليجمع أمتى على ضلالة » .

وأما منطق العقل : فهو يجيز الإجماع ولا يمنعه ، ويقبله ولا يرفضه ، مادام هذا الإجماع صادراً عن الطائفة المتفقهة فى الدين ، والقادرة على استنباط الأحكام الشرعية من نصوصه وقواعده الكلية ومبادئه العامة ، ومن ثم يكون الإجماع بعيداً عن الخطأ الذى إن وقع فيه مجتهد واحد ، استحال أن يقع فيه كل المجتهدين .

---

(١) سورة النساء . ٥٩

(٢) أنظر مصادر التشريع الإسلامى ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ ص ٢٤٠ .

(٤) صحيح البخارى ج ٩ ص ٦٥

تقسيم الإجماع :

ينقسم الإجماع إلى نوعين :

١ - إجماع صريح   ٢ - إجماع سكوتي

أما الإجماع الصريح : فهو ما اتفق فيه جميع مجتهدى أى عصر على حكم واقعة ، بإبداء كل واحد منهم رأيه صراحة ، بفتوى أو قضاء . . هذا الإجماع الصريح هو الإجماع الحقيق ، وهو حجة قاطعة على مذهب الجمهور ، أى لا يحكم فى واقعة بخلافه ، وذلك من مثل الإجماع على تحريم زواج الجدة ، وإعطائها السدس فى الميراث ، ومن مثل الإجماع على صحة عقد الزواج من غير تسمية المهر والإجماع على حد شارب الخمر ثمانين جلدة . . وأما الإجماع السكوتى : فهو ما يراه بعض المجتهدين فى عصر حول نازلة أو واقعة ما بفتوى أو قضاء ، فيسكت الآخرون دون عذر يمنعهم من الموافقة أو المخالفة ، وهذا النوع من الإجماع هو الإجماع الاعتبارى ، لعدم الجزم بموافقة الساكت ، ولهذا ذهب الجمهور إلى عدم حجية الإجماع السكوتى . وذهب الحنفية إلى القول بحجيته[١] حيث إن سكوت العلماء — غالباً — ما يكون دليلا على الموافقة ، وهذا رأى فيه اعتدال ، لأن احتمال السكوت مع المخالفة مستبعد من سلفنا الصالح الذين كانوا يجهرون بالحق ولا يخافون لومة لائم . . والإجماع السكوتى من مثل الإجماع على تحريم بيع المطعومات قبل قبضها . ومن مثل إجماع علماء كل مذهب من مذاهب الفقه الأربعة على ما ينفرد به كل مذهب عن الآخر .

هذا ولا يفوتنا — فى ختام الحديث عن الإجماع — أن نقرر : أن هذا المصدر بمثابة برهان عملى على مرونة التشريع الإسلامى وصلاحيته لكل زمان

---

(١) مصادر التشريع الإسلامى ص ٥٦ ، ٥٧ بتصرف

ومكان .. إذ ليس الإجماع أمراً مقصوراً على أزمنة وأمكنة معينة ، وإنما هو أمر باق ببقاء الإسلام . وعلى ذلك يصبح من الممكن تحقيق هذا المصدر فى وقتنا المعاصر ، وفيما يليه من أوقات عن طريق المؤتمرات التشريعية التى يحشد لها المجتهدون من شتى أنحاء العالم الإسلامى .

* * *

رابعا : القياس

القياس هو المصدر الرابع من مصادر النظم الإسلامية، وهو مصدر عقلى آخر كالمصدر السابق .. الإجماع .. ومن ثم سنتناول فى بيانه الأجزاء الرئيسية قياساً على ما سبق فى الإجماع .

تعريف القياس فى اللغة :

للقياس فى اللغة معنيان : التقدير ، والتسوية .. يقال : قاس مساحة البيت بمعنى قدر مساحته .. ويقال : فلان لا يقاس بفلان علماً ، بمعنى لا يساويه فى العلم .

تعريفه فى اصطلاح الأصوليين : هو إلحاق واقعة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها .. لاشتراك الواقعتين فى علة هذا الحكم .

وأركان القياس على ذلك أربعة :

١ - الأصل : وهو ما ورد بحكمه نص . ويسمى أيضاً المقيس عليه والمشبه به ، والمحمول عليه .

٢ - الفرع : وهو الشيء الذى لم يرد بحكمه نص ، ويراد تسويته

بالأصل فى حكمه ، ويسمى أيضاً المقيس ، والمشبه ، والمحمول .

٣ - حكم الأصل : وهو الحكم الشرعى الذى ورد به النص فى الأصل ويراد أن يكون مثله فى الفرع .

٤ - العلة : وهى الوصف أو السبب الذى بنى عليه حكم الأصل ولوجوده فى الفرع ، ظهر وجود حكم الأصل فى الفرع[1] .

مثال توضيحى لبيان أركان القياس :

لقد ورد النص النبوى بمنع إرث القاتل من مورثه ، ويقاس عليه : منع إرث الموصى له إذا قتل الموصى .. فقتل الوارث لمورثه أصل ورد النص بحكمه وهو حرمانه من الميراث بحديث : « لا ميراث لقاتل » لعلة هى قتله لمورثه واستعجال الشىء وهو الميراث قبل أوانه فيعاقب بحرمانه . وقتل الموصى له للموصى .. فرع .. لم يرد نص بحكمه ، لكن الموصى له القاتل ساوى الوارث القاتل لمورثه فى العلة ، وهى أنه قتل الموصى ، واستعجل شيئاً قبل أوانه ، فيساويه فى الحكم ، وهو حرمانه من الوصية ، كما حرم الأصل من الميراث للعلة نفسها[2] .

حجية القياس :

يستدل علماء الأصول على حجية القياس : « أى كونه حجة شرعية يجب العمل بها » بأدلة من القرآن والسنة وبالمأثور عن الصحابة ، وبما يقره العقل .

فى القرآن الكريم آيات أقام الله فيها الدليل بالقياس لإقناع الجاحدين ، الأمر الذى يدل على حجية القياس وصحة الاستدلال به . . لقد أجاب القرآن

---

(١) مصادر التشريع الإسلامى ص ٦١ ، ٦٢

(٢) السابق ص ٧٠

الكريم على من قال : من يحي العظام وهي رميم ، بقول الله سبحانه : قل يحييها الذي أنشأها أول مرة »[1] وبدهي أن إعادة الشيء أهون من إنشائه من عدم والقرآن بهذا يستعمل القياس في الرد على منكرى البعث، وفي ذلك دلالة قرآنية على صحة الاستدلال بالقياس . وكذلك شأن السنة النبوية .. يقول معاذ بن جبل حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال لي رسول الله ﷺ : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله . قال : فإن لم تجد . قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد .. قال أجتهد رأيي لا آلو (لا أقصر) . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ، ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله[2] . وتروى كتب السنة أن امرأة قالت يارسول الله إن أبي أدركته فريضة الحج شيخا زمنا لا يستطيع أن يحج ، أفأحج عنه ؟ فقال ﷺ لها أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أكان ينفعه ؟ قالت : نعم . قال فدين الله أحق بالقضاء .. وهكذا تدل السنة على حجية القياس وصحة الاستدلال به، إذ أقر الرسول ﷺ - في الحديث الأول - اجتهاد معاذ برأيه وإذ قاس ﷺ دين الله على دين العبد في وجوب القضاء ، بل جعل دين الله أولى وأحق بالقضاء ..

هذا وقد جاءت أقوال الصحابة وأفعالهم صريحة في حجية القياس ، وذلك من مثل قياس أبي بكر الصديق رضى الله عنه منع الزكاة على ترك الصلاة ، فقاتل مانعي الزكاة وأقره الصحابة على ذلك ومن مثل قياس الصحابه الخلافة على إمامة الصلاة ، فبايعوا أبا بكر بالخلافة ، قياسا على اختيار الرسول ﷺ له لإمامة الصلاة ، قائلين قولتهم المشهورة عن أبي بكر : اختاره ﷺ لأمر ديننا أفلا نختاره لأمر دنيانا .

---

(١) سورة يس . ٧٩

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

وها هو عمر بن الخطاب يكتب إلى أبي موسى الأشعري . . قاضيه بالبصرة فيقول له « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ، أعرف الأشباه والنظائر ، وقس الأمور عند ذلك[1] » .

وهكذا تتضافر أقوال الصحابة وأعمالهم مؤيدة في صراحة حجية القياس وصحة الاستدلال به . . وهي حجية وصحة لا تستمد التأييد من النقول والنصوص فحسب وإنما تستمده من المعقول أيضاً . . ذلك لأن العقول تثبت وتؤيد أن يوافق المثل مثله والشبيه شبيهه في الحكم ، كما تنفي وتنكر أن يخالف المثل مثله والشبيه شبيهه في الحكم . . ومن هنا فإن العقل يهدي إلى قبول القياس ، كمصدر من مصادر النظم والأحكام . . إذ القياس - في جوهره وحقيقته - ما هو إلا إعمال النصوص الشرعية الصحيحة بأوسع مدى للاستعمال ، وليس تزيداً عليها وخروجاً عنها - كما يظن القائلون ببطلان القياس وعدم حجيته - وإنما هو تفسير النصوص .

ونستأنس - في ختام الحديث عن هذا المصدر الأخير للنظم الإسلامية - بقول البرديسي في كتابه أصول الفقه مما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع ، وأن الكتاب أو السنة أو الإجماع لم يتعرضوا للحكم على كل الوقائع التي حدثت ، كما أنه من الممكن أن تجد [illegible] مستقبل حوادث لا يمكن أن تنطوي في الظاهر تحت الأحكام التي نص عليها الكتاب أو السنة أو التي أجمعت عليها الأمة ، فالوقائع غير متناهية ، والنصوص الشرعية متناهية لانتهاء الوحي ، والمتناهي لا يفي بغير المتناهي ، إلا إذا فهمت العلل التي لأجلها شرعت الأحكام المنصوص عليها ، وطبقت هذه الأحكام على الوقائع التي لا حكم لها . . في الظاهر ، للاشتراك بين الواقعة التي ذكر حكمها والواقعة التي لم يذكر حكمها في علة واحدة : وهذا هو القياس ، إذ هو السبيل الذي يظهر لنا

---

(١) نقلا عن النظم الإسلامية - د . حسن إبراهيم ص ٢٩٤ .

انطواء الوقائع التي لم يرد فيها نص تحت النصوص الشرعية، وهو الذى يجعل النصوص شاملة لما يستجد من الوقائع والحوادث، وبذلك يمكن للشريعة أن تفى بحاجة العباد، وأن تكفل لهم السعادة والطمأنينة والرخاء. فإنكار القياس وصم للشريعة بالجمود، ورمى لها بأنها لا يمكن تطبيقها فى كل زمان ومكان، وأنها لا تفى بمصالح العباد، وذلك مناف تمام المنافاة لما اقتضته الحكمة الإلهية[1]

وبعـــد

فقد انتهينا. إلى هنا. من عرض مباحث النظم الأربعة.. أولها تناول مدلول النظم فى اللغة والاصطلاح، وثانيها: بين أسباب احتياج المجتمعات إلى النظم الإسلامية، وثالثها: ذكر خصائص النظم الإسلامية، ورابعها حدد المصادر الرئيسية للنظم والأحكام الإسلامية.

وتعتبر هذه المباحث الأربعة دراسة إجمالية سابقة، تمهد لدراسة تفصيلية لاحقة فى هذا الكتاب، يفصل فيها القول حول عدد من أقسام النظم الإسلامية من مثل النظام الأسرى، والنظام السياسى والإدارى، والنظام الاقتصادى والنظام القضائى، ونظام الحسبة، ونظام الجهاد.

وثمة أمر يدعونا للفصل بين هاتين الدراستين.. الإجمالية والتفصيلية.. ألا وهو استكمال ما يتعلق بعنوان المادة المقررة.. مادة النظم والثقافة الإسلامية توضيحا لمدلول كلمة الثقافة.. ومصطلح الاسلام، وعلاجا لأهم ما يتصل بهما من قضايا، على نحو ما يلى فى المباحث الآتية.

---

(١) أصول الفقه للبرديسى ص ٢٤٦

أولاً : إلاهية المصدر :

وهذه ميزة لم يشاركها فيها سواها، حتى إن النظم التي يزعم أهلها نسبتها إلى الوحي، قد خلت من هذه الخاصية، فلا يستطيع اليهود ولا النصارى أن يقيموا الدليل القطعي، على نسبة كتابيهما إلى الله بالوحي الصريح، وهو ما دفعهم إلى القول بأن الوحي قد جمع بين الألوهية والإنسانية، فالله قد أعطى الفكرة أو ألقى بالمعاني في قلوب أناس اختارهم، فعبروا عن كلمة الله في ضوء معرفتهم وثقافتهم، ولذلك جاءت الكلمات والمحتويات مختلفة في كثير من الأحيان.

وإذا كانت اليهودية قد نصت على بعض النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبدت فيها العصبية والعنصرية، فإن المسيحية قد خلت من النظم السياسية جملة وتفصيلاً، وقد أعرض المسيح – عليه السلام– إن صح ما نسب إليه، عن الإجابة عن سؤال وجه إليه، بشأن العلاقة مع قيصر، قائلاً : اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله، و لم نسمع عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ودولة وأخرى في العهد الجديد، فهل اكتفى النصارى بما ورد في العهد القديم، أم أن الصراع السياسي وعصور الاضطهاد دفعت النصارى الأول إلى عدم تدوين شيء يتعلق بهذا الأمر.

وأما النظم المعاصرة، فلا يدعي مدع أنها من عند الله، بل إن موسسي تلك النظم معروفون بأشخاصهم وسيرهم وأفكارهم، سواء في النظام الشرقي أو النظام الغربي

أما الإسلام : فإنه في نظمه كلها رباني المصدر، وقد نسب الحق سبحانه –أسس نظام الحكم في الإسلام إلى ذاته، إما أمرًا أو نهيًا، أو تحذيرًا عن الإعراض.... الخ

نلمح ذلك في قول الحق سبحانه : ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾[1]. وقوله الحق سبحانه : ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾[2] .

وقد حذر الحق من عدم الحكم بما أنزل، وحكم على من أعرض عن ذلك بقوله : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[3] . ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[4] . ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[5] . كما نسب أسس الحكم إلى ذاته في القرآن الكريم.

فعندما ذكر الشورى، أمر رسول الله ﷺ بتطبيقها مع أصحابه ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[6] .

وفي العدل والأمانة ورد ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[7] . ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا

---

(1) المائدة : ٤٩.
(2) الأنعام : ٥٧.
(3) المائدة : ٤٤.
(4) المائدة : ٤٥.
(5) المائدة : ٤٧.
(6) آل عمران : ١٥٩.
(7) النساء : ٨٥.

اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[١]. وفى المساواة ورد قول الحق: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٢] ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾[٣].

وإذا كانت السنة فى أصلها وحى، فإن رسول الله ﷺ قد حذر من عدم تطبيق هذا المبدأ وفى الحديث «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[٤].

وفى العقوبات المقدرة على بعض الجرائم، وجدنا النص صريحًا فى إضافة التشريع إلى الله، قال تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[٥]. وفي الزنا ورد ﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾[٦]. وفى عقوبة الحرابة ورد قول الحق: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى

---

(١) المائدة: ٨.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) النساء: ١.
(٤) الحديث.
(٥) المائدة: ٣٨.
(٦) النور: ٢.

الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾[١].

وفى عقوبة السحاق واللواط ورد ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابًا رحيما﴾[٢].

وكم ورد فى القرآن حكم معين فى أمر معين، قرن ذلك الحكم بكونه (حدودًا لله) آمرًا بفعلها أو آمرًا بتركها، ففى إطار تشريع الصيام فى القرآن، وما يجب فى نهاره، وما يجوز فى ليله، ورد قول الحق سبحانه ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾[٣].

كما وردت أحكام تتعلق بالطلاق فى سورة البقرة، وأضافها الحق إلى نفسه، وبين سبحانه أن الأسرة من حيث تأسيسها ودوامها تقوم على حدود الله، أى الأحكام والنظم التى وضعها الحق لاستقامة أمر الأسرة، وأوجب البقاء إذا ضمن الزوجان إقامة حدود الله، فإن تعذر ذلك جاز الفراق ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به

---

[١] المائدة : ٣٣.

[٢] النساء : ١٥ ، ١٦.

[٣] البقرة : ١٨٧.

تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون * فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾[١] .

وهو ما يؤكد أن نظام الأسرة في الإسلام إلهي، من حيث المنشأ، والتأسيس، وللمخالفات التي تقع في فترة قيام الأسرة، كالخلافات الزوجية والإيلاء والظهار، كل ذلك لم تترك فيه الأمور بلا تشريع إلهي، بل وجدنا نصوصًا واضحة تبين الحكم الشرعي الذي قدره الحق سبحانه في هذا الموطن أو ذلك، قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[٢] . وترد الألوهية في موطن الخلاف ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾[٣] .

﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليًا كبيرا * وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما إن الله كان عليمًا خبيرا﴾[٤] .

وفي الإيلاء ورد : ﴿الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾[٥] .

---

[١] البقرة : ٢٢٩، ٢٣٠.

[٢] الروم : ٢١.

[٣] النساء : ١٩.

[٤] النساء : ٣٤، ٣٥.

[٥] البقرة : ٢٢٦، ٢٢٧.

كما أن كفارة الظهار وردت في القرآن مقدرة، ولم تترك لهوى الناس، وقد ختم الحق تلك العقوبة بقوله : ﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾[1] .

وأوجب بقاء المطلقة في بيتها في فترة العدة، ديانة، وبين متى يكون الخروج من البيت : ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾[2] .

وقد امتدح الحق كل من التزم بمنهجه وحافظ على حدوده، وخص منهم ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[3] .

وبين أن الإعراض عن النظام الإلهي الذي وضعه يوجب العقاب الشديد، قال تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾[4] .

---

[1] المجادلة : ٤.

[2] الطلاق : ١.

[3] التوبة : ١١٢.

[4] النساء : ١٤.

كما ختم آيات المواريث بقوله : ﴿فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما﴾[1] . ﴿... وصية من الله والله عليم حليم﴾[2] . وقوله : ﴿... يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾[3] .

والتكاليف الشرعية كنظام تعبدي بين الإنسان وربه إلهية المصدر كذلك، ففي الصلاة ورد قول الحق : ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾[4] . وفي الزكاة ورد قوله سبحانه ﴿والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾[5] . وبين مصارف الزكاة وختمها بقوله : ﴿فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[6] .

كما نسب الحق التكليف بالصيام إلى نفسه، وهو من الأمور التي تعبد الله بها السابقين، وتعبدنا بها كذلك، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[7] . وفي الحج ورد قوله سبحانه ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾[8] .

---

(1) النساء : ١١.

(2) النساء : ١٢.

(3) النساء : ١٧٦.

(4) النساء : ١٠٣.

(5) المعارج : ٢٤، ٢٥.

(6) التوبة : ٦٠.

(7) البقرة : ١٨٣.

(8) آل عمران : ٩٧.

وفى كفارة اليمين ورد قول الحق : ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾[1] . وقد بين ذلك فى سورة المائدة، وهو يذكر كفارة اليمين المنعقدة با لله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾[2] .

وهكذا ندرك أن النظم الإسلامية مصدرها ربانى، وأنها فى مجال علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بإخوانه، وعلاقته بنفسه تقوم على الربانية فى التشريع.

أثر ربانية التشريع فى حياة المسلم :

النفس البشرية كثيرًا ما تأنف قبول أحكام الغير، لاستشعارها الدونية فى هذا الموطن، أو لعصبية قائمة بالنفس ضد المشرّع، أو بباعث من غريزة الاستعلاء الكامنة فى النفس، أو لجور فى التشريع وغلبة الهوى، ولذلك كان لهذه الخصيصة من المزايا ما يلى :

١- تنزهها عن الأهواء والمطامع :

فما شرع مشرع إلا وتأثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة بهواه، أو لسنا نجد التشريعات الوضعية وقد أعطت بعض الطوائف من الامتيازات ما لم تعط أخرى، وكانت أحرص ما تكون على فرض حق لها قبل الرعية، مع إسقاط الواجب عليها فى مقابل الحق، إننا لنرى الهوى واضحًا فى التمييز بين طبقات

---

[1] التحريم : ٢.

[2] المائدة : ٨٩.

المجتمع على أسس فئية، ونرى فرض تكاليف وأعباء مالية وأدبية يكون مردودها لصالح طائفة ما دون سواها، فبعض الطوائف -مثلاً- يقدم عند استخراج البطاقة وجواز السفر وتصريح العمل وفى المرور، وبعض الأقضية والمحاضر، فضلاً عما يتمتع به هؤلاء من ركوب بالمجان للمواصلات الداخلية (داخل المدن) والخارجية، كل ذلك باعثه تكريم تلك الفئة، وتيسير سبل إقامة الشاليهات والمصايف والقروض وشراء السيارات ورفع البدلات والمكافآت...الخ.

ومع ذلك فهم يشاركون بل يفوقون سائر العاملين فى الدولة فى الرواتب والبدلات والحوافز ولهم سلطان أدبى على سائر المصالح والدواوين، يكسبهم حق الانتفاع بما لم ينتفع به غيرهم، ماديًا ومعنويًا.

وليس الأمر قاصرًا على جهاز معين، بل إن أهل الاختصاص فى كثير من الميادين العلمية العملية قد نحوا هذا المنحى، بمثل ما يفعله رجال التعليم والطب والهندسة... إلى غير ذلك من النقابات.

إن الباعث على التقنين بهذا الوضع فى هذه المواطن هو الهوى القائم بالنفس والرغبة فى المنفعة المادية العاجلة، وبخاصة بعد غلبة التيار المادى، وغيبة التيار الروحى.

لقد عاب الحق كل أمر يقوم على الهوى، وبين أنه باعث على الضلال، كما أنه باعث على الهلكة، وحذرنا أن نسلك هذا السبيل حتى لا نهلك، قال تعالى : ﴿... ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل﴾[1]. ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2].

وقد كثر التحذير من اتباع الهوى، وجدنا الحق يأمر الأمة الإسلامية فى

---

[1] المائدة : ٧٧.

[2] القصص : ٥٠.

شخص رسول الله ﷺ بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا﴾[١]. ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾[٢].

وهذه سنة الله مع السابقين كذلك، فقد ذكر القرآن تكليف داود -عليه السلام- بذلك قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[٣].

وأما حال الفصل بين المتخاصمين، فقد رأينا القرآن يأمر الرسول ﷺ بقول الحق ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون﴾[٤].

---

[١] النساء : ١٣٥.

[٢] الشورى : ١٥.

[٣] ص : ٢٦.

[٤] المائدة : ٤٨، ٤٩.

وحذره من الميل إلى أهل الكتاب، أو التأثر بشبهاتهم، أو اتباع هواهم ﴿وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾[1].

وقد بلغ النهي عن اتباع الهوى حدًا في الكثرة، وكان الخطاب موجهًا إلى الفرد كما وجه إلى الجماعة، فمما ورد النهي فيه موجهًا إلى الأفراد قول الحق سبحانه في معرض الذم ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[2]. وقوله الحق سبحانه ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾[3]. ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها * لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾[4].

ومن أساليب النهي للجماعة، ما ورد بشأن جنوح وإعراض طائفة من البشر عن شريعة الله وهداه، واتخاذها هواها شرعًا من دون الله، وقد نهانا القرآن عن اتباع هذه الطائفة، قال تعالى: ﴿... ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾[5]. ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما

---

[1] الرعد: ٣٧.
[2] الأعراف: ١٧٦.
[3] الكهف: ٢٨.
[4] طه: ١٥، ١٦.
[5] البقرة: ١٢٠.

جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾[1] ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2].

ويكفى فى نهاية هذه الميزة أن نذكر قول الحق سبحانه :﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾[3].

ولما كانت الشريعة الإسلامية قائمة على التنزه عن الهوى، فقد رأينا الحق سبحانه يصرح بأن اتباع هذه الشريعة مردوده الإيجابى على المتبع، وأن الإعراض عن الاتباع ينزل بالمعرض الكثير من الوبال، قال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[4]. ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[5]. ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا * فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا﴾[6].

٢- عمومية الأحكام التكليفية :

التكاليف فى الإسلام وردت بصيغ العموم، وما ورد خطابا للرسول ﷺ فهو خطاب لأمته باعتبارها مخاطبة فى شخصه ﷺ.

---

(١) البقرة : ١٤٥.

(٢) القصص : ٥٠.

(٣) المؤمنون : ٧١.

(٤) الأعراف : ٩٦.

(٥) هود : ١١٧.

(٦) الطلاق ٨، ٩

أما وعلاه الفرضيات فقد وردت بصيغ مختلفة فى القرآن الكريم، فمرة بصيغة ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ومرة بصيغة ﴿يا أيها الناس﴾ ومرة بقول الحق ﴿كتب عليكم﴾ ومرة بالأمر ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1] ، ومرات عدة بالمدح على الالتزام ولذلك رأينا رسول الله ﷺ أسبق الناس فى التطبيق معلنا ذلك بقوله ﴿.. إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2] .

وأما التطبيق العملى فهو أوضح ما يكون فى القيام بالصلاة والزكاة والصيام والحج من الرسول ﷺ وبهذا جمع ﷺ فى الالتزام بين النظرى والعملى -كما يقولون-.

ومن صيغ التكاليف العامة قول الحق سبحانه : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ . ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ . ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾[3] .

وأما المعاملات فالتشريع فيها عام كذلك ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾[4] . ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين﴾[5] . ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب

---

[1] التوبة : ١٠٣.

[2] الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

[3] آل عمران : ٩٧.

[4] البقرة : ٢٧٥.

[5] البقرة : ٢٧٨.

بينكم كاتب بالعدل ﴾[1] . وفي الرهن ورد قوله : ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة﴾[2] .

وفي الأنكحة التشريع عام في الحل وفي الحرمة، يجري على سائر المسلمين، ففي الحل ورد قول الحق ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾[3] . وفي المحرمات ورد بصيغة العموم ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورًا رحيمًا﴾[4] .

وفي السنة نهى رسول الله ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها[5] . والحدود وردت بصيغ العموم كذلك، قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[6] . ﴿والسارقة والسارق فاقطعوا أيديهما﴾[7] . ﴿الزانية والزاني

---

(1) البقرة : ٢٨٢.

(2) البقرة : ٢٨٣.

(3) النساء : ٣.

(4) النساء : ٢٣.

(5) الحديث : صحيح مسلم.

(6) البقرة : ١٧٩.

(7) المائدة : ٣٨.

فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[1] . ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾[2] .

والأخلاق كذلك وردت بصيغة العموم فيما أمرنا به ونهينا عنه، قال تعالى : ﴿وقولوا للناس حسنا﴾[3] . ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[4] . ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾[5] . ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾[6] .

وفي النهي عن الأخلاق السيئة جاءت النصوص عامة ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾[7] . ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾[8] . ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾[9] . وفي النهي عن تطفيف الكيل والميزان ورد النص ﴿ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون *

---

[1] النور : ٣.
[2] النور : ٤.
[3] البقرة : ٨٣.
[4] المائدة : ١.
[5] الإسراء : ٣٤.
[6] البقرة : ١٨٢.
[7] النور : ٣٠.
[8] النور : ٣١.
[9] الحجرات : ١١.

وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[1]. ﴿ويل لكل همزة لمزة * الذى جمع مالاً وعدّده..﴾[2].

وهكذا استشعر المسلمون هذه العمومية فى النظم، وسادت أحكام عامة على المسمين، يستوى فى ذلك رسول الله ﷺ مع سائر المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ يوصى أهله بالعمل، والنزول على التكاليف والالتزام بها ومن أقواله عليه السلام «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» كما نادى على أهله قائلاً: «يا فاطمة اعملى فإنى لن أغنى عنك من الله شيئًا، يا عباس يا عم رسول الله اعمل فإنى لن أغنى عنك من الله شيئًا»[3]. وفى حديث آخر لهم: «لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم». كما أنه -عليه السلام- قال فى حجة الوداع: «ألا وإن ربا موضوع وإن أول ربا أضع، ربا العباس بن عبد المطلب».

٣- عمومية الاستثناء:

رأينا العموم فى التكليف واردًا فى الإسلام، ومن مزايا الشريعة الإسلامية أنها راعت الأعذار وقدرتها، ومن خصائص الإسلام فى الاستثناء العموم كذلك، فالتكاليف الشرعية لم تسقط عن فرد دون آخر ولا عن جماعة دون جماعة، وإنما تسقط إذا سقطت شروط الوجوب، أو سقط بعضها، أو يكون العدول لضرورة فعلى سبيل المثال فى مجال العقيدة يجوز النطق بالكفر لمن أكره على النطق به ولا يترتب على النطق به أذى أو ضرر ﴿من كفر بالله من

---

[1] المطففين: ١، ٢، ٣.

[2] الهمزة: ١، ٢.

[3] البخارى ومسلم.

بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[١].

وعندما شكى رجل إلى رسول الله ﷺ ما أصابه من أذى قومه المشركين قائلاً: لقد قلتها -أي كلمة الكفر- قال رسول الله ﷺ «إن عادوا فعد».

وفي مجال الشريعة نرى في العبادات، تخفيفًا أو إنساءً أو إسقاطًا لبعض التكاليف وهي حق مكفول لكل فرد، استوفى شروط ما سبق، فالصلاة تخفف عند الخوف من العدو وفي السفر، ويؤديها المريض بالكيفية التي تتناسب حاله، في غير إكراه ولا إجهاد للجسد، ويسقط استخدام الماء في الطهارة إذا عجز عن استخدام الماء أي مسلم، عجزًا حقيقيًا أو حكميًا، بل يكون الترك واجبًا إذا أخبر طبيب مسلم بأن الاستخدام يؤجل الشفاء.

وفي الصوم نرى الإسلام قد أباح الإنساء في السفر والمرض، ويجوز العدول عن الصيام إلى الكفارة إذا لم يرج البرء أو كان الحمل والرضاع، هكذا كفل الإسلام هذا الحق لكل مسلم بصرف النظر عن نسبه ولونه ووطنه وفقره وغناه..

ولا تجب الزكاة إلا بتوفر شروط معينة، فإن لم تتوفر هذه الشروط سقط الوجوب فبلوغ النصاب في كل ما وجبت فيه الزكاة قيد أساسي، ونصاب كل شيء بحسبه يضاف إلى ذلك السلامة من الديون، ومضى العام بالنسبة لعروض التجارة والنقدين، والحصاد بالنسبة للزراعة، ووجود ما يكفي في يوم العيد وليلته يوجب صدقة الفطر، مع الجمع بين الصوم والفطر من أجل الوجوب، ويسقط ذلك كله إذا لم تتوافر شروط الوجوب بلا تمييز بين المسلمين.

---

[١] النحل: ١٠٦.

والحج لا يجب إلا مع الاستطاعة بالنفس والمال، وقد فسر الفقهاء شروط الاستطاعة، فمن لم تتوفر له هذه الشروط سقط الحج عنه، وجاز أن يقوم به الغير عنه، إذا كان العجز عن الاستطاعة بالنفس.

وفي الأطعمة ورد ذكر بعض ما حرم الله، في سورة المائدة ، ثم ألحق الآية بقوله : ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ [1].

وفي سورة البقرة : ورد قول الحق : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ [2]. وفي الجهاد ورد ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ [3]. ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ [4].

وكم في القرآن من استثناءات لا تقوم على اعتبار الجنس أو اللون أو القرب أو البعد، وإنما الأعذار الموجبة للإسقاط أو التخفيف، ومن المتفق عليه أن أسس التكليف في الإسلام تقوم على أساس من البلوغ وسلامة العقل، فمن قامت به هذه الأسس صار مكلفًا، ويسقط عنه من التكليف ما لا يتأتى له القيام به، لعاهة مزمنة . أو لإكراه أو اضطرار، ويكون الإسقاط بنسب وبحسب الحالة.

---

[1] المائدة :٣.

[2] البقرة : ١٧٣.

[3] النور : ٦١.

[4] التوبة : ٩١.

٤ - الدوام والاستمرارية :

عرفت البشرية أنظمة شتى تبلغ حداً في الكثرة، وفي نفس الوقت عرفت انتهاء تلك الأنظمة بانتهاء واضعيها أو انتهاء عصورها ودولها، لأنها صدرت عمن لا يتصف بالخلود، فكان بقاؤها من جنس بقائه، ودوامها بقدر دوامه، وها نحن نذكر اليوم النظام الفارسي، والنظام الرومي، ونظام العرب، وذلك في مجال العقيدة، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق.

وفي العصر الحالي. عشنا فترة من الزمن مع النظام الشيوعي ثم سقط، والنظام الرأسمالي القائم في الغرب، قد بذرت بذور إسقاطه، وكل يوم تظهر نظم جديدة، وتختفي أخرى، شأنها شأن الإنسان من حيث الولادة ،الحياة، الوفاة. أما الإسلام فنظامه ثابت خالد، وقواعده محكمة، ولست ممن يقولون بتطور الشرائع. بل إن نظام الإسلام كان -منذ الإنسان الأول- وسيظل إلى قيام الساعة، فالعقيدة لم يجر فيها تطور ولاتغير. وصدق الله القائل لنبيه : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[1] ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[2]؛ وأما الشريعة فهي عالمية الزمان والمكان والإنسان، فالقرآن ذكر أن ما شرعه الله لنا شرعه لمن قبلنا، قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . ﴾[3]. وفي الحديث : «شرع من قبلنا شرع لنا»[4].

وقد أشار القرآن إلى تعبد الله أهل الكتاب، بما تعبدنا به، قال تعالى ﴿ وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك

---

(١) الزخرف :٤٥.

(٢) الأنبياء : ٢٥.

(٣) الشورى: ١٣.

(٤) الحديث

دين القيمة ﴾[1]. وفى المعاملات ورد بحق اليهود : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[2]. كما ورد فى الحدود قول الحق : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[3]

وشريعة القتال من أجل فرض الحق والدفاع عنه ورفع الظلم، شرعها الله للسابقين كما شرعها لنا كذلك، قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله . . ﴾[4]. وأما الأخلاق فهى من الثوابت التى لايجرى عليها تغيير، وقد صرح الرسول ﷺ أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

ومما يكسبها صفة الدوام والاستمرارية ويجعلها صالحة لذلك دون سواها، أنها صادرة عن الصانع الذى صنع الإنسان، وحيث إنه لا تغيير فى تركيب الإنسان فلا حاجة إلى تغيير فى قوانين الصيانة والسلامة، فما لم يتغير الخالق أو يتغير الخلق فما هو وجه الحاجة إلى تغير النظم الضابطة لسلوكه.

والأحكام التى وردت فى الشريعة الإسلامية تنقسم إلى قسمين:

---

[1] البينة :٤.

[2] النساء : ١٦١.

[3] المائدة : ٤٥.

[4] التوبة :١١١.

القسم الأول : حكم ثابت وهو ما يتعلق بالثوابت وذلك واضح في العقيدة والأخلاق.

القسم الثاني : قواعد كلية مرنة في تطبيقها لتعلقها بالعقول واختلافها باختلاف العصور من حيث التطبيق.

فعلى سبيل المثال أوجب الإسلام (الشورى) وجعلها أساسًا من أسس الحكم في الإسلام، للحد من ديكتاتورية الحاكم، وسلطان الحكومات، ومدح كل أمة تسلك هذا السبيل، وبينت السنة الآثار الإيجابية المترتبة على هذا المبدأ، وكفل حرية الرأي لكل مسلم، دون أدنى عقوبة مقدرة على الرأي المخالف، بشرط التزام صاحبه بأدب الإسلام عند إبداء الرأي.

ومع ذلك ترك كيفية التطبيق لظروف الأمة التي تنتفع بهذا المبدأ، ولم ترد الشورى بصورة واحدة في صدر الإسلام، ففي عصر الرسول ﷺ كان يقول مرة : «أشيروا عليّ أيها الناس»، وأخرى يُسأل من قبل أصحابه أهو وحي أم رأي ؟ فإن قال رأي. قيل له فالرأي غير هذا، وهو ما كان في بدر وغطفان، وإن قال : -وحي كما في صلح الحديبية- أمسك الصحابة.

وغالبًا ما كان يستشير جموع الحاضرين، كما في الخروج لأحد -مثلاً- وأحيانًا يستشير رؤوس القبائل كما في بدر وغطفان، وأحيانًا يستطلع رأي الصفوة من أصحابه كـ "أبي بكر" و"عمر" -كما في أسرى بدر-

من النصوص القرآنية والسنة النبوية ندرك منزلة الشورى -كمبدأ- وأما كيفية التطبيق فهي متروكة للزمن، هل يكون الاقتراع عامًا أو خاصًا ؟ هل يعرض الأمر على العامة والخاصة، أو على الخاصة، هل يكون الاقتراع شفويًا أو كتابيًا، وما هي السنن التي تحدد الاقتراع ؟ هذا عن أساس من أسس الحكم كنموذج صالح للتطبيق في كل زمان ومكان.

ولو أخذنا نموذجًا ثانيًا يؤكد لنا صلاحية النظام الإسلامى للتطبيق، فى كل عصر ومصر، فإننا نشير إلى أمر، وقع فيه خلط بين المسلمين، وهو أمر (الخلافة) أو (الإمارة).

لقد أوجب الإسلام نصب حاكمٍ أو ولى أمر أو تعيين إمام عام للمسلمين... الخ ولكنه لم يحدد الصورة التى يتولى بها ولى الأمر عمله، فرسول الله ﷺ توفى و لم يحدد الكيفية، ولا الشخص، ولو حدد ما وقع الخلاف فى ثقيفة بنى ساعدة، ولو كان عندهم نص -قطعى الثبوت قطعى الدلالة- يتعلق بشخص بعينه أو قبيلة بعينها ما أخفوه، بل إنه لينسب لـ "العباس بن عبد المطلب" سؤاله الإمام عليًا عن الإمارة، وهل عنده علم فيها من رسول الله ﷺ فقال له على لا، فحذره العباس من سؤال الرسول بشأنها، خشية أن يجعلها فى غيرهم.

ولذلك رأينا الصحابة يلتزمون بنصب ولى أمر بعد الرسول، أما الكيفية التى يتولى بها، فقد اختلفتْ من حالة إلى أخرى، فقد تكون ببيعة أهل الحل والعقد، وهذا ما حدث فى ثقيفة بنى ساعدة، حيث بايع شيوخ المهاجرين والأنصار أبا بكر فى المجلس بالخلافة، وفى اليوم التالى كانت البيعة عامة، وعندما استشعر أبو بكر قرب المنية، أخذ رأى أصحابه وصفوة الصحابة، وشاورهم فى ظل ظروف الدولة، وتفرق الجيش الإسلامى فى جبهات شتى وخشى أبو بكر أن تختلف الأمة بعد وفاته، فيطمع فيها عدوها، فما كان منه إلا أن رشح عمر للخلافة، وعهد إليه بها بعد حياته، وأوصاه بما ينبغى أن يعمل به إذا تولاها، بعد رضى المسلمين، بأخذ البيعة العامة من الناس، وقد كان ذلك كله وتم تعيين الخليفة بنظام العهد بينما كان فى المرة الأولى بنظام الترشيح والاختيار وعندما طعن عمر وتأكد له قرب المنية، شغله أمر المسلمين، فحرص على أن لا يترك المسلمين بلا خلافة، وأخذته الحيرة، أيعهد لغيره أم لا ؟

واستشار أصحابه وكثرت الآراء، فقال قولته المشهورة : إن أعهد فقد عهد من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني.

ثم بدا له أمر جديد، وهو ترشيح ستة من أصحابه، من بينهم "عبد الله بن عمر" ليكون له رأي في اختيار واحد منهم، دون أن يكون له من أمر الخلافة شيء وأمر "صهيبًا" أن يصلي بالناس، وأن لا تمر ثلاثة أيام إلا وعلى الناس إمام، تختاره اللجنة المشكلة للاختيار وقد انتهى الأمر بتولية عثمان.

وأما "علي"، فقد فرضت عليه الخلافة، فقبلها حقنًا للدماء، وصونًا لها من الازهاق، ولكن القدر قد خبأ له ما نعلم، حيث اغتصب الخلافة "معاوية" بعد أن كان واليًا على الشام، فبويع بطلب الثأر من قتلة عثمان، ثم تحول الأمر بعد إلى إرث للحكم، أو عهد عن طريق الفرض، وإن كان الظاهر الاختيار.

وفي المعاملات : وجدنا الأحكام العامة ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ ولم يضع صورة محددة للبيع، وإنما وضع آدابًا ينبغي التحلي بها، فنهى عن الغش والخداع والاحتكار والتضليل، وما يتعذر تسليمه للمشتري كالسمك في الماء والطير في الهواء، وما لا يعلم الإنسان مصيره كالثمر قبل بدو الصلاح...

لقد عايش الإسلام نظمًا شتى فبادت وما باد، وانقادت وما انقاد، ولا يزال عطاء الإسلام مستمرًا، لأنه لم يغلق الباب أمام العقل المسلم للاستنباط، بل إنه نعى على المعطلين عقولهم تعطيلهم له، لأن القرآن ما نزل إلا لتنظر فيه العقول وتنعم به القلوب، ويستقيم به أمر البشر في المعاش والمعاد.

٥ـ قيامها على الإقناع أكثر من الاكراه :

كم تُقبل النظم الوضعية تحت وطأة الاكراه، وقلما توفر لها عنصر الاقناع، فقد فرضت الشيوعية بقوة السيف، وفرضت الرأسمالية نفسها كتيار جارف في الغرب، لا قبل بمصادمته من قبل الأفراد، بل إن العقائد والديانات لتنحو هذا المنحى.

أما الإسلام فقد ركز على الاقناع أكثر من تركيزه على الاكراه، وحسبنا أن كل ما يتعلق بالتكاليف الشرعية جملة وتفصيلاً، قد ذكر له وجه أو وجوه عدة تدفع إلى الاقناع فى الالتزام به.

ففى إطار الدعوة إلى الإيمان با لله ربا، وجدنا قول الحق سبحانه ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾[1].

وكم وردت آيات في القرآن الكريم للاقناع بالألوهية والربوبية، وعندما أبطل الإسلام ألوهية غير الله، اعتمد على الاقناع لا الإكراه، فقد سأل عن الآلهة المزعومة، وعن صفاتها وخصائصها وقدرتها على الخلق، واتصالها بعابديها، وبين مصيرها المحتوم، وقدرها المشؤوم، فى آيات تبلغ حدًا فى الكثرة فى القرآن، وعندما أبطل البنوة اعتمد على العقل، ونفى وجود الزوجة، وبين أن الابن المزعوم لم يخالف البشر فى الخلق الأول فى طلاقة القدرة ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾[2] . ولم يخالف الخلق الثانى فى سنن الحياة، إلا فى الإعراض عن الزواج ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾[3].

---

(1) البقرة : ٢١، ٢٢.

(2) آل عمران : ٥٩.

(3) المائدة : ٧٥.

وفي الرد على اليهود زعمهم أن القرآن لم ينزل من عند الله، كان قول الحق ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس﴾[١] .

وفي تعليل العبادات، خاطب العقل بالآثار الإيجابية المترتبة على التكليف ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[٢] . ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[٣] . ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[٤] . ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾[٥]

وبين الآثار الإيجابية للطاعة ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٦] . ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾[٧] .

وفي الأنكحة ورد قول الحق ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[٨] . وفي الدعوة إلى الصبر على ما عرج

---

(١) الأنعام : ٩١.

(٢) العنكبوت : ٤٥.

(٣) البقرة : ١٨٣.

(٤) التوبة : ١٠٣.

(٥) البقرة : ١٩٧.

(٦) الأعراف : ٩٦.

(٧) مريم : ٩٦.

(٨) الروم : ٢١.

الزوجة ورد قوله سبحانه ﴿... وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[١] . وبين علة القصاص فى قوله ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾[٢] .

والبحوث العلمية قد أكدت أن الإسلام ما حرم شيئًا إلا وقال العلم إنه ضار بجسد الإنسان، وما أحل شيئًا إلا وفيه فائدة للإنسان، وحسبنا فى هذا المجال ما ظهر من آثار ضارة لمستحلى الحرام كشاربى الخمر والزناة وآكل لحم الخنزير وأخطار الدم وأضراره، والآثار السلبية للربا فى حياة الأفراد والدول..الخ.

وكم دان بعض الباحثين بالإسلام، لأنهم رأوا فى تعاليمه قناعة لم يروها فى غيره، وما الأقوال المشهورة بغائبة عن كثيرين لهؤلاء، فمنها قول أحدهم، إن الله جمع الطب فى الإسلام فى نصف آية، وذلك فى قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا...﴾[٣] .

وعندما وصل أحدهم إلى قول الله تعالى ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾[٤] . قال ما أعلم محمدًا بطبقات الجبال إلا الله.

وكم ذكر العلماء حكمة التشريع فى كتبهم، وهم يعالجون أمرًا ما،

---

[١] النساء : ١٩.

[٢] البقرة : ١٧٩.

[٣] الأعراف : ٣١.

[٤] فاطر : ٢٧، ٢٨.

ولا يستطيع مستحل الحرام أو محرم الحلال أن يقيم دليلاً عقليًا واحدًا على صحة ما ذهب إليه، بل إن العقول الرشيدة لتأبى دعوته، ودعاة الحرام تأبى عقولهم قيام دعوتهم بهم، فتجار المخدرات لا يشربونها فى الغالب، والتجارة فى الأعراض يحرص أهلها على أن لا يتوفر علم لبيوتهم بها فضلاً عن وصولها إليهم، ولو قلنا للسارق أترضى للناس أن يسرقوا مالك لقال : لا.

وجمهور المسلمين يعلمون واقعة الرجل الذى أتى إلى رسول الله ﷺ مسلمًا ويطلب منه إباحة الزنا، فقال له رسول الله ﷺ أترضاه لأمك ؟ قال : لا. فقال ﷺ ولا الناس، ثم سأله أترضاه لأختك ؟ قال : لا، قال : ولا الناس.. وبدا يذكر له ذوات القرابة القريبة، فقام وهو مقتنع بأن ما حرمه الله عليه فيه صيانة له فى نفس الوقت.

٦ـ شموليتها لظاهر الإنسان وباطنه فى التشريع :

قيام النظم الإسلامية على القرآن والسنة، قد أكسبها علمًا تميزت به عما سواها من سائر النظم، فبينما نجد نظمًا شتى، قد ركزت على الجانب المادى من الإنسان، نجد نظمًا أخرى، قد ركزت على الجانب الروحى منه، وتجاوز الأمر حد الاعتدال فى الجانبين، فاليهودية والشيوعية والرأسمالية كل ذلك يركز على الجانب المادى، والبوذية والبراهمانية والمسيحية تركز على الجانب الروحي أما الإسلام فقد ركز على الجانبين فى وقت واحد...

ففى إطار تناولها لظاهر الإسلام، وجدنا الإسلام يهتم بالإنسان منذ نعومة أظفاره، بل قبل خروجه من بطن أمه، ففى الإسلام عقوبة مقدرة على الاجهاض رعاية لحرمة ذلك الكائن، كما حرم وأده لاعتبار النوع بعد الخروج إلى حيز الوجود أو بعد العلم به، وأوجب على الوالدين رعاية حق

الجسد ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾[1].

ومن مظاهر الاهتمام بالجسد، التربية الرياضية «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل»[2].

وحرم على الإنسان أن يهلك نفسه ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ ولو كان من طريق العبادة ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾، وفى الحديث : إن الرهبانية لم تفرض علينا، كما نهى الإسلام عن أكل كل ضار بالجسد، فهذه سمة التشريع الإسلامى، قال تعالى : ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾[3] . ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق..﴾[4] .

---

(1) البقرة : ٢٣٣.

(2) الدر المنثور ٣/١٩٤، كنز العمال ٤٢، ٤٥٣ ، كشف الخفا ١ /٨٨.

(3) الأعراف : ١٥٧.

(4) المائدة : ٣.

ودعا إلى تناول كل طيب ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾[1]. ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾[2].

ومن شرائع الإسلام ما يحفظ على الجسد سلامته، ففي الوضوء يتم غسل الأطراف خمس مرات يوميًا، ويسن تخليل الأصابع وتعهد مواطن الأذى، وغسل الجسد على سبيل الوجوب أو الاستنان، وغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم[3] وتجميل الجسد في حدود الشرع ﴿إن الله جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة﴾[4]. و﴿إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده﴾[5].

وفي إطار اهتمام الإسلام بالجسد، وجدنا إباحة قصر الصلاة، وجمعها في السفر، وحل الفطر مع المرض أو السفر، وإسقاط الحج إذا قام بالجسد علة تمنع من السفر أو تؤدي إلى الهلكة، بل إن أمن الطريق قيد لوجوب الحج، فإذا خاف على نفسه القتل كان الإنساء حتى يتحقق الأمان.

---

[1] البقرة: ١٧٢.

[2] الأعراف: ٣٢.

[3] البخاري ومسلم.

[4] م. كتاب الإيمان.

[5] الترمذي ومسند أحمد.

وأما رعاية الإسلام للجانب الروحى فيتجلى فى اعترافه بالسر الخفى الذى يحيا به الإنسان، فليست الحياة ديناميكية كما يزعم كثيرون، تعمل بتلقائية، وتتوقف بتوقف الحركة الميكانيكية، وإنما يقرر الإسلام، أن الإنسان يحيا بسر من أسرار الله، استودعه الله جسد الإنسان . ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[1]. ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[2].

وهذا السر الخفى الذى يحيى به الإنسان، يحتاج إلى إشباع من جنسه، وكل تقصير فى حقه يؤدى إلى خواء روحى، وشقاء نفسى، ولذلك نجد أعلى نسبة انتحار فى البلدان التى يغلب عليها الاشباع المادى، ويغيب الاشباع الروحى كما فى السويد واليابان وأمريكا.

وقد حرص الإسلام على تحقيق ذلك الإشباع، فهو يفرض عبادات تحقق لذة روحية، وإن أصابت قيدًا على الجسد فى بعض الأحيان، كما فى الصيام والحج، إلا أن اللذة الروحية المترتبة على أدائها تعوض الجسد عن الألم الحسى الذى يصيبه.

ومن عوامل الإشباع الروحى، تلاوة النص القرآنى، والأذكار والاستغفار وقيام الليل، والعطاء المادى والزهد فى الدنيا، والموسيقى والغناء.

كما اعترف الإسلام بالغرائز الكامنة فى الإنسان وحقق لها اشباعًا

---

(1) سورة ص : ٧٢.

(2) الإسراء : ٨٥.

من الطرق المشروعة وما الغرائز المتقابلة فى الإنسان بغائبة عن أهل الاختصاص، كالحب والكره والخير والشر، والرضى والغضب، والفرح والحزن، فضلاً عن غريزة الأنا والوالدية والمالكية... الخ.

كل هذه أمور كامنة فى نفس الإنسان، وقد شرع لها الإسلام ما يحقق لها إشباعًا أو أذن بالتعبير عنها فى حدود الشرع، طلبًا لسلامة الجسد من رد الفعل، إن الإسلام لا يركز على الإشباع المادى وحده، حتى لا يتحول الإنسان إلى حيوان ولا الإشباع الروحى وحده حتى لا يتحول الإنسان إلى ملائكى وفيه مصادمة لحكمة خلقه كإنسان ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[1]. وإنما التوازن بينهما ليكون البقاء والاعمار.

وحسبنا أن رسول الله ﷺ لم يقبل من الثلاثة الذين أتوا بيته سائلين عن عبادته، فلما أخبروا بها كأنهم تقالُّوها، فقالوا وأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم قال أحدهم : إنى أصوم ولا أفطر وقال الثانى : وأنا أصلى ولا أرقد، وقال الثالث :وأنا أعتزل النساء، فبلغ أمرهم رسول الله ﷺ فقام خطيبًا فيهم قائلاً : «إنى أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[2]. وفى الحديث : «إن لربك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا، فاعط كل ذى حق حقه»[3].

---

[1] هود : ٦١.

[2] البخارى ومسلم وأبو داود ومسند أحمد.

[3] البخارى، أبو داود، والترمذى.

وفى هذا الزمن، غابت الروحانيات، وسيطرت الماديات، فعشنا شقاءً يعجب منه الشقاء، ولو قام السابقون، وعلموا من أمر اللاحقين ما هم عليه، لحمدوا الله على أن المنية قد وافتهم قبل أن يدركهم هذا الزمن، الذى لا يصل فيه القريب قريبه، ولا الجار جاره، ولا المسلم أخاه فى الإسلام، مع أن ذلك مما يضفى على الروح قدرًا من الراحة، ويحقق لها قدرًا من السعادة، فهل يكون العود، أم أنه الشقاء لا محالة ؟

٧- الاستعداد النفسى لقبولها :

النفس الإنسانية لها تعلق بمصدرها، وإن ضلت بعض الأنفس العلم بذلك المصدر، أما المسلمون فقد هداهم الله إلى العلم به، واستشعروا من خلال إيمانهم منزلة خطابه، فكانوا أحرص ما يكونون على التطبيق -فى جملتهم- وهكذا كان الصحابة يقبلون تعاليم الوحى فى غير معارضة.

لقد هيأهم ربهم لهذا الأمر، وعلمهم فى كتابه أن ما صدر عن الله، يقبل برضى تام، لأن ذلك دليل الإيمان، وله كبير الأثر فى الدنيا والآخرة، فضلاً عن كونه يحرر الإنسان من سلطة غيره وسلطانه، ليجعل الجميع تحت سلطان الشريعة الإسلامية ولذلك وجدنا الأوامر الإلهية ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[1]. ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[2]. ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[3].

---

[1] النور : ٥٤.
[2] الأحزاب : ٣١.
[3] النساء : ٦٥.

وقد انتفع المسلمون الأولون بهذه الآداب، فكانوا أحرص الناس على التلقي والتطبيق، وكانوا أسعد الناس بكل نص ينزل أو تكليف يصدر، قال تعالى واصفًا حالهم، مادحًا إياهم ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[1].

﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾[2]. قدوة المسلمين في ذلك، رسولهم ﷺ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[3].

ولا يزال الاستعداد النفسي للقبول وصفًا قائمًا بالمسلمين، بل وبغير المسلمين، أما غير المسلمين فيكفي للتدليل على ذلك، أن النصارى يحتكمون في إرثهم في ديار الإسلام إلى الشريعة الإسلامية، وهو ما يؤكد كون النفس مهيئة لقبول ذلك التشريع.

وأما المسلمون فهم مهيئون بحكم اتباعهم للإسلام، للتلقي والقبول، ويكفي أن إخراج الزكاة يتم عن طيب نفس واختيار، ودون تعقب ولا متابعة،

---

(1) التوبة : ١٢٤.

(2) النور : ٥١، ٥٢.

(3) البقرة : ٢٨٥.

و لم نسمع علة للرفض أو محاولة للتهرب، باستثناء الحالات الشاذة بينما نجد رفضًا وكراهية وتحايلاً وتلاعبًا وتساؤلاً فيما يتعلق بالضرائب، وذلك للتفرقة بين ما شرع الله للإنسان، وبين ما يشرع الإنسان للإنسان.

وقد أثبتت التجارب أن تطبيق الشرع ككل لا يتجزأ، يحظى بتأييد وقبول إسلامي ويلعب دورًا كبيرًا في الحد من الفساد وانتشار الجريمة، فعلى سبيل المثال، إذ قتل مسلم آخر، فإن عمله هذا يترتب عليه حقدًا وكراهية وحرصًا من أولياء الدم على الانتقام، وقد لا يرتضون دم القاتل لأنه لا يعدل المقتول منزلة ومكانة، فيكون القتل للغير ويستمر الأمر إلى ما شاء الله.

أما إذا طبق الشرع، وأقيم القصاص، فإن ارتياحًا لدى أولياء المقتول يتحقق، لأنهم لم يعودوا يرون القاتل يتحرك على ظهر الأرض، وأهل المقام عليه الحد يقبلون ذلك باعتباره شريعة الله، وقد يتوقف الأمر عند هذا الحد.

وكم في التاريخ الإسلامي من وقائع يترتب عليها عقوبات، لم يرها أحد إلا الله، أبت نفس أهلها أن تمضي الحياة، دون أن تبرأ ساحتها مما اقترفت، فكان الواحد منهم يأتي إلى الرسول ﷺ قائلاً له : يا رسول الله لقد زنيت، ويتثبت الرسول من القولة المنطوق بها، ويفتح للقائل باب التوبة، ويقول للمتكلم لعلك قبلت ؟ لعلك فاخذت ؟ ثم يسأله عن فقهه للكلمة المنطوق بها، فيجيبه تعبيرًا يؤكد به المعنى الشرعي للزنا، فيأمر الرسول أصحابه بإقامة الحد عليه.

وتأتي أخرى وتخبر بما كان من أمرها، فيطلب منها الإرجاء للحد، حتى تضع المحمول به ثم الفطام، وهي أحرص ما تكون على تبرئة نفسها مما علق بها، فيأمر الرسول بإقامة الحد عليها، وإذا بواحد ممن يرجمونها يسبها، فيقول له الرسول ﷺ حسبك لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم[1] .

---

[1] البخاري ومسلم.

ولا تزال الأقدار تترى، والنفس مهيئة للقبول والتلقي، ولا تزال الأحكام الشرعية تصدر، وإن خالفت هوى في النفس، ولكنها في النهاية تلقى الرضى لأنها صادرة عن الله، بل إن الفكر الإسلامي قد غلب عليه، تقدير الخير في كل منح أو منع يقع، ولو كان ذلك من ظلم البشر لبعضهم قائلين : الخير فيما قدر الله.

٨ ـ اتسامها بصفة العدل مع المخالفين :

ومن خصائص الإسلام وشريعته أنه يقوم على العدل ويأمر به، ينتفع بهذا المبدأ الأتباع والخصوم، وحسبنا أن الأمر بالعدل ورد مطلقًا ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...﴾[١]. وركز على العدل مع الخصوم ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما﴾[٢].

ومن التطبيقات العملية لقيام النظم الإسلامية على العدل، أنها في مجال العقائد كما أوجبت الالتزام الديني على المسلم، فقد أذنت بالالتزام الذهبي لغير المسلم، ولم تفرض عليه اتباع الإسلام، أو الإعراض عن دينه ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[٣]. ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٤]. وما ورد في كتب الفقهاء وآراء المفسرين والعلماء، فأغلبه اجتهاد

---

[١] النساء : ٥٨.
[٢] النساء : ١٠٥.
[٣] الكهف : ٢٩.
[٤] البقرة : ٢٥٦.

شخصي، لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنة، وإنما هو استنباط من النصوص، أو لىٌّ لها في بعض الأحيان.

بل يمكن القول : إن الإسلام ألزمنا تجاه أنبيائهم بما لم يلزمهم تجاه نبينا، فالإيمان بهم جزء من الإيمان عندنا، والكفر بواحد منهم ممن صرح باسمه في القرآن كفر صريح في شرعنا، ويلحق بذلك الإيمان بكتبهم، مع الإعلان عن ذلك صراحة ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1].

وقد نهينا عن سبهم ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم﴾[2]. والإعراض عنهم إذا تكلموا في أمور دينهم بما يخالف ديننا، أو كنا عاجزين عن المناقشة ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا﴾[3].

وأما في مجال الشريعة، فقد أذن الإسلام لنا في مجال المعاملات، أن نتعامل معهم وأن يتعاملوا معنا –في حدود الحلال– وأذن لنا بأكل ذبائحهم، وكفل للزوجة الكتابية في حال زواجها من مسلم، ما كفله للزوجة المسلمة، وعندما نهى عن الإرث إذا اختلف الدين، كان ذلك قائمًا على العدل أيضًا،

---

[1] البقرة : ١٣٦.

[2] الأنعام : ١٠٨.

[3] النساء : ١٤٠.

فكما تُحْرَم الزوجةُ الكتابية من إرث زوجها يُحْرم الزوج المسلم من إرث زوجته، مع أن الضرر عليه أكبر.

وقد أباح بعض الفقهاء أن يقتل المسلم بالكتابي الذمي، وأن يقتل بالمستأمن لفرض هيبة الدولة، وللأحناف دراسة مفصلة فى هذا الأمر، اعتمدوا فيها على ظواهر نصوص القرآن الكريم، وبعض وقائع السنة العملية.

وفى مجال الحدود، فإن المسلم إذا سرق أو زنى أو قطع الطريق على غير المسلمين جرى عليه من العقوبة ما يجرى على فعلته مع المسلمين، ولم يرد فى شروط إيجاب تطبيق الحد على السارق أو الزانى أو قاطع الطريق، أن يكون المسروق منه أو المزنى بها أو المقطوع عليه الطريق مسلمًا، وإنما يؤاخذ المسلم بفعله لشىء من ذلك مع غير المسلمين، ومثل ذلك غير المسلم، إذا وقع منه شىء من هذا مع المسلمين.

وما يوهم ظاهره الجور مع أهل الكتاب كفرض الجزية، فإنه العدل بل والفضل كذلك فقليل المال الذى يدفعه الكتابى البالغ العاقل الذكر القادر، غير المترهب ولا الآوى إلى صومعته أو بيعته، يكسبه تفرغًا تامًا للكسب، ويحقق له أمانًا على روحه، بينما يخرج المسلم ليقاتل عنه، وقد تكون المنية فى المعركة، فضلاً عن نأيه عن أهله وداره شهورًا عديدة، وقد تكون الهزيمة فلا يدرك شيئًا من غنيمة إلا أجرًا أخرويًا فقط، فكيف بمتطلبات العيش الدنيوى.

إن النظام الإسلامى يقوم على العدل، لأنه صادر عن الله، ومن أسمائه تعالى : الحكم، العدل، وقد تجلى عدله فيما ضمنه لغير المسلمين ممن يؤمنون بالله، ويتبعون نبيًا فى فرض هذه الحقوق لهم، والتى تستوى مع حقوق المسلمين ومنها :

أ – حق الحياة

ب – حق الحرية

جـ - حق الكرامة

د - حق العمل

هـ - حق التملك

و - حق الاعتقاد

ز- حق التنقل.

ح- حق إبداء الرأى إلا فى الإمامة العظمى.

ط- حق الدفاع عنهم

ى- حق صيانة أموالهم وأعراضهم.

كما أباح للمسلمين الجوانب التالية فى علاقتهم بأهل الكتاب :

أ- المشاركة فى الأفراح

ب- المشاركة فى الأحزان

جـ- إلقاء السلام ورده

د - زيارة مرضاهم

هـ- اعطاؤهم من الزكاة والصدقة إلا صدقة الفطر.

و- ضيافة الذمى للمسلم والعكس.

وقد وضع بعض الفقهاء شروطًا وقيودًا على بعض الحقوق وبعض المباحات، ليس محل ذكرها والتفصيل بها هنا، وقد أحسن ابن القيم معالجة هذا الأمر، فى كتابه أحكام أهل الذمة، وكذلك الدكتور / عبد الكريم زيدان فى كتابه : أحكام الذميين والمستأمنين، وأبو عبيد فى كتابه : الأموال.

الشمولية فى التشريع :

فلا تتوقف تعاليم الإسلام ومبادئه عند حد علاقة المسلم بالمسلم، بل إنها شملت علاقة المسلم بغير المسلمين فى حالة السلم، وفى حالة الحرب، وصرحت بالعلاقات الدولية فى حالة السلم والحرب، ورسمت السبيل للتعامل

مع الكون والطبيعة، وحثت على التأمل والنظر، واعتبرت الكون بما فيه مقدمة لنتيجة تحتمها الفطرة ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[1].

ونهت عن الفساد في الأرض ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[2].

بل إنها رسمت العلاقة بين الإنسان والحيوان على أساس من تسخير الثاني ورحمة الأول.

وقد تناول التشريع الإسلامي الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشيء من التفصيل، واتسم ذلك التناول بتحرره من التناقض والاضطراب والخلل.

ففي المجال السياسي: وضع الإسلام أسس الحكم وقواعده، والسنة النبوية قد فصلت نصوص القرآن الواردة في هذا الصدد، والرسول ﷺ طبقها عمليًا في حياته، وعليها سار الخلفاء في صدر الإسلام، ولا تزال الأمة الإسلامية بحاجة إلى تطبيق هذه الأسس في حياتها، حتى يستقيم أمر هذه الأمة، وبدلاً من استيراد نظم شرقية أحيانًا، وغربية أحيانًا أخرى، تدفع بنا إلى عدم الاستقرار السياسي، فإننا بحاجة إلى أن نعود إلى شريعة الله، ونطبق هذه المبادئ على مستوى الأفراد والأسر والمجتمع الصغير والدولة والعالم الإسلامي بأسره، ونخص منها بالذكر ما يلي:

---

[1] آل عمران: ١٩٠.
[2] الأعراف: ٥٦.

١- العدل :

فهو أساس الحكم والملك، وبه تطبق الأحكام على الجميع دون اعتبار للدين أو الجنس أو اللون أو المنزلة أو الغنى أو الفقر..، والتاريخ الإسلامي فيه صفحات من نور، ووقائع يشرف بها كل مسلم، تشير إلى العدل في الإسلام كواقع عملي في حياة المسلمين الأولين.

٢- الشورى :

وذلك في كل أمر لم يرد فيه نص، قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وأما ما ورد فيه نص فلا رأي فيه، قال تعالى آمرًا نبيه :﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[1]. وامتدح المؤمنين بقوله : ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم﴾[2].

إن الحق سبحانه يعلم أن القرار المصيري تتحمل تبعته الأمم، وأحيانًا لا يتحمل أولوا الأمر من آثار القرارات شيئًا، ولذلك أوجب الإسلام مشورة أهل الحل والعقد، في كل أمر يتعلق به مستقبل الأمة، تبصرة للحاكم، وحدًا من غلوائه وسلطانه، وحتى لا يتحول إلى مستبد يقول ما قاله غيره ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾[3].

وقد وضع الإسلام آدابًا لذلك، فلا يجوز إبداء الرأي فيما يجهل الإنسان، ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[4]. ولا إبداء الرأي بهدف التضليل

---

[1] آل عمران : ١٥٩.

[2] الشورى : ٣٨.

[3] القصص : ٣٨.

[4] الإسراء : ٣٤.

أو الغش، وفي الحديث «من غشنا فليس منا»[1] ولا فيما ورد فيه نص بالحظر والحرمة فى الكتاب والسنة، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[2]. مع وجوب النصح لأولى الأمر، وفى الحديث «الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[3].

٣- المساواة :

وهى من المبادئ التى أكد عليها الإسلام، وعالج تقاليد الجاهلية فيها بصورة محكمة، فقد ركز على وحدة المصدر، ووحدة الأصل الأول، وأشار إلى التفاوت فى النوع واللون والصوت كدلائل على الخالق، ولم يجعله باعثاً على الاستعلاء أو التمرد، وجعل التكاليف الشرعية باعثة على تطبيق وتحقيق هذا، فالناس يتجاورون فى الصلاة، دون أى اعتبار إلا تقديم الإمام على المأمومين فى الوقوف لا فى المنزلة.

والأحكام عامة فى التكليف والاستثناء، والقضاء لا يعرف التمييز على أساس من الجنس أو اللون... الخ.

٤- تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

وذلك بوضع حقوق للحاكم على الرعية، وحقوق للرعية على الحاكم، وتقييد ذلك بقيود محكمة، حتى يستقيم أمر المجتمع.

وفى المجال الاقتصادى : راعى الإسلام الفطرة التى فطر عليها الإنسان من حب للتملك، واعتباره المال زينة للحياة الدنيا، ولذلك أوجب العمل، ودعا

---

(1) مسلم وأبو داود والترمذى وأحمد.

(2) الأحزاب.

(3) البخارى ومسلم وأحمد والنسائى.

إلى السعي في الأرض طلبًا للرزق، وقيد التملك بكونه من حلال، ولفت النظر إلى مصادر أخرى غير العمل، تلعب دورًا أساسيًا في إعادة توزيع الثروة، كالإرث والهبة، وأوجب المحافظة على المال بعد تملكه، وذلك بتنميته وتزكيته وعدم كنزه، وجعل للفقراء فيه حقًا، وأوجب انفاقه فيما شرع، وأوجب الحجر على السفيه، وحث على تكافل المجتمع ماديًا، وأقام الصحابة بيت المال وجعلوه بمنزلة البنك الآن، يفي بمتطلبات المجتمع، وتصرف منه رواتب الجند، ويتقاضى العمال منه أجرهم.

وفي المجالات الاجتماعية : راعى العادات والتقاليد الجارية، فحسّن الحسن وقبّح القبيح، وأذن بكل مشروع محمود، وأباح الضرب بالدف والغناء في الأفراح وأنكر أن يكون عرس بلا وليمة ولا ضرب بالدف، باعتبارهما من سبل الإشهار، وحث على الاستجابة، وفي الحديث أن رجلاً تزوج فقال له الرسول ﷺ «أولم ولو بشاه»[1] وعندما تزوجت فتاة بلا عرس قال ﷺ «إن الأنصار قوم فيهم غزل هلا ضربتم بالدف وقلتم أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم»[2].

كما راعى الفطرة الكامنة في النفس تجاه المصائب، وبخاصة مصيبة الموت فأذن بالبكاء، وحرم لطم الخدود وشق الجيوب، ودعاء الجاهلية، وأوجب العزاء كتخفيف للمصيبة عمن نزلت به، وتوزيع لها على كثيرين، وأوجب على المسلمين المشاركة المادية إلى جوار المشاركة المعنوية، وفي الحديث «اصنعوا لآل جعفر طعامًا»[3].

---

[1] البخاري ومسلم.

[2] مسند أحمد والبيهقي.

[3] أبو داود والترمذي وابن ماجه ومسند أحمد.

كما رتب الحيوان بحسب الحقوق ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾[1].

كما أوجب التعليم، ودعا إليه، باعتباره باعث البناء وأساسه، ولذلك أعلى قدر العلم وقدر العلماء وقدر طلاب العلم، وأنزل الجميع خير منزلة في الدنيا والآخرة.

كما حرص على الاهتمام بالصحة، وأوجب التطبيب حتى لا تكون التهلكة، وحرم تناول الخبائث وأباح كل حلال طيب، وحث على حسن التطهر، فما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد، هم لبنات البناء فيه، فإذا كانت اللبنات محكمة دقيقة سليمة، وكان الملاط سليمًا، فإن البناء الاجتماعي سيقوى لا محالة.

وفي الختام نقول : إن الإسلام لم يترك حالة من الحالات التي يكون عليها الإنسان إلا وشرع لها، سواء أكان ذلك من ناحية العمر (جنين - طفل - مراهق، شاب - شيخ - كهل) أم من ناحية الفرح والحزن أم من ناحية اليسار والاعسار أم ناحية الحل والترحال، بل شملته الشريعة بعد وفاته ودفنه كذلك.

ربانية الغاية والوجهة :

عاش الإنسان فترة من الزمن يجهل علاقته بالكون والطبيعة، وأطلق العنان لعقله للبحث فيما وراء الطبيعة، فكان الناتج عقيمًا في أغلب الأحوال.

---

[1] النساء : ٣٦

وقد أدركنا من فكر السابقين في هذا المجال الشيء الكثير، فبين ضال مضل لم يهتد للإجابة عن تساؤلاته، من أين : إلى أين. لماذا ؟ وبين معرض عن التفكير في ذلك بالكلية.

وكانت الإجابة مضطربة من المادة، من الدهر، سنن كونية.. الخ.

وكما اختلف في المصدر اختلف في المصير، فناء بلا حياة ثانية، تناسخ، بعث بكيفية تراءت لهم، لا تتفق من قريب أو بعيد مع مراد الحق سبحانه، كما رأينا تقديسًا للمحسوسات والمعقولات (الأوثان - الأرواح) واضطرابًا من بعض الكائنات، ترتب على ذلك أن يكون الإنسان أدنى من سائر المخلوقات.

إن عدم العلم الصحيح بالخالق سبحانه، وما يترتب على ذلك من لازم، جعل الناس لا يقصدون بعملهم إلا عرض الدنيا، ولذة النفس، واتباع الهوى، دون أن يسموا بسلوكهم نحو الخالق الأعلى، وهو ما أفضى بهم إلى مصارع يصرهم بالغاية من وجودهم، وما ينبغي عليهم حال حياتهم، ولذلك كان بعث الرسل، ووجدنا الإسلام يركز على علاج هذا الداء (داء الجهل بالغاية) ويحدد للمسلمين ما ينبغي عليهم الالتزام به، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط التالية :

أولاً : صرح القرآن الكريم بأن الأنبياء السابقين جميعًا، قد دعوا أقوامهم إلى التوجه نحو الله، وأمروهم باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولم يكن دورهم خارجًا عن هذا الإطار ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾[1] .

---

(1) آل عمران : ٧٩ - ٨٠.

ولذلك رأينا السابقين جميعًا يركزون على توحيد الله، بمفهومه المطلق بأن يكون الأمر والنهي له وحده دون سواه، وأن يقوموا بالعبادة لله على وجهها، وهذا ما ورد في قول الحق سبحانه، ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1] . ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[2] .

ثانيًا : قيد الحق هذه العبادة بالإخلاص التام لله رب العالمين، وهو قيد في التكليف الإلهي، أن تكون الأعمال في البدء والمنتهى، دينية ودنيوية، لا يقصد بها سوى وجه الله سبحانه وتعالى، وقد صرح القرآن بأن السابقين قد أمروا بذلك، قال تعالى في حق أهل الكتاب ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾[3]

وقد امتدح الله بعض الرسل السابقين بهذا الخلق، قال تعالى في حق إبراهيم وبنيه ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾[4] . وفي حق

---

[1] الأنبياء : ٢٥.

[2] النحل : ٣٦.

[3] البينة :٥.

[4] سورة ص : ٤٨

يوسف عليه السلام ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[1]. وفي حق موسى -عليه السلام- ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصًا وكان رسولاً نبيًا﴾[2]. وبحقه ورد في سورة طه ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربي لترضى﴾[3].

ثالثًا: بإمامة الرسول ﷺ لهذه الأمة، فقد خلد الحق لنا بعض أفعاله في القرآن لنتأسى بها، وهي تطبيق عملي للأوامر الإلهية الصادرة إلينا فيما يتعلق بالربانية، فلقد أمرنا الله بالإخلاص في العبادة بمعنى ألا نقصد بعملنا سوى وجهه ولا نجعل من ورائها هدفًا إلا مرضاته، قال تعالى ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾[4]. ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾[5].

كما ذكر لنا بعض النعم التي أنعم بها علينا، وأمرنا بعدها بأن نعبده وحده، ولا نخضع لغيره ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾[6].

---

[1] يوسف. ٢٤
[2] مريم: ٥١.
[3] طه: ٨٣، ٨٤.
[4] الأعراف: ٢٩.
[5] غافر: ١٤.
[6] غافر: ٦٤، ٦٥.

وقد أمر ﷺ أن يجاهر بذلك، وأن يعلنها صراحة ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين * قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصًا له ديني﴾[1] .

رابعًا : بين الحق أن النزوع إلى الربوبية أمر فطرى في الإنسان وأن الشدائد تدفع إلى إظهار هذه الفطرة، قال تعالى : ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾[2] . ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾[3] . وفي سورة يونس ورد قول الحق : ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾[4] .

هكذا يكون النزوع إلى الله من قبل الصالحين في عبادتهم، وفي كل أحوالهم، لأن لهم شوقًا إلى المصدر الأول الذي خلقهم، ومن روحه وهبهم الحياة.

---

[1] الزمر : ١١، ١٢، ١٣، ١٤.
[2] الزمر : ٨.
[3] الروم : ٣٣.
[4] يونس : ٢٢.

خامسًا : أمر الرسول ﷺ أن يحدد مفهوم الربانية، وأن يربى أمته عليها وقد ذكر الحق ذلك فى كتابه، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[1] . كما ورد فى السنة كثير من الأحاديث التى توضح هذا المفهوم، منها القدسى، ومنها النبوى.

فمن الأحاديث القدسية ما ورد **(أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برئ وهو للذى أشرك)**[2] . ومن الأحاديث النبوية فى تحديد مفهوم الإسلام **«أن تعبد الله لا تشرك به شيئا»** فدل على أن بعض الناس يعبدون الله ويشركون معه غيره.

وعندما سئل ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل ليرى مكانه، فأى ذلك فى سبيل الله، فقال ﷺ **«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»**[3] .

وقد بين رسول الله ﷺ أن من لم ينزع نزوعًا ربانيًا فى عمله، سيقف موقفًا مخزيًا يوم القيامة، ولوعلم كل مسلم عاقبة الرياء، أو إرادة غير وجه الله لما سلك غير سبيل المؤمنين، ولكفى نفسه مشقة العمل الذى لم يجن من ورائه إلا العذاب، عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد، ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعونه رجل جمع القرآن، ورجل يقتل فى سبيل الله ورجل

---

[1] الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

[2] اتحاف : ٢٦٣/٨، ٢٧٦، ١٠ / ٦٣.

[3] البخارى ومسلم وأبو داود ومسند أحمد

كثير المال، فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟ قال : بلى يا رب، قال فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله له : كذبت، وتقول لـه الملائكة : كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال : إن فلانًا قارئ، فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له : ألم أوسع عليك ؟ حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد، قال بلى :يا رب. قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له : كذبت وتقول له الملائكة : كذبت ويقول الله تعالى، بل أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ذاك، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له : فيما قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد فى سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله تعالى له : كذبت، وتقول له الملائكة : كذبت، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جرئ، فقد قيل ذاك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال : يا أبا هريرة، أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[1] .

ثمار ربانية الغاية فى حياة المسلم :

لخاصة الربانية فى حياة المسلم آثار إيجابية تبلغ حدًا فى الكثرة، نذكر من هذه الآثار ما يلى :

١ـ التحرز من النفاق والنأى عنه :

فمع أن هذا الخلق مذموم، والقرآن قد عاب أهله، كما أكثرت السنة من التحذير منه، ورسمت معالم أهله، إلا أننا فى هذا العصر قد ابتلينا بتلك الخُلُق، وأصبح الوجه الإنسانى سابقًا على المقصد الربانى، وقد عمت هذه البلوى فى السلوكيات الدينية والاجتماعية والأخلاقية.

---

[1] سنن الترمذى باب الرياء والسمعة.

ففى مجال العبادات نرى المكثرين من الحج، باعتباره لونًا من السياحة أو السمعة أو التجارة والزيارة، ويمكن القول : إنه صار لونًا من الدعاية لدى بعض المسلمين.

وفى المجال الاجتماعى، نرى بعض الناس يُدْعون إلى الصدقة فى السر فيمتنعون مع أنها قد تكون عمارة المسجد أو بناء المدرسة أو إكمال مستشفى، فإذا ما طلب منهم ذلك فى مجلس عام تباروا وتباهوا.

وأما نفاق الأخلاق، فهو أوضح ما يكون فى سلوك بعض المتصوفة، الذين لا يلتزمون بحق الله التزامهم بحق الشيخ، فهم أحرص ما يكونون على مرضاته أكثر من حرصهم على مرضاة الله، يقصرون فى الصلاة والصيام والزكاة والحج ولا يقصرون فى حضرة الشيخ وتقديم الولاء له، وطلب مرضاته.

لقد غاب عن هؤلاء جميعًا ربانية القصد، فحق عليهم قول الله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[1].

إن الربانية تعنى : الالتزام فى القول والأفعال، ولو تحقق الالتزام، ما وسد الأمر إلى بعض المنافقين، لقد غلب على كثيرين أن الالتزام بالقيم مضيعة فى هذا الزمن، وأن الفهلوة مكسبة للأمانى، وأنه لا يمكن الصعود إلا على سلم النفاق، وأن الالتزام الدينى فى عرف هؤلاء دليل التخلف،ويوصف صاحبه من قبل هؤلاء بأنه معقد، حامد، حنبلى، نظام قديم، متخلف، رجل طيب.

قاموس من المصطلحات وضعها هؤلاء المنافقون فى ذم الربانيين، وكل

---

[1] الكهف : ١٠٣، ١٠٤.

ذلك من تغيب الثقافة الإسلامية عن التطبيق والاستعاضة عنها بالنعيم [illegible] وغيبة الربانية عن الوجود في قلب هؤلاء.

٦- التيقن من كسب الأجر المترتب على العمل :

كم تخدعنا الأماني، وما تحققت الوعود، لقد عمل كثيرون لوجه هذا أو ذاك بغية كسب مادي عاجل أو آجل، وكم حال الخيال في المردود المترتب على العمل فإذا بالنتيجة عكسية جملة وتفصيلا، إما لفناء الوجه المقصود، أو لخلفه الوعد، أو لضيق ذات اليد.

وتنزه الله عن الاتصاف بشيء من هذا، قال تعالى ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[1]. ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾[2]. ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[3]. إذن فلا فناء ولا خلف وعد ولا عجز عن الوفاء بالوعد.

وقد رأينا الحق في إطار المعاملات المادية، يضيفها إلى نفسه، حتى يطمئن المسلم الذي يقصد وجه ربه إلى عدم ضياع أجره، قال تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾[4]. ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾[5]. ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[6].

---

[1] الرحمن : ٢٦، ٢٧.

[2] الروم : ٦.

[3] المائدة : ٦٤.

[4] البقرة : ٢٤٥.

[5] الطلاق : ١٧.

[6] المزمل : ٢٠.

أثر هذه الثمرة في الدفع إلى فعل الخير :

مما لاشك فيه، أن النفس البشرية قد فطرت على حب الكسب، وأن الإنسان لا يقدم على عمل تأكدت من ورائه الخسارة له، إلا إذا كان سفيها، أما تيقنه بالعائد الطيب المترتب على تصرفاته، فإنه يدفعه فقط إلى دراسة ذلك العائد، ومحاولة تحصيل أكبر قدر منه، وما أظن البشرية عرفت حتى الآن - في إطار التعامل المادى- عائدًا يترتب عليه من الدخل ٧٠٠ ٪ وقد يتجاوز هذه النسبة، قال تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾[1]. والحد الأدنى لذلك العائد ١٠ ٪ ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[2].

وفى إطار ذلك الوعد، لا يحزن إذا تأكد أن الصدقة فى غير موضعها، لعلمه أن الأجر من يد الله، لا من يد الخلق، وأن الحق يقبلها -إذا كانت طيبة- ويربيها لصاحبها، كما يربى أحدنا فلوّه أو فصيله، حتى تكون فى ميزان حسناته فى الآخرة.

٣- تغليب الجانب الروحى على الجانب المادى والأجر الأخروى على الأجر الدنيوى :

إن ربانية الغاية تحد من غلبة التيار المادى، وتسلط الدنيا على الإنسان، وتدفع به إلى عائد أسمى من المحسوس، إنه العائد الروحى، الذى يستشعره كل إنسان يفعل الخير لوجه الله، ولقد رأينا الأنبياء يبذلون كل جهد لنشر دينهم، رافضين العائد المادى، لأنه دون عطاء الله بكثير، هكذا أعلن "نوح وهود

---

[1] البقرة : ٢٦١.

[2] الأنعام : ١٦٠.

وصالح ولوط وشعيب" ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾[1]. ومثل ذلك قول الرسول ﷺ ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد﴾[2]. وقول الحق عنه ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[3].

إن إسلام الوجه لله يترتب عليه الأجر الكبير، وقد أكد ذلك الحق سبحانه فى مواطن شتى فى القرآن، قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4] ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[5]. ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[6] وبهذه الروح عاش الصحابة.

ذكر المفسرون أن أصحاب رسول الله ﷺ عندما نزل قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[7]. قالوا: ربح البيع.

---

(1) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

(2) سبأ: ٤٧.

(3) ص: ٨٦.

(4) البقرة: ١١٢.

(5) النساء: ١٠٠.

(6) : ٤٠.

(7) التوبة: ١١١.

وكم كان الصحابة يستعطفون الشهادة، ويتمحلونها طلبًا لمنزلة الأجر المترتب عليها، ومما نذكره قول "عمير بن الحمام" في غزوة بدر : بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ ما يحملك على قول : بخ بخ ؟ قال : لا، والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال فإنك من أهلها -أي الجنة- فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[1] .

وأما خبيب، فقد أسر وسجن عند قريش، فلما أجمعوا على قتله، وخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، ورأوا أن يموت مصلوبًا قال : دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه فصلاهما، فلما سلّم قال : والله لولا أن تقولوا : إن بي جزع لزدت ثم قال اللهم احصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبق منهم أحدًا، وأنشد شعرًا منه :

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مدمع

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[2]

وقال آخر قبل المعركة : غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وحزبه

إن غاية ثمرة الربانية دفعت الجميع إلى فعل الخير، وحملت الصدر الأول من الأمة الإسلامية على العمل بهذا النص ﴿فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا﴾[3]. وقوله تعالى ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[4] .

---

[1] الرحيق المختوم : ٢١٥.

[2] الرحيق المختوم : ٢٩٠.

[3] المائدة : ٤٨.

[4] المطففين : ٢٦.

وحسبنا أن إرادة مرضاة الله سبحانه، قد دفعت السلف إلى الجود بما يمكن إنه الجود بالنفس، وما موقف أبي بكر ليلة الهجرة، وعثمان في غزوة العسرة وعبد الرحمن بن عوف كذلك بغائب عن مسلم.

كما رأينا الجود بالنفس والمال كثيرًا في القرآن، قال تعالى ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله﴾[1]. وعن الجود بالمال ورد ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾[2].

وقال تعالى ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾[3].

وبين أن مخالفة الوالدين لا تكون إلا في حالة واحدة، إذا أمرا بمعصية الله وأن الإعراض يكون بباعث من طلب مرضاة الله ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا﴾[4].

وعاتب الحق أحد المسلمين، عندما اتصل بالمشركين، مخبرًا إياهم ببعض الأسرار العسكرية، لجيش رسول الله ﷺ معلمًا إياه أن قصد وجه الله (ربانية الغاية) لا يتأتى معه فعل ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

---

(1) البقرة : ٢٠٧.
(2) الليل : ١٧ : ٢١.
(3) النساء : ١١٤.
(4) الإسراء : ٢٨.

تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادًا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾[1] .

وفى النهاية أقول : إن الربانية تعنى التحرك وفق مراد الله، وإذا كان الحق قد صرح بأن له الخلق والأمر، وأن منه البدء والمنتهى، وأن الإنسان من الله صدر وإلى الله يرجع، كل ذلك يجعله حريصًا على الالتزام بشريعة الله، جاعلاً أمره الأمر ونهيه النهى، منتهى غايته مرضاة ربه، وسعيه لهدف معين، ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه * فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابًا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا﴾[2] . لسان حاله فى هذه الحياة ماتقله أهل العرفان عن أبى فراس مادحًا به سيف الدولة، صائغين منه تذوقًا معينًا فى الحب الإلهى مرددين قوله :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين الآخرين خراب
إذا صح الود منك فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب[3]

ومما ورد عن الرسول ﷺ قال «من قال رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا، كان حقًا على الله أن يرضيه»[4] .

---

(1) الممتحنة : ١.

(2) الانشقاق : ٦، ٧، ٨، ٩

(3) ثقافة الداعية - ص ١٠٣.

(4) الحديث : أبو داود ومسند أحمد.

الخاصة الثانية

الإنسانية

مقدمة البحث

عـرفت البشرية عبر تاريخها رسالات ومعتقدات ونظماً تبلغ حــداً فى الكثرة ، ولكنها لم تعرف رسالة أعلت قدر الإنسان إلى الحد الذي ناله فى الإسلام .

لقــد أظهــرت الــشريعة الإســلامية منزلة الإنسان بين سائر المخلــوقات التى انتهى إلينا العلم بها ، كما بينت مدى اهتمام الإسلام بالإنسان بصورة غير معهودة فى النظم القديمة والحديثة من حيث :

الاهتمام به قبل الوجود وبعد الممات .

الاهتمام به فى مراحل حياته المختلفة .

الاهتمام به جسداً وروحاً .

الاهتمام به غرائز وعواطف .

الاهتمام به مفكرا .

الاهتمام به فرداً وأسرة ومجتمعاً .

كما وضعت لــه من القواعد والآداب ما تستقيم به حياته دون اعتبار للون أو جنس أو عرف ،وبصرته بما يكسبه سعادة الدارين إن التزم بهدى الله فى هذه الحياة ،وهذه هى غاية الإسلام " تحقيق السعادة والسلام " وهذا ما يكشف عنه هذا البحث .

عـــرفت البشرية معتقدات شتى وظهرت أيدولوجيات تبلغ حدا فى الكثرة ، ومع ذلك لم ترع هذه كلـــها الإنسان كما رعته شريعة الإسلام .

ومـــن العجيب أن بعض النظم والمعتقدات تدعو إلى قتل الإنسان لنفسه قتلا حقيقـــيا أو حكميا ، وما زلنا حتى يومنا هذا نسمع عن جماعات تتخذ قرارات بالقتل الجماعـــى بدعوى التخلص من شرور الدنيا والسمو فى عالم البقاء ، حدث ذلك فى أمريكا وفى اليابان فى السنوات الخوالى .

وفى الماضى السحيق كانت المانوية فى فارس على نفس الشاكلة أو قريبة منها حـــيث حرمت التملك والطعام وبخاصة اللحم وضيقت على الجسد وهناك معتقدات وتـــيارات تـــصادم الفطرة التى فطر عليها الإنسان سواء بتغليب الجانب المادى على الجانب الروحى كاليهودية والمزدكية والشيوعية ، حتى صارت المادة كل شئ فى حياة أتباعها مما أدى إلى ارتفاع نسبة الانتحار رغم اليسر المادى وذلك أوضح ما يكون فى الـــسويد والنرويج ، لأن كبت الجانب الروحى يؤدى إلى شقاء الجانب المادى ، وقد يكون الانتحار سبيلا للعلاج من هذا الشقاء كما يراه أهلـــه .

وهناك معتقدات ونظم تشبع الجانب الروحى وتقتل الجانب المادى بدعوى أنه شـــر لابـــد من الخلاص منه ، وهو أوضح ما يكون فى البوذية والبرهمانية والمسيحية وغلاة الصوفية .

أمـــا الإسلام فلـــه نظام مميز مستقل عن النظم السابقة عليه واللاحقة لـــه . ويمكن إبراز مدى اهتمام الإسلام بالإنسان فى النقاط التالية .

أولاً : تكـــريمه من بين المخلوقين جميعا : وهذا التكريم لـــه مظاهر شتى نذكر منها :

١- حسن وجمال الخلق عن كثير من المخلوقات . ونصوص القرآن واضحة الدلالة في هذا . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (١) ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢) ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وإذا كان كثيرون قد ركزوا على جمال البنيان وقارنوا بين صورة الإنسان وصورة غيره من المخلوقات الأخرى ، فقد فاتهم صور من الجمال لم يهتموا بها وأخصها بالذكر (العقل) وهو مناط الجمال الحقيقي في الإنسان ، وكم من دميم الهيئة مشوه الخلقة ، مميز العقل راجح الفكر ثاقب الرأي ، قد زينه العلم ورفعه الحلم، فما ضره طول ولا قصر ولا شلل ولا فقد بصر .

ومن مناط الجمال (البيان) وهو من نعم الله على الإنسان ، قال تعالى :
﴿ الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (٤) .
﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٥) .

وقد فاوت الحق بين الخلق في هذه الخاصية ، حتى إن أحدهم ليأخذ بالعقول والقلوب إذا تكلم ، وفي الحديث " إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا " (٦) وفي الأثر بحق شعيب أنه " خطيب الأنبياء " (٧) ومما ذكره الرسول ﷺ بحق نفسه قوله " أوتيت جوامع الكلم " (٨) وذكر أنه من قريش (بيد أني أفصحهم) .

---

(١) الأنفطار (٦ — ٨) .
(٢) التين (٣) .
(٣) غافر (٦٤) .
(٤) الرحمن (١ — ٤) .
(٥) البلد (٨ — ١٠) .
(٦) البخارى ٥ صـ ١٩٧٦ رقم ٤٨٥١ .
(٧) المستدرك على الصحيحين ٢ / ٦٢٠ رقم ٤٠٧١ .
(٨) صحيح مسلم ١ / ٣٧٢ رقم ٥٢٣ .

ومن مناط الجمال بالإنسان (تركيب وسائل المعرفة فيه وقيامها به) فليس الإنسان آلة صماء ، تحركها الرياح أو الأمواج أو التيارات الكهربائية بل قامت به آلات شتى منها ذاتى العمل بقدرة الله ، وهو ما لا تصح الحياة إلا به ، كالقلب والكلى والجهاز الهضمى والتنفسى .

ومنها ما يتحكم الإنسان فى حركته ، وقد وضع الإسلام آدابا له عند الانتفاع بها ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

مع النص على مسئولية الإنسان عن استخدام هذه الآلات وحثه على حسن الانتفاع بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٢) .

ومن مناط الجمال فى الإنسان (الإرادة المغروسة فيه) والإنعام عليه بنعمة (الأمل)

فالإنسان يختلف عن غيره بالقدرة على الاختيار بين البدائل ، ويصل ذلك الأمر إلى حد الاختيار فى الاعتقاد ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٣) . ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٤) إن السموات والأرض قد انقادتا لله بالاختيار إبتداءً ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٥) ثم فطرهما على الالتزام بهذا الانقياد لا تحيدا عنه ولا تميدا ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (٧) ، " ولابد . فى الإسلام من ضبط الإرادة لتنتقل فى تحديد مسئولياتها الاجتماعية ، فعنها ينشأ

---

(١) النحل (٧٨) . (٢) الإسراء (٣٦) .

(٣) الكهف (٢٩) . (٤) الشورى (٢٠) .

(٥) فصلت (١١) . (٦) يس (٤٠) .

(٧) النحل (١٢) .

الضمير الحي الواعي الذي يرسم السبيل الواضحة لمن أراد لنفسه الهدى ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (١) وكما قال عليه السلام " لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا " (٢) .

وتعين الإرادة على الانضباط ، عباداتُ الإسلام المفروضة على المؤمن بمعانيها الاجتماعية التي تعود النفوس على الخير ، وتوطنها على أحسن الأعمال والأخلاق .

ففي الصلاة ضبط للوقت يصرف الإرادة عن الاشتغال باللهو والعبث وبهذا نطقت الآية : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (٣) وفي الصيام تحكم في شهوات الطعام وغرائز الجنس ، والقدرة على اتخاذ القرار ، وفي الزكاة ضبط لشهوات المال وتذكير بحق الفقير على المجتمع ، وفي الحج تحمل لمشاق السفر ورغبة في التطهير من الذنوب والآثام فلا غرو إذا كانت الإرادة هي الفارق الحاسم بين الإنسان والحيوان ومناط المسئولية للفرد والمجتمع في نظر الإسلام . (٤)

وأما الأمل فهو باعث على العمل ودافع إلى الاعمار ولولا الأمل ما ذاكر طالب ولا سافر راغب ولا اجتهد متطلع ولا شقي عامل ولا صبرت امرأة على رضاع وفطام ورعاية .

إن رسول الله ﷺ صرح بأن الأمل من خير النعم وفي الحديث " لله على عباده نعمتان : نعمة الأمل ونعمة النسيان " . (٥)

---

(١) المزمل (١٩) .

(٢) سنن الترمذي ٤ / ٣٤٦ رقم ٢٠٠٧ .

(٣) النساء (١٠٣) .

(٤) صبحي الصالح النظم الإسلامية ٤٤٠ .

(٥) تاريخ ابن عساكر ٣ / ٧٩ .

٢- خلقه بيدى اللـــه :

وهـــى خصوصية لم يشرف بالإضافة فيها ليدى اللـــه غير الإنسان في القرآن قـــال تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾[(١)] .

وإضـــافة الخلق إلى يدى الرحمن فيه من الخصوصية ما لا يعلمه إلا اللـــه وفيه مـــن التكريم ما تذهب النفس فيه كل مذهب ، ومن أوّل اليد بأنها القدرة فقد وَهِم ، وما استعصى على إبليس أن يقول : وأنا كذلك بقدرتك ، ولَمّا كان لآدم فضل على غيره في هذه الإضافة أو هذا التخصيص .

وأما الخوض في حقيقة اليد ، فهو مما نـــهينا عنه ، وفي الحديث " تفكروا في خلـــق اللــــه ولا تفكروا في ذات اللـــه "[(٢)] وهناك روايات خمس غير هذه الرواية ذكرها السيوطى في الجامع الصغير وقال المناوى في فيض القدير . قال السخاوى هذا الأحاديث أسانيدها كلها ضعيفة لكن اجتماعها يكسب قوة .

٣- إعلاء شأن الإنسان منذ الخلق الأول لـــه :

وقـــد تجلـــى هذا الإعلاء في خلق الأرض وتهيئتها على خير ما تكون التهيئة لـــسكنى الإنسان ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[(٣)] .

كمـــا أعلم الملائكة بـــهذا المخلوق الجديد ، وأضفى عليه صفة الخلافة وهى صفة لم تعط لغير الإنسان ، وقد ذهب البعض إلى أنها خلافة عن الجن الذين كانوا يسكنون

---

(١) ص (٧٥) .

(٢) إتحاف السادة المتقين ١٠ / ١٨٠ .

(٣) فصلت(١٠) .

الأرض قبل الإنسان ، وقيل خلافة عن أوادم سابقة على آدمنا ، معتمدين على آثار لم ترق إلى درجة الصحة وقيل خلافة عن الملائكة .

والصواب - والله أعلم - أنها خلافة في الملك عن الله ، كمن ينشأ مؤسسة ويجتهد بإدارتها إلى هذا أو ذاك ، فهو المسئول في الظاهر والقادر على اتخاذ القرارات ، ولكنه في الحقيقة لا يملك من أمر المؤسسة شيئاً .

هكذا الإنسان : الأرض ملك لله بمفهوم الملك بالمعنى الحقيقي - أي الثابت الدائم الذي لا يتغير - والإنسان يملك ملكا نسبيا فهو يتصرف فيما يملك في حدود الشرع - إن كان مسلماً - أو كما يحلو له إن كان على غير الإسلام ، وكله ملك إلى حين ، ولذلك ذكر القرآن هذه الحقيقة ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[2].

إن الحق سبحانه لم يصف أحداً من خلقه بالخلافة سوى الإنسان فهل يعي الإنسان هذا الوصف حتى يصل إلى مراد الشرع منه .

٤- إسجاد الملائكة له :

ولم يرد في القرآن سجود الملائكة لغير الله ، ومن أمرهم الله بالسجود له ، وسواء أكان السجود سجود تحية وتقدير على ما عرفه العرب من لغتهم وما ألفوه من سلوكهم ، وبه ورد النص في القرآن ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[3] أم كان السجود حقيقياً فلا مانع ، فالعبرة بالأمر الإلهي ، وقد طرد إبليس من الجنة وقيل طرده من زمرة الملائكة بسبب امتناعه عن السجود لآدم ورفضه الأمر الإلهي ، ورغم المبررات التي قدمها والعلل التي تعلل بها ، فإنها لم تسقط عنه

---

(١) الحديد (٧) .

(٢) الأنعام (١٦٥) .

(٣) يوسف (١٠٠) .

عقـوبة الامتناع عن السجود لآدم ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] .

٥- خلق الأشياء لأجلـه وخلقه للعبادة :

ونـصوص القـرآن في هـذا الصدد كثيرة ، قـال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [2] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [3] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [4] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [5] .

ودعـا الإنـسان إلى الانتفاع بهذا التسخير وبخاصة الأرض ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [6] .

---

(١) الأعراف (١٨) .

(٢) البقرة (٢٩) .

(٣) الجاثية (١٣) .

(٤) إبراهيم (٣٢ — ٣٤) .

(٥) النحل (١٤ ، ١٥) .

(٦) الملك (١٥) .

إن آيات التسخير قد تناولت البر والبحر والجو بكل ما في هذه الأقسام من مفردات ، مع التصريح بأن التسخير للإنسان وليس للمسلمين وحدهم ، وفيه لفت نظر المسلمين إلى التماس أسباب الرقي في هذه الحياة دون الاتكال على الدين وترك الأخذ بالأسباب .

٦- إكرام جسد الإنسان حال حياته وبعد مماته :

فكل الكائنات الحية لا تخضع لما يخضع لـه الإنسان من إكرام ، بل منها ما يذبح ويؤكل ومنها ما يلقى في الخلاء والعراء وعلى شواطئ الترع .. الخ .

وأما الإنسان فجسده محل احترام وتقدير حال الحياة وبعد الممات فلا يجوز التمثيل به ولا القتل صبرا ولا كسر جزء منه ولا التشهير بالجسد ، بل دفنه فرض كفاية في الإسلام ، وإن كان الميت على غير الإسلام حتى لا تأكلـه السباع أو تنهشه الذئاب

ويتلطف في مواراة جسده التراب فلا عنف ولا حدة ولا قسوة ، حتى لا يصاب الجسد بأذى ، وفي الحديث " كسر عظم الميت ككسره حيا "[1] وفي الفكر الإسلامي (حرمة الإنسان ميتا كحرمته حيا) .

ولا تزال بعض المعتقدات الموجودة الآن تحرق الإنسان بعد وفاته على مرأى ومسمع من أجهزة الإعلام العالمية .

ولا تزال الدول التي تدعي حقوق الإنسان وتطالب بها من أكبر مصادر التجارة بالأعضاء البشرية وفي أمريكا بخاصة يمكن شراء كافة قطع الغيار البشرى التي يمكن نقلها للإنسان دون اعتبار لآدميته .

٧- إسقاط خطيئة آدم عن الإنسان :

فالناس في الإسلام يولدون بلا خطيئة ، ودعوى إرث الخطيئة باطلة في الشريعة الإسلامية ، لأن آدم - عليه السلام - قد تلقى من ربه كلمات قالها ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2] .

---

(١) ابن حبان ٧ / ٤٢ رقم ٣١٦٧ وأبو داود ٣ / ٢١٢ رقم ٣٢٠٧ .

(٢) البقرة (٣٧) .

ومعاصي الآباء في شريعة الإسلام لا تكسب الأبناء الوصف بالمعصية ، بل إن الـولادة بـلا خطيئة لتشمل من وُلدَ على أثر لقاء غير شرعي ، لأنه لا دخل لـه في سـلوك أبويه ، ولا يقام الحد على أمه حتى تتم الرضاعة ويكون فطامه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴾ (١).

وأمـا ما ذهب إليه اليهود من معصية آدم دون النص على توبته ، وما ذهب إليه النصارى من معصية آدم مع إرث بنيه لذنبه فالإسلام قد أبطلـه .

وكمـا أسقط الإسلام إرث الخطيئة الجدية عن الإنسانية فإنه قد أسقطه عن المـرأة ، بخاصـة ما تردد في الفكر اليهودي من كون المرأة مصدراً للشرور والآثام ، حـيث حمّلـتها التوراة المزعومة سبب الغواية (المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت) (٢) هكذا يدعون قول آدم لربه .

وبعـض علماء المسلمين يرى أن الإنسان يولد مفطوراً على الخير . والشر في حياته مكتسب أخذا من قولـه تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٣) .

ومـن جمال الشريعة الإسلامية أنها وإن أسقطت الخطيئة الجدية عن الأبناء ، ولم تحمّـل ولداً شيئاً من ذنب والديه ، إلا أنها في نفس الوقت قد جعلت للأبناء من صـلاح الآباء الشيء الكثير ، قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٤) .

---

(١) سورة فاطر من الآية (١٨) .

(٢) سفر التكوين ٣ / ١٢ .

(٣) الروم (٣٠) .

(٤) النساء (٩) .

وذكر القرآن أن الخضر عليه السلام قد أقام الجدار لغلامين يتيمين في المدينة دون أن يأخذ أجراً ، وكان باعثه على هذا العمل صلاح الآباء ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [1].

إنه التحرير من إرث الخطيئة وحث وحمل الإنسان على فعل الصالحات .

٨- إسقاط معتقدات الجاهلية الدموية : وإبطال النزعات الدينية العنصرية

فمع وجود معتقدات شتى إلا أن الكثير منها يرى أفضلية جنس على جنس ولون على لون ونوع على نوع ، رأينا ذلك واضحاً في زعم اليهود والنصارى ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [2] بل تجاوز الأمر إلى حد الادعاء بخصوصية الجنة بهم دون سواهم ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [3].

أن البشرية لم تعرف المساواة في الماضي ، فالفرس قسمت المجتمع إلى طبقات أعلاها كسرى وبنوه وأدناها طبقة المنبوذين وبينهما رجال القضاء والجيش ، والروم عرفت الطبقية على أساس من الدين ، فللقساوسة من المنزلة ما ليس لغيرهم ، والصراع بين سلطة رجال الدين ورجال الحكم استمر حتى حركة مارتن لوثر في القرن السادس عشر ، وانتهى باقتسام السلطة ، فللسياسة أهلها ورجالها ، وللدين رجاله ، عملا بالنص " أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله " وفي العصر الحاضر مع زعم العالم الغربي أنه متحضر ورائد الحرية وراعي الديمقراطية إلا أن الواقع المعاصر يكذبه ،

فأمريكا تفاوت بين الناس على أساس من اللون (سود وبيض) ومن الدين (مسلم وغير مسلم) ومن الغنى والفقر ، ومن المكان (شمال وجنوب)

---

(١) الكهف (٨٢) .　　(٢) المائدة (١٨) .

(٣) البقرة (١١١) .

كما تفاوت في التعامل على أساس من المصلحة فهي تغض الطرف عن كافة الجرائم الصادرة من دول أو حكام تربطها بهم مصلحة ، وتختلق الأسباب لإدانة هذا وذلك لأجل المصلحة.

ومجلس الأمن _ كما يفترض فيه _ أصبح مجلس الرعب بالنسبة للعالم الإسلامي ، حتى إن الدول الإسلامية تتخوف وتخاف من طرح المشاكل المختلفة بحقها على مجلس الأمن لأنها تعلم مسبقا أنه مجلس لا يعرف العدل ولا المساواة بين الناس فكل القرارات التي صدرت بحق العرب والمسلمين نفذت بالإكراه والبطش والتدمير والخراب ، وكل القرارات التي صدرت بحق إسرائيل لم ينفذ منها قرار واحد حتى الآن .

ودم اليهود حرام ودم العرب والمسلمين مستباح ، وصيانة مال وعرض ودين اليهود فرض وإهدار دين ودم وعرض المسلمين في أفغانستان والعراق وفلسطين والبوسنة والهرسك مباح .

ونزعة السامية قد عادت بقوة ، وصدرت قوانين توجب تقديسها وتجرم قادحيها كما أن نزعة الآرية قد سادت كذلك ، ورأينا من الأوربيين والأمريكيين من يصف العرب والمسلمين بصفات الحيوان وعدم استحقاق العيش ويطالب بإبادتهم هذا على المستوى السياسي .

وأما على المستوى الديني فقد صرح الإسلام باتحاد البشرية في المنشأ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [1] ، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [2] .

وفي الحديث " الناس بنو آدم وآدم من تراب " [3] ، " الناس كأسنان المشط " [4]

---

(١) الأعراف (١٨٩) . (٢) الزمر (٦) .

(٣) سنن الترمذي ٥ / ٧٣٥ رقم ٣٩٥٦ . (٤) مسند الشهاب ١ / ١٤٥ رقم ١٩٥ .

وصرح الإسلام باستواء الرجل مع المرأة فى التكاليف الشرعية ، وصيغ الخطاب للرجل والمرأة سواء ، وإن ورد الخطاب بلفظ التذكير كثيرا فى القرآن ، فهذا هو أصل الخطاب فى لغة العرب ، والتأنيث فرع عن التذكير ولذلك جعلوا علامة تدل عليه .

وأحيانا يرد الخطاب جامعا بين التذكير والتأنيث كما فى قوله تعالى : ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [1] ، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [2] وأسلوب التكريم جاء شاملا النوعين (الذكر والأنثى) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [3] .

وكما امتدح الله بعض الرجال فقد امتدح بعض النساء ، والمنع من النبوة — خلافا للظاهرية — والرسالة ، لا يعنى إسقاط المنزلة أو المكانة ، فحظ المرأة من دعوة الرسل كحظ الرجل ، والنبوة ذاتها اصطفاء ومشقة وإسقاطها تخفيف ورحمة عن جنس النساء دون إسقاط لازم العلم بها .

وكم ورد فى السنة الثناء على من التزم من النوعين وفى الحديث " ألا لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى " [4] .

---

(١) آل عمران (١٩٥) .

(٢) الأحزاب (٣٥) .

(٣) الإسراء (٧٠) .

(٤) مسند أحمد ٥ / ٤١١ رقم ٢٣٥٣٦ زوائد الهيثمى ٥١ جـ ١ صـ ١٩٣ .

لقــد أكــرم الإسلام الإنسان بعامة والمرأة بخاصة فحال دون وأدها وجعل التبكير دليل اليُمْن وجعل تأديبها وتعليمها وكفالتها من موجبات الجنة ، وجعل لــها حقا فى الإرث والنفقة واختيار الزوج والتصرفات المالية وحق فسخ الحياة الزوجية إذا تعــذرت العــشرة من وجهة نظرها على أن تتحمل ثمن الفسخ بتعويض الرجل عن الــضرر الذى يلحقه كما أنه يعوضها عن الضرر الذى يلحقها ، إذا كان الطلاق من قبلــه وفى غير نشوز منها ...

ويمكــن القول : إن النظم الإسلامية إنما هى لصالح الإنسان وحده وإن انتفع بهــا الجن بناءً على تكليفه — وانتفع بها الطير والحيوان ، بناءً على كون الإسلام دين رحمة ، إلا أن المنوط به الخطاب ابتداءً والمكلف بــحمل هذا الخطاب والعمل به هو الإنسان ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[1] .

۞۞۞

---

(١) الأحزاب (٧٢) .

مدى اهتمام الإسلام بالإنسان

تختص الشريعة الإسلامية برعاية الإنسان بصورة لم تعرفها البشرية في الماضي والحاضر ، ويمكن بيان هذا الإهتمام في الجوانب الآتية :

١- الاهتمام بالإنسان قبل وجوده وبعد مماته .

٢- الاهتمام به في مراحل حياته المختلفة .

٣- الاهتمام به جسداً وروحاً .

٤- الاهتمام به غرائز وعواطف .

٥- الاهتمام به مفكراً .

٦- الاهتمام به فرداً وأسرة ومجتمعاً .

ويمكن إيضاح ذلك فيما يلي :

أولاً : الاهتمام بالإنسان قبل وجوده وبعد مماته .

حث الشريعة الإسلامية على حسن اختيار تربة الإنبات وحسن اختيار البذر، حتى يخرج النبت طيباً ، قال تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [١] وصرح بوجوب حسن الاختيار ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [٢]

وأشار إلى ميل الطيبين للطيبات والطيبات للطيبين ، والمراد بالطيب هنا المعنى المطلق دون الاقتصار على معنى محدد ، والرسول ﷺ قد حث على ذلك ، وفي الحديث **" ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل "[٣] ، " فاظفر بذات الدين تربت يداك "[٤]** ،

---

(١) الأعراف (٥٨) .

(٢) النور (٣٢) .

(٣) ابن ماجة ١٨٤٩ ، مسند منصور ٥٠٥ .

(٤) البخاري ٥ / ١٩٥٨ رقم ٨٠٢ ، مسلم ٢ / ١٠٨٦ رقم ١٤٦٦ .

" ما استفاد المؤمن بعد تقوى اللــه خيراً لــه من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها ومالــه " (١) .

وكمـا حث الإسلام الرجال على اختيار الزوجة الصالحة باعتبار المرأة تربة الإنبات فقد حذرهم من الميل إلى ذات الطابع السيئ والخُلُق الردئ والبيئة الآثنة ، وفى الحــديث " إياكم وخضراء الدمَن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول اللــه ، قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء " (٢) .

ولم يهمــل الإســلام النصيحة إلى ولى أمر المرأة وإلى المرأة نفسها فى التركيز على الرجل الصالح ، وفى الحديث : " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير " (٣) .

والفكــر الإســلامى قد تأثر بهذه النصوص ، وتواصى اللاحقون بما تواصى به الــسابقون ، مــن الحرص على اختيار الصالح رجلا كان أو امرأة ، والتركيز على المرأة الصالحة أشد فى الفكر الإسلامى من التركيز على الرجل الصالح ، وفى هذا يقول الرصافى:

ولم أر للخــــلائق من محل	مثل حضـــــن الأمـــهات
فحضن الأم مدرسـة تسامت	بتربية البنـــين والبنات
وليس ربيب عاليـة المـزايا	كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبـت فى جنان	كمـثل النبت ينبت فى فلاة

وإذا كــان العلمــاء بالطب قد نادَوْا ببعض الإجراءات الواجبة الاتباع قبل الــزواج طلبا لسلامة الجنين ورعاية لــه ، فإن الإسلام لا يعارض العلم ، بل إن مثل ذلــك قــد وردت الإشــارة إليه فى قول عمر ﷺ " **اغتربوا لا تَضْوُوا** " دعوة إلى تقديم الزواج من الأجانب على الزواج من الأقارب حتى لا يأتى النسل ضعيفا هزيلاً .

---

(١) سنن ابن ماجه ١ / ٥٩٦ رقم ١٨٥٧ .

(٢) مسند الشهاب ٢ / ٥٦ رقم ٩٥٧ .

(٣) الترمذى ٣ / ٣٩٥ رقم ١٠٨٥ .

اهتمام الإسلام بالإنسان بعد وفاته

المُتوفى في ديار الإسلام إما أن يكون مسلماً أو غير مسلم، إن كان مسلما وجب لـه على المسلمين غسلـه وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وجوبا كفائيا ويكون عينيـا إذا لم يحضر المتوفى إلا فرد أو عدد محدد ، كما يجب سداد الدين عنه ويتحمل ذلك ورثته أخذا بقاعدة الغرم بالغنم .

ويغسلـه الأقارب للستر ويكفن فيما يستر سائر جسده ويصلى عليه واحد علـى الأقـل وكلمـا زاد العدد كان أرجى للشفاعة ويقبر حتى لا تنهشه السباع أو تتخطفه الطير .

ويلحق بتكريم الميت بعد وفاته الاستغفار لـه وإنفاذ وصيته وذكره بكل خير وحرمة ذكره بسوء ، وفـي الحديث "اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عـن مساويهم "[١] ومن القواعد المقررة عند المسلمين " حرمة الإنسان ميتا كحرمته حياً " .

ويحـرم سـب الميت ولعنه وذكر معايبه ولو كانت كبيرة من الكبائر ، وقد امتدح اللـه الخلف وأثنى على موقفهم من السلف ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] .

وإذا كان الميت على غير الإسلام فإن أهلـه يتولون أمره بحسب طقوسهم في إطـار الحرية الدينية التي كفلـها الإسلام لـهم ، فإن لم يوجد من أهلـه من يقوم بذلك وجب على المسلمين دفنه مع ستر جسده دون غسلـه والصلاة عليه .

وفي مـيدان القتال يتولى المسلمون دفن قتلاهم حسب الشريعة الإسلامية بحق الـشهداء ، ويجب عليهم مواراة جسد المشركين التراب إن لم يل ذلك أهلوهم ، كما حدث في غزوة بدر وبني قريظة .

---

(١) المستدرك ١ / ٥٤٢ رقم ١٤٢١ .

(٢) الحشر (١٠) .

ثانياً : اهتمام الإسلام بالإنسان في مراحل حياته المختلفة :

نظـرة الإسـلام إلى الإنـسان تقوم على أساس تقديره من اللحظات الأولى لتكوينه حتى ملاقاته لربه ، ويمكن بيان ذلك بإيجاز على النحو التالى :

١- رعاية الإنسان وهو جنين :

وإطلاق كلمة الإنسان عليه من باب التوسع وقد صرح الإسلام بحرمة الجنين وحرمة قتلـه واحترامه ما دامت فيه الحياة ، وجعل فى قتلـه عِوَضاً ، ويرحم اللـه الإمـام الغزالى حين نص على أن كل مرحلة من مراحل التكوين تعد طوراً من أطوار الإنسان وهى مبينة على بعضها .

وإذا كـان بعـض المعاصرين قد أباح الإجهاض لاعتبارات خاصة قبل أربعة أشـهر من الحمل بزعم عدم نفخ الروح فيه ، فإن ما ذهبوا إليه لا دليل لـهم عليه ، وهو يعتمد على إطلاق العَنان للعقل دون مراعاة للنص .

إن اللـه رتب الأطوار على بعضها ، وكل مرحلة تؤدى إلى الأخرى إذا قدّر اللـه الحياة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [١] .

وفى الحديث " إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يـوماً علقـة ثم أربعين يوماً مضغة ثم يترل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب عمره ورزقه وشقى أو سعيد " [٢] .

وإذا كانـت الروح التى تلقى هى الروح الإنسانية فإن الحيوان المنوى كائن حـى ، ولا يخصب البويضة إلا أقواها - أى الحيوانات المنوية - حياة وقوة ونشاطاً ،

---

(١) المؤمنون (١٢ - ١٤) .

(٢) البخارى ٣ / ١١٧٤ رقم ٣٠٣٦ ومسلم ٤ / ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣ .

وبحياته القائمة به ينمو ويزداد ويتحول من حالة إلى أخرى ، يسمي البعض الحياة في هذه المرحلة بالحياة الحيوانية ، ثم تنفخ فيه الروح الإنسانية بعد المدة المحددة .

والإسلام أشار إلى أن الحمل ابتداءً - والنوع تبعاً - هبة من الله ، وأن مدد النوع إلى ماء الرجل وليس للمرأة أدنى نصيب فيه ، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1] . وأن مرد النوع إلى ماء الرجل وليس للمرأة أدنى نصيب فيه ، قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾[2] .

كما ورد ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[3] وذلك كله وفق علم الله وحكمته ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[4] .

وفي القرآن إشارة ضمنية إلى مدة الحمل من حيث القلة دون تحديد للكثرة قال تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾[5] والحمل معروف والفصال هو الرضاعة ، وفي آية أخرى ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾[6] فصار أقل الحمل ستة أشهر .

ولا يجوز الإجهاض إلا في حالة واحدة : إذا تعارضت حياة الجنين مع حياة أمه وتعذر تحقيق السلامة للاثنين معاً جاز الإجهاض لأن الأم سبب في وجود الولد فلا يكون الولد سببا في عدمها .

---

(١) الشورى (٤٩ ، ٥٠) .
(٢) القيامة (٣٧) .
(٣) النجم (٤٥ ، ٤٦) .
(٤) الرعد (٨) .
(٥) الأحقاف (١٥) .
(٦) لقمان (١٤) .

إن بعض السيدات المسلمات يمارسن عملية الإجهاض على اثر الانحراف الذى يقعـن فيه ، مع أن رسول اللـه ﷺ منع إقامة الحد على المرأة المقرة بالزنا حتى تضع المحمـول به ، فلما جاءت به وليداً قال لـها : اذهبى حتى تفطميه ، فأتت به وفى يده كسرة فالقى به إلى أهلـها وأقام عليها الحد .(١)

ومن النساء المسلمات من يجرين أشعة تليفزيونية (سونار) لمعرفة النوع طلبا للولد الذكر ، فإذا تأكد لـهن أن المحمول به أنثى قامت بالإجهاض ، ومن النساء من يقمن بالإجهاض لأنهن لا يرغبن فى إضاعة جمالـهن أو يرغبن فى عدم الارتباط بأولاد من هذا الرجل أو ذاك لأن الزواج فى أصلـه تجارى وأحيانا يكون الإجهاض بدعوى كثرة الولد أو الحمل غير مرغوب فيه ، كل ذلك يعد قتلا شرعيا ، يندرج فاعلـه فى عـداد قولـه تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٢) فـإذا كانت الولادة فقد حرم الإسلام عادة كانـت متبعة عـند بعض العرب وهى المخاض على حافة بئر أو حفرة ، فإذا كان المولود ذكرا تم استبقاؤه وإن كانت أنثى تم دفنها حية ، خوفا من العار الذى يمكن أن تجلبـه حين تكبر أو خوفا من الفقر المتوقع ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣) ، وقـد حرم اللـه ذلك صراحة فى آيات عدة منها قولـه : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (٤) وفى سورة الإسراء ورد قول الحق ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ

---

(١) انظر مسلم ٣ / ١٣٢٣ رقم ١٦٩٥ .
(٢) النساء (٩٣) .
(٣) النحل (٥٨ ، ٥٩) .
(٤) الأنعام (١٥١) .

وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [١] وصرح بأن ذلك محل مساءلة ، فالأبوة والأمومة لا تكسب حق الوأد ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [٢] .

بل إن الإسلام قد خالف تقاليد الجاهلية ، فبينما الذكورية في الولد هي الحلم والأمل لدى العرب ، فقد جعل الإسلام التبكير بأنثى من علامات التيامن وفي الحديث " من يمن المرأة أن يكون بكرها جارية "[٣] .

وصرح الرسول ﷺ بأن " من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه " [٤] وأشار إلى السبابة والتي تليها .

وقد انقلبت المفاهيم لدى العرب بعد إتباعهم للإسلام ، وغيروا نظرتهم للمرأة بعد الاحتقار والازدراء ، وها هو القاسمي يفصل القول في هذا في محاسن التأويل [٥].

ولم يتوقف الإسلام عند حد الدعوة إلى الرضى عن النوع بل جعل له حقا على والديه ، فحمل الرجل مسئوليته الاجتماعية تجاه ولده وحمل المرأة مسئوليتها الأدبية والاجتماعية تجاه ولدها ، يجمع ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [٦] .

---

(١) الإسراء (٣٠) .

(٢) التكوير (٨ ، ٩) .

(٣) عدى ٦ / ٢٣٠٣ .

(٤) مسلم ٤ / ٢٠٢٧ رقم ٢٦٣١ .

(٥) محاسن التأويل للقاسمي .

(٦) البقرة (٢٣٣) .

ويدعـو الإسلام الوالدين إلى تسمية المولود بما يستحسن ولا يجوز تسميته بما يستحى منه أو يستقبح إذا بلغ أشده ، وفى الحديث " حسنوا أسماءكم فإنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم "[1] ، " والغلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق رأسه ويسمى يوم السابع "[2] .

وكـان ﷺ يغير كل اسم قبيح أو يتطير به أو يتشاءم منه إلى ما يحسن النداء به، كالحسن والحسين وبرة ومفازة ... الخ .

كمـا أوجب الإسلام العدل بين الأولاد فى المعاملة الحسنة ، وفى الحديث " اعدلوا بين أولادكم "[3] .

والرفق بالأطفال من سنة الرسول ﷺ فقد كان الحسن والحسين يرتحلانه وهو سـاجد ، وقد أطال السجود مرة حتى نزلا ، وسئل عن سبب الإطالة فقال : إن ابنى ارتحلانى فخشيت أن أعجلـهما "[4] وكان يقبلـهما ، وعندما أنكر عليه الأقرع بن حـابس ذلـك قـائلا لـه : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، قال لـه الرسول ﷺ أو ما أملك وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم "[5] .

وفى السـنوات الأخـيرة يتـصرف أولياء الأمور تصرفا لم يعرفه المسلمون الأولـون، حـيث يلقى المولود بين يدى حاضنته أو مربيته أو يدفع به إلى مؤسسات اجتماعـية وتعـزف الأم عـن إرضاعه حرصا علـى رشاقتها وجمالـها أو طلبا للسلامة فى صحتها .لقد كانت الغاية من ذلك مصلحة الولد فى الماضى .

---

(١) ابن عساكر ٧ / ٣٠٩ تذكرة ٢٢٤ .

(٢) المستدرك ٤ / ٢٦٤ رقم ٧٥٨٧ .

(٣) البخارى ٢ / ٩١٣ رقم ١١ .

(٤) البيهقى ٢ / ٢٦٣ وابن عساكر ٤ / ٣٢٠ .

(٥) مسلم ٢٣١٧ جـ ٤ صـ ١٨٠٨ .

كمـا أن عاطفة الأبوة يحرم منها كثيرون بسبب الإعراض أو الفهم القاصر لحقـوق البـنوة كالاقتـصار على الطعام والشراب والكسوة والسكن دون العطف والحنان .

ولـهـذا قابـل الأبنـاء جفاء الآباء بعقوق الوالدين ، فكان السب والشتم والضرب والقتل ... الخ .

إن اهـتمام الإسـلام بالإنسان ليس قاصرا على رحلة الطفولة ، بل أشار الإسـلام إلى المـراحل السنية المختلفة للإنسان وما يتعلق بكل مرحلة ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [1] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [2] .

كما ورد فى القرآن الإشارة إلى الطفل والشاب والفتى والشيخ والكهل ، وفى السنة النبوية الشريفة مثل ذلك وزيادة مع الوصية بطاعة اللـه فى كل مرحلة من هذه المراحل .

۞۞۞

(١) الروم (٥٤) .

(٢) الحج (٥) .

ثالثاً : الاهتمام بالإنسان جسداً وروحاً في الإسلام

الإنسان مكون من شق مادى محسوس هو الجسد وسر خفىّ به حياة الجسد هو الروح . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[١] ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾[٢] أى الجسد والروح .

وقد حرص الإسلام على تحقيق التوازن بين الجسد والروح كما حرص على أن لا يخرج الإنسان عن إنسانيته إلى الملائكة أو البهيمية ، وبيان ذلك فيما يلى :

العناية بالجسد : تتجلى رعاية الإسلام وعنايته بالجسد فى النقاط التالية :

١- وجوب تناول الطعام والشراب لتغذية الجسد وتنميته قال تعالى : ﴿ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[٤] وفى الحديث " كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة "[٥] .

٢- يحرم تناول كل ما يؤذى الجسد إلا للضرورة ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[٦] وقد ذكر القرآن بعض الخبائث فى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[٧] وقد ثبت من طريق العلم ضرر كل ما حرمه الإسلام من هذه الأطعمة .

---

(١) الحجر (٢٩) . (٢) الأعراف (٥٤) .

(٣) الأعراف (٣١) . (٤) البقرة (١٧٢) .

(٥) البخاري جـ ٥ / ٢١٨١ رقم ٨٠ . (٦) الأعراف (١٥٧) .

(٧) المائدة (٣) .

٣- وكما حرم الإسلام الأطعمة الفاسدة لضررها بالجسد حرم الأشربة الفاسدة لضررها بالجسد وبخير ما فيه كالعقل والقلب والكبد ، ولهذا ورد النص ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] .

وقد ورد في السنة تحريم كل مسكر ومفتر ، وفي الحديث "ما أسكر كثيره فقليله حرام "[2]، " كل مسكر خمر وكل خمر حرام "[3] .

٤- أوجب الإسلام العمل بقاعدة الوقاية خير من العلاج وهو أوضح ما يكون في نهى الرسول ﷺ عن النزول في مواطن العدوى ، أو الخروج منها بعد حلول المرض المعدى بها ، كما ورد بحق الطاعون " إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه وإذا نزل بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه "[4]

وقد سلك عمر مسلكا عمليا حين علم بالطاعون في بلاد الشام فاستشار كبار الصحابة ، فأشار بعضهم بالإقدام وبعضهم بالإحجام فأحجم عمر عن دخول هذه الأرض ، فقال له أحد الحاضرين أفرارًا من قدر الله يا عمر ؟ قال عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله .

٥- وعملا بقاعدة الوقاية خير من العلاج ، أوجب الإسلام النظافة بما لم يعرفه دين على وجه الأرض ولا تعرفه أمة من الأمم وإلا فأين الأمة - من غير المسلمين - التي يغسل الإنسان فيها وجهه خمس عشرة مرة في اليوم الواحد ومثل ذلك اليدين والرجلين فضلاً عن المضمضة والاستنثار .

---

(١) المائدة (٩٠) .

(٢) ابن حبان ١٢ / ١٩٢ رقم ٥٣٧٠ والمستدرك ٣ / ٤٦٦ رقم ٥٧٤٨ .

(٣) مسلم جـ ٣ صـ ١٥٨٥ رقم ٢٠٠٣ .

(٤) صحيح البخاري ٥ / ٢١٦٣ رقم ٥٣٩٧ .

أيـن الدين الذى يوجب الغسل حينا ويسنه أحيانا ، مع الجمعة والجماعات والعيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف والغسل من غسل الميت والمجنون والمغمى علـيه إذا أفـاق ولدخول عرفة وللمبيت بـمزدلفة ولدخول المدينة المنورة ، ويلحق بذلك كل اجتماع لجماعة المسلمين فهل لذلك مثيل فى المعتقدات الأخرى ؟

ومـن سلامة الجسد فى الإسلام بناء على نظافته : تقليم الأظافر ونتف الإبط وأخـذ العانـة وترجيل الشعر وتسريحه ولبس الثياب الحسن وغسل البراجم وتخليل الأصـابع وإظهار الإنسان نفسه فى أفضل مظهر وفى الحديث " إن اللـه جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة " [1] وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [2] وقبلـها ورد قول الحق : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [3] .

٦- أوجـب الإسـلام التداوى واشترط أن لا يكون بعوذ للجسد – إلا للـضرورة – وفى الـسنة الكـثير من الأحاديث التى تدعو إلى ذلك ، ورسـول اللـه ﷺ كان يمارس التطبيب لنفسه ، وأحيانا يطببه غيره ، وأمـر الـصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص أن يتطبب عند الحارث بن كلدة – وكان طبيبا نصرانيا...

وفى السنة " إن اللـه لم ينزل داءً إلا وأنزل لـه شفاءً " [4] وفى حديث آخر " تداووا فإن اللـه عز وجل لم يضع داءً إلا وضع لـه دواءً غير داءٍ واحد الهرم" [5]

---

(١) مسلم جـ ١ – ٩٣ رقم ٩١ .

(٢) الأعراف (٣٢) .

(٣) الأعراف (٣١) .

(٤) ابن حبان ١٣ / ٤٢٨ رقم ٦٠٦٤ .

(٥) أبو داود جـ ٤ / صـ ٣ رقم ٢٨٥٥ .

وأشـار ﷺ إلى مـا فيه شفاء للناس في زمنه " الشفاء في ثلاثة : شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنهى أمتي عن الكي " [١] .

وعـندما دخـل رجـل على الرسول ﷺ ثائر الرأس رث الثياب أنكر عليه الرسول ذلك ، وقال : أما وجد هذا شيئا ينقى به ثيابه [٢] ، ودخل آخر في ثياب رثة وهيئة بالية ، فسألـه عليه السلام : هل عندك مال ؟ قال : نعم . قال : من كل المال قد أتاني اللـه ، قال فإذا أتاك الله خيرا فلير عليك نعمة الله وكرامته [٣] .

وكان رسول اللـه ﷺ مضرب المثل في النظافة للجسد والثياب ، بل إنه كان يرجل شعره ويستخدم الطيب ولو قبل الإحرام بقليل وهذا ثابت في صحيح السنة .

ويكفى أن هناك اغتسالات واجبة وأخرى مسنونة تصل إلى عشرين غسلا في جملتها ، فهل يبقى ذلك من درن الجسد شيئا ... ؟ والرياضة البدنية أمر أقره الإسلام، وقـد عرفها العرب قبل البعثة إلا أن الإسلام هذبها وجعلـها مفيدة ، وفي الحديث لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل " [٤] .

وعـرف العرب سباق المشي والجرى ، وقد سابق الرسول ﷺ السيدة عائشة - وهي نحيفة - فسبقته ، فلما تقدم السن وزاد الوزن منها سابقها الرسول فسبقها ، فقال لـها عليه السلام " هذه بتلك " [٥] .

ومـن الرياضة المدعو إليها (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل) .

٧- وكمـا يحرم قتل الجسد من طريق الطعام والشراب فإن قتلـه من طريق العبادة محرم أيضا . قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. ﴾ [٦]

---

(١) البخاري ٥ / ٢١٥١ رقم ٥٣٥٦ .

(٢) جمع الجوامع ٤٢٧٧ .

(٣) المعجم الكبير ١٩ / ٢٧٧ رقم ٦٠٩ .

(٤) ابن حبان ١٠ / ٥٤٤ رقم ٤٦٩٠ والترمذي ٤ / ٢٠٥ رقم ١٧٠٠ .

(٥) ابن حبان ١٠ / ٥٤٥ رقم ٤٦٩١ وأبو داود ٣ / ٢٩ رقم ٢٥٧٨ .

(٦) البقرة من الآية (٢٨٦) .

﴿ .. لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها .. ﴾ [١] ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم .. ﴾ [٢] ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [٣] ؛ ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ [٤] .

والتكاليف الشرعية تحرص على سلامة الجسد لا هلاكه ، وهي متفاوتة بين اليومية والسنوية والعُمْرية (مرة واحدة في العمر) .

وحرم الإسلام الوصال في كل عبادة تودي إلى هلاك الجسد وحسبنا من دليل حديث الرسول ﷺ الذي نهى فيه عن الوصال في الصيام وعندما سئل : إنك تواصل ؟ قال وأيكم مثلي إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني "[٥] .

وعندما جاء ثلاثة نفر إلى بيت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها ، فقال أحدهم : إني أصوم ولا أفطر وقال الثاني " إني أصلي ولا أرقد ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلما بلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ قام خطيبا قائلا : والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني [٦] .

وقد نهى الرسول ﷺ عن الغلو في العبادة ، وفي الحديث " ألا هلك المتنطعون "[٧] ، " إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق "[٨] ، " إن الدين يسر ولن

---

(١) سورة الطلاق من الآية (٧) .
(٢) سورة التغابن من الآية (١٦) .
(٣) البقرة (١٩٥) .
(٤) النساء (٢٩) .
(٥) المعجم الأوسط ٥ / ٣٥٥ رقم ٥٥٣٩ .
(٦) البخاري ٥ / ١٩٤٩ رقم ٤٧٦ .
(٧) صحيح مسلم ٤ / ٢٠٥٥ رقم ٢٦٧٠ .
(٨) البيهقي ٣ / ١٨ رقم ٤٥٢٠ . وأحمد رقم ١٢٥٧٩ .

يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة "[١] ، " إن المُنبتَ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى "[٢] .

وعندما صام رجل فى الحر الشديد حتى أغمى عليه ، وعلم بأمره رسول الله ﷺ قال : " إن الله غنى عن تعذيب هذا لنفسه "[٣] .

ونهى التى نذرت أن تحج ماشية عن الوفاء بنذرها[٤] ، لأنه تحميل للنفس فوق الطاقة ، وفى السُنّة كثير من ذلك .

الاهتمام بالإنسان روحاً :

الروح جوهر لطيف به حياة الإنسان ، وتختلف الروح الإنسانية عن الروح البهيمية والنباتية ، فللإنسان كائن حى منذ كان نطفة ولولا حياة الحيوان المنوى ما استطاع تخصيب البويضة وما تكاثر ولا زاد ولا ازداد ، وهذا قاسم مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات .

ويختص الإنسان عن الحيوان والنبات بالروح الإنسانية التى هى من أسرار الله فى الوجود ، وهى النفخة المباشرة فى الإنسان الأول ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٥] وهى النفخة التى يتولى الملك أمرها فى كل مخلوق قدر له الوجود من بنى آدم . وفى الحديث " إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ... الحديث : البخارى جـ٣/١١٧٤ رقم ٣٠٣٦ " .

---

(١) البخارى ١ / ٢٣ رقم ٣٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) النسائى الإيمان ٤٢ والبيهقى ١٠ / ٧٨ .

(٤) مسند أحمد ١ / ٢٣٩ ، البيهقى ١٠ / ٧٩ .

(٥) الحجر (٢٩) .

وجمهور المسلمين على عدم محسوسية ذاتها مع إدراك آثارها من حيث الحركة والكلام

والـــروح تترع دائما إلى معبود ، وكل إقصاء لـــهذا التروع فيه شقاء لصاحبه ، والعلم بهذا المعبود والتعلق به والاتصال معه يكون من طريق الوحي أو الوضع .

والعلـــم مـــن طـــريق الوحي يكون بإتباع نبي من الأنبياء لم تُصَب رسالته بتحريف أو تصرف ولا يتوفر ذلك إلا في الإسلام .

والعلم من طريق الوضع لـــه مظاهر شتى غير محصورة ، وكلـــها تحقق قدراً مَـــن الإشباع الروحي ، إلا أنها تفضي في النهاية غالبا إلى اليأس لأن تعلق الروح لفترة طـــويلة من الزمن بحجر أو شجرة أو صنم أو وثن أو بقرة أو نجم أو شمس أو قمر أو ثعبان أو أسد أو طوطم ... الخ .يفضي إلى الضيق والتبرم أحيانا ، حيث إنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ولا تسمن ولا تغني من جوع .

كمـــا أنها لم تخاطب عابديها في يوم من الأيام ، فلم ترسل لـــهم رسلا ولم تـــترل عليهم كتبا ولم ترسم لـــهم طريقا للعبادة ، ولذلك ترى أتباع هذه المعبودات حيارى ، وإن تكلفوا الإشباع الروحي من جراء عبادتهم .

منهج الإسلام في تحقيق الغذاء الروحي :

إن تحقيق السعادة للروح يكون من طرق شتى ، أخصها بالذكر ما يلي :

١- العـــبادة : ففـــيها قلـــيل من القيد على الجسد وإطلاق العنان للروح ، وحسبنا أن " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " [1] وأن أداء الركعات مؤذن بفـــتح أبواب السماء للإنسان ، وكأنه بعد القيام والقعود والركوع والسجود قد أذن لـــه بمشاهدة نور ربه ، فهو يلقى السلام قائلا [التحيات لـــله والصلوات والطيبات]

وكـــان الرســـول ﷺ كلما اشتدت به الشدائد فزع إلى ربه عملا بقولـــه تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [2] وكـــان ينادي على بلال قائلا لـــه " أرحنا بـــها يا

---

(١) مسلم ك الصلاة ٢١٥ ، حم ٢ / ٢٤١ .

(٢) البقرة (٤٥) .

بـلال "(١) ومـن أقـوال الصحابة ، كان رسول اللـه ﷺ كلما حذبه أمر فزع إلى الـصلاة – ومن أقوالـه ﷺ " حبب إلى من دنيا كم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة " (٢) وهكذا كان سمو الروح من طريق الصلاة .

وكما أن الصلاة عبادة بدنية روحية فالصيام كذلك ، وفيه تقييد على الجسد وإطلاق العنان للروح ، وحسبنا الحديث القدسي " كل عمل ابن آدم لـه إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به... "(٣) وفيه تشبيه بالملائكة حيث إنها لا تأكل ولا تشرب على سبيل الدوام والاستمرار كما أن فيه التهجد وصلاة التراويح وقراءة القرآن ...

والحج رحلة روحية يختلف وصفها باختلاف شعور مؤديها ، ولو سألت كل حـاج عن هذه الرحلة لأجاب بغير ما أجاب به الآخر ، لأن الشعيرة في ذاتها روحية أكثر منها جسدية ، بل هي روحية محضة ، وكم من إشراقات قد تجلى اللـه بها على مؤدى النسك في موقف لا يعرف بها مَنْ يجاوره المكان ويشاركه الأداء ، فإذا بالعين تدمـع والقلـب يهيم والجسد يرجف وأسرار وأنوار تتجلى من هذه الإشراقات ، لا يـدرك الإنـسان مـثلـها ثانية إلا إذا تكرر الفيض الإلهي ، لأن حصول ذلك ليس بالكـسب البشري بل بالفيض الإلهي ، حتى إن بعض البشر ليشعر بطواف روحه لا طـواف جسده ، ويشعر بسعادة لا تعدلـها سعادة ، وقد يكون مع هذا كسيرا أو كـسيحا أو مشلولا أو هرماً أو مريضا ولكن روحه تدرك من السعادة ما يضفى على جسده السعادة .

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٣٦٤ ٢ / ٣٧١ .
(٢) المستدرك ٢ / ١٦٠ ، مسند أحمد ٣ / ١٢٨ .
(٣) البيهقي ٤ / ٢٧٠ حم ٣ / ٢٧٣ .

٢-ومن غذاء الروح الذكر : وأفضلـه تلاوة القرآن ، وفى الحديث "أفضل الذكر لا إلـه إلا اللـه [١] وأفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن "[٢] .

وقـد ورد الأمر بذكر اللـه كثيرا فى القرآن والسنة ، بأسلوب فردى وجماعى ، وحث الإسلام على ذكر اللـه فى كل مجلس يجتمع فيه مسلمون حتى إن أى مجلس لا يذكر فيه اسم اللـه يكون ندامة على أهلـه يوم القيامة والحق لم يقيد الذكر بزمن أو مكان إلا ما كان من قبيل العبادة ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ [٣] ، ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [٤] ، ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [٥] ، ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [٦] .

إن لذكـر اللـــه حـلاوة ، وإن لأسمائه الحسنى آثارها على حياة الإنسان وسـلوكه، وإن تعلق الإنسان بهذه الأسماء يوجب التحلى بها فى سلوكه وفى الحديث "إن اللـه جميل يحب الجمال نظيف يحب النظافة جوّاد يحب الجود "[٧] .

وكـم ورد فى السـنة الدعـوة إلى ذكر الله والفت كتب وكتيبات فى هذا الموضـوع ، حـتى إن حياة المسلم لا تخلو من ذكر ربه فى كل حال وعلى أى حال

---

(١) ت ٣٣٨٣ والمستدرك ١ / ٤٩٨ .

(٢) ابن عساكر ١ / ٢٧٤ كنز العمال ٢٢٦٤ .

(٣) آل عمران (١٩١) .

(٤) الطور (٤٨ ، ٤٩) .

(٥) الإسراء (١١٠) .

(٦) الأعراف (٢٠٥ ، ٢٠٦) .

(٧) م ك الإيمان ١٤٧ حم ٤ / ١٣٣ .

فهناك أذكار اليقظة والتوجه إلى الخلاء وبعد الخروج من الخلاء والتوجه إلى الوضوء وبعد الفراغ من الوضوء والتوجه إلى المسجد وعند دخول المسجد وأثناء الصلاة وعقب الصلاة وعند الخروج من المسجد وفى طريق العودة ، وهناك أذكار الصباح والمساء وعند رؤية الهلال وتوديع يوم واستقبال آخر وعند رؤية الحصاد وقبل الأكل وبعده وبعد شرب الماء وعند أخذ المضجع ، ويمكن الرجوع إلى كتاب الأذكار للإمام النووى وعمل اليوم والليلة للوقوف على مدى ملازمة المسلم لذكر ربه .

٣-ومن الرياضة الروحية (طلب الجمال) : وما أكثره وأيسره فى الكون بل فى الإنسان نفسه ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [١] .

وقد كثر الأمر بالنظر فى الكون لإدراك الجمال والكمال فيه ، بل الكون كله محل نظر وتأمل ، ومن خاض فى أسرار الكون تحقق لروحه قدر من الشبع لا يتحقق للمعرضين .

قال تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢] ، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [٣] .

بل إن الأمر بالجمال وإظهاره وارد فى القرآن والسنة ، لأن الجمال ذاته يحقق هدوءاً نفسيا ونعيما روحيا ، قال تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ

---

(١) الانفطار (٦ ، ٧ ، ٨) .

(٢) النحل (٥ - ٨) .

(٣) الأعراف (٣٢) .

مَسْجِد﴾ (١) وفي الحديث "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة" (٢).

٤- ومن الرياضة الروحية (الغناء) : إذا توفرت فيه الكلمة العفيفة والأداء الحسن وانتفت معه الفتنة .

وإذا كان جمهور العلماء قد ذهب إلى تحريم الغناء بناءً على استنباطات من بعض آي القرآن ونصوص صريحة في السنة ، فإن بعض العلماء قد رأى حليه ولهم على ذلك شواهد منها :

أ- غناء الجاريتين في بيت رسول الله ﷺ يوم العيد وزجر أبي بكر لهما قائلا : مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ وأمر الرسول إياه بتركهما قائلا له : دعهما يا أبا بكر فإن اليوم يوم عيد . (٣)

ب- استقبال الأنصار للرسول ﷺ وترديدهم : طلع البدر علينا ... (٤) ولم ينكر الرسول عليهم ذلك ولو كان حراماً لأنكره .

جـ- في بناء المسجد النبوي كان الصحابة ينشدون :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا

وكان الرسول يختم معهم كل شطرة من البيت ولم ينكر عليهم ذلك . (٥)

---

(١) الأعراف (٣١) .

(٢) كشف الخفا ٢ / ١٧١ .

(٣) البخاري ٢ / ٢٠ مسلم ك العيدين رقم ح ١٧ .

(٤) الرحيق المختوم ١٦٤ .

(٥) البخاري ٥ / ١٤٠ مسلم ١٤٣٠ .

د- عندما تزوجت فتاة من الأنصار دون عرس لـها وبلغ الخبر رسول الله ﷺ أنكر عليهم ذلك وقال : إن الأنصار قوم يعجبهم اللهو : هلا ضربتم بالدف وقلتم أتيناكم فحيونا نحييكم [١] .

هـ-كان بعض الصحابة يحدو للإبل ليلا - أى يغنى لـها حتى تطرب - والرسول معهم و لم ينكر عليهم ذلك .

وقد عقد الإمام الغزالى باباً للسماع فى كتابه (إحياء علوم الدين) ذكر رأى المؤيدين والمعارضين وأدلة كل رأى ورجح ما رآه راجحا .

ومن شاء السماع العفيف يمكنه أن يسمع ما يغذى روحه ويقوى عزيمته ويبنى إرادته ويشحذ همته بل ويعلى غريزة التدين عنده وهو كثير موفور فى الشعر العربى وفى الغناء العربى ، فضلا عن تخصيص بعض المغنين فى المدح الدينى .

٥- ومن الرياضة الروحية (فعل الخير) : وهو شعور يتتاب من فطر عليه ويستعصى عليه شرح الشعور الذى يدركه من جراء شفاء مريض أو عون مسكين أو قيادة كفيف أو حمل كسير أو جبر خاطر فقير أو مسح رأس يتيم أو إضحاك باكى أو تفريج كرب شاكى ... الخ .

إن إدخال السرور على الآخرين من مبادئ الإسلام وله عظيم الأجر .

وفى الحديث " من فرج عن مسلم كربة فرج اللـه عنه كربة من كرب يوم القيامة "[٢] ، " مكتوب على باب الجنة العطية بعشرة أمثالـها والقرض بثمانية عشر "[٣] ولما سئل عليه السلام عن سبب زيادة أجر المقرض على أجر المتصدق قال : (لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا محتاجاً) وفى القرآن إشارة إلى هذا السلوك ﴿ وَيُطْعِمُونَ

---

(١) مجمع الزوائد ٤ / ٢٠٩ ، إتحاف ٤ / ٤٩٣ .
(٢) البخارى ٣ / ١٦٨ مسلم ك البر ٥٨ .
(٣) حبيب ١ / ٧٢ .

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [١] .

وفى السنة " الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله "[٢] .

إن فعل الخير يكون شاقا على البدن أحيانا ولكنه نعيم للروح فى كل حين .

❁❁❁

---

(١) الإنسان (٨ ، ٩) .

(٢) مجمع الزوائد ٨ / ١٩١ عدى ٧ / ٢٦١٠ .

رابعاً : الاهتمام بالإنسان من حيث غرائزه وعواطفه

الإنسان صنعة الله ، وقد ركب الله فيه غرائز شتى ، ولم يشأ الحق أن يحرم الإنسان من إشباع هذه الغرائز ، ولكنه جعل للإشباع آداباً وحدودا ، فلم يأذن بالإفراط أو التفريط ، ومما اهتم به الإسلام من غرائز تتعلق بالإنسان ما يلى :

أ- غريزة حب البقاء : وقد حرص الإسلام على سلامة حياة الإنسان إلى حين قضاء الله فيه ، فصان النفس وحرم قتلها إلا بحق [كفر بعد إيمان وزنى بعد إحصان والتارك لدينه المفارق للجماعة] وأوجب القصاص ردعاً وزجراً ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (١) وحرم على الإنسان قتل نفسه ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (٢) وجعل قتل الإنسان لنفسه موجبا لدوام المقام فى جهنم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً (صحيح مسلم ١٠٩/٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٣) .

والبقاء المطلق مستحيل بحق الإنسان لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٥) ولذلك جعل الله البقاء من طريق التوالد ، عمارة للكون

---

(١) البقرة (١٧٩) . (٢) النساء (٢٩) .

(٣) النساء (٩٣) . (٤) العنكبوت (٥٧) .

(٥) الرحمن (٢٦ ، ٢٧) .

واستبقاء للنوع ، وجعل ذلك فطرة ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [١] وقد رأينا زكريا عليه السلام ينطق بهذه الغريزة غريزة الوالدية داعيا ربه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [٢] فاستجاب الله دعوته وجعل الإخبار بالإجابة بشارة ، قال تعالى ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [٣] .

وإذا أدرك الإنسان ولد ولده زادت فرحته وقرت عينه لأنه يشعر عندها أن ذكراه ممتدة وأن أثره باق .

وهناك بقاء من نوع آخر لا يعرفه إلا العارفون وأهل العلم بالله وهو البقاء من طريق العمل الصالح ، حيث يذكر الإنسان بعد وفاته بما قدم من خير حال حياته ، وفى الحديث " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له "[٤] . وفى حديث آخر " أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أجراه "[٥] .

إن الإنسان ليتحرك فى المجتمع الإسلامى وهو آمن على حياته ، ولو كان على غير الإسلام ، فحق الحياة مكفول لكل من يقيم فى ديار الإسلام ما لم يرتكب ما يوجب القصاص .

---

(١) الفرقان (٧٤) .

(٢) الأنبياء (٨٩) .

(٣) مريم (٧) .

(٤) الترمذى ١٣٧٦ مسلم ك الذكر ١٣ ، ك الوصية .

(٥) صحيح ابن خزيمة ، ابن ماجة ٢٤٢.

ب- غريـــزة الـــتملك : وهى من أقوى الغرائز فى الإنسان بعد غريزة حب الـــبقاء ، وقد تسبقها عند بعض الناس ، ومن هاتين الغريزتين أتى إبليس آدم وخاطبه وحرك فيه هاتين الغريزتين ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (١) .

شجرة إذا أكلت منها لا تموت .

وملك لــه صفة الدوام والبقاء .

فكانت الغواية وكانت العاقبة وكانت التوبة .

إن غريـــزة حـــب التملك فطرة ، وهى قرينة الحركة الأولى للطفل ، حيث يتمـــسك بلعبته ويدافع عنها ويبكى إن أخذت منه ، ويحرص على أخذ لعبة إخوته ، كل ذلك لإشباع الفطرة الكامنة فيه .

والإســـلام هذب هذه الغريزة ، فصرح بمنزلة المال عند الإنسان ، قال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (٢) ، وقال تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) .

وبـــين منزلة حب المال فقال ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٥) ، كما صرح بأن المـــال قـــوام الحياة وبه يستقيم العيش وهو وسيلة وليس غاية قال تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٦) ولـــذلك أذن الإسلام بالتملك من الطرق المشروعة (العمل – الإرث – الـــهبة) وأوجب الإنفاق فى الطرق المشروعة (على الـــنفس ومـــن تلـــزمه نفقته والزكاة والصدقة) وحرم الإسراف فيما يملك الإنسان

---

(١) طه (١٢٠) . (٢) آل عمران (١٤) .

(٣) الكهف (٤٦) . (٤) الفجر (٢٠) .

(٥) العاديات (٦ – ٨) . (٦) النساء (٥) .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [(١)] ونهى عن التبذير ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [(٢)] ومن لا يحسن تـدبير مـا يملـك وجب الحجر عليه ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ مع وجوب الإنفاق عليه ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [(٣)] .

إن الإسـلام لا يـضع حدا أدنى ولا حدا أعلى للتملك ، كما أنه لا يسمح بمصادرة الأموال ، ما دام الكسب من حلال والإنفاق فى حلال مع أداء حق اللـه حال التملك .

ومـن عجـز عن الكسب فقد أوجب الإسلام لـه تملكا بالطرق المشروعة ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [(٤)] وفى الحديث " إن اللـه فرض لفقراء أمتى فى أموال أغنيائهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يمنع أغنياؤهم ، ألا وإن اللـه محاسبهم حسابا شديدا ومعذبهم عذابا أليما "[(٥)]

جـ- غريزة التدين : وهى من الغرائز المركبة فى الإنسان وأسبق فى الزمن مـن غريزتـى حب البقاء والتملك ومتأخرة فى الظهور لأنها مرتبطة بشئ من الوعى والإدراك ، وما من إنسان إلا وهو ينزع إلى إلـه يعبده وإن لم تأته نبوة ولا رسالة ، وما من حاضرة ولا بادية إلا وفيها معابد ومزارات .

إن هـذه الغريزة قد فرضت على الإنسان أن يؤلـه ما تراءى لـه من حجر وشـجر وأجرام علوية وأجرام أرضية ، ليشبع الجانب الغريزى فيه ، فى غيبة النبوة أو الإعراض عنها مع وجودها .

---

(١) الأعراف (٣١) .
(٢) الإسراء (٢٧) .
(٣) النساء (٥) .
(٤) المعارج (٢٤ ، ٢٥) .
(٥) راجع : مجمع الزوائد ٣ / ٦٢ ، الترغيب ١ / ٥٣٨ .

وقـــد تعـــبد اللـــه خلقه فى الإسلام بما يشبع هذه الغريزة ، وجعلـــها قائمة علـــى اليسر ورفع الحرج ، وجعل التكاليف الشرعية تسقط مع الإعسار وتخفف عند الاضطرار ، وجعلـــها هادفة ونافعة للإنسان عند الأداء ، ولم يكلف النفس فى العبادة إلا فى حدود طاقتها ووسعها وما آتاها ...

وسماحـــة الإســـلام تتجلـــى فى الإذن لأهل الكتاب بأن يمارسوا طقوسهم وشـــعائرهم الدينية فى بيوت عباداتهم ، بل إنهم أدّوها فى حياة الرسول ﷺ فى المسجد النبوى دون إنكار منه عليهم .

د- غريزة الوالدية :

وهى عند النساء أقوى منها عند الرجال ، وقد حرص الإسلام على إشباعها بالطـــرق المـــشروعة ، وجعل السبيل لذلك الزواج الشرعى ، وأذن بالتسري لإشباع غريـــزة الجنس لدى الأَمَة من ناحية وغريزة الوالدية من ناحية ثانية ورغبة فى التحرير مـــن ناحـــية ثالثة . قال تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (١) ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢) ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٣) .

وقـــد نظـــم الإسلام العلاقة بين الآباء والأبناء ، وجعل لكل حقا وعلى كل واجبا ، دون أن يتحمل أحدهما من وزر الآخر شيئا والأبوة والبنوة بالطرق المشروعة فيها راحة نفسية وسلامة اجتماعية وترابط قوى لا يتحقق إلا من هذا السبيل .

---

(١) النحل (٧٢) .

(٢) الروم (٢١) .

(٣) المؤمنون (٥ ، ٦) .

وقـــد حث الإسلام على طلب الولد ، وفي الحديث " تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة "[١] .

وقـــد حـــذر الإسلام من إساءة استخدام سلطة الوالدية ، قال تعالى ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢] وحذر في نفس الوقت مـــن فتـــنة الأبناء لآبائهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [٣] .

إن الإضـــافة بين الوالد والولد كثيرة في القرآن ، وهي تشير إلى مدى التلازم الفطري بينهما ، كما أن التصريح بالأبوة والبنوة والأمومة كثير في القرآن .

هـــ- الذاتية :

(غريزة الأنا) ، فما من إنسان إلا وهو يشعر أنه شئ ما ، بل يشعر أنه كل شـــئ في بعض الأحيان والإسلام لا يذيب الفرد من أجل المجتمع ولا يضيع المجتمع من أجـــل مصلحة الفرد ، وإنما يحرص على استقرار واستقلال الفرد ابتداءً باعتباره اللبنة التي يتكون منها المجتمع ، فإذا صلحت هذه اللبنة صلح البناء وخلا من الخلل والخواء ، وإذا فسدت لبنات البناء فسد البناء بأسره .

إن المـــسئولية الفردية تؤكد الذاتية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[٤] ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [٥] ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ [٦] .

---

(١) شفا ١ / ١٩٠ كشف الخفا ١ / ٣٨٠ .

(٢) النور (٣٣) . (٣) التغابن (١٤) .

(٤) المدثر (٣٨) . (٥) فصلت (٤٦) .

(٦) آل عمران (١٩٥) .

وفى إطـــار التأكيد على الذاتية كان التكليف بعد البلوغ ، وإسقاط التكليف عن كل عاجز أو نائم أو صغير ، وفى الحديث "رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق "(١) .

ويؤكد الإسلام على إثبات الذات وبخاصة فى مواطن الرأى وفى الحديث " لا يكـن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن ظلموا ألا تظلموا " .

ومـــن أقـــوالـــه عليه السلام " لا يحقرن أحدكم نفسه ، قالوا وكيف يحقر أحـــدنا نفسه يا رسول اللـــه ؟ قال : يرى أن لله عليه مقالا فلا يقولـــه ، فيسألـــه ربـــه ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ ". فيقول خشية الناس ، فيقول لـــه : فإياي كـــنت أحق أن تخشى "(٢) ، وفى الحديث " سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره فقتلـــه "(٣) إنما الذاتية الإيجابية لصالح المجتمع .

إن الذاتـــية فى الإسلام غير السادية فى المذاهب والمعتقدات المعاصرة ، حيث يرى بعض الأفراد أنهم أفضل من غيرهم ، وأن لـــهم حق السيادة والقيادة على غيرهم من البشر ، وهى نظرة لا يعرفها الإسلام ، وإنما عرف لكل إنسان قيمته وقدره ، مع بيان ارتباط الناس بعضهم ببعض ، كما يقول الشاعر :

الناس للناس مـــن بـــدو وحاضـــرة ... بعض لبعـــض وإن لم يشعروا خدم

ومن باب تقدير الذات كان النص " أنزلوا الناس منازلـــهم "(٤) ، " قوموا إلى سيدكم "(٥)

---

(١) حم ٦ / ١٠٠ ك ٢ / ٥٩ ن ٦ / ١٥٦ .

(٢) هـ ٤٠٠٨ حم ٣ / ٣٠ .

(٣) أبو داود ١٩٥ ك ٢ / ١٢٠ مجمع الزوائد ٧ / ٢٦٦ .

(٤) أبو داود ٤٨٤٢ ، إتحاف ٦ / ٢٦٥ .

(٥) إتحاف السادة المتقين ٧ / ١٤٢ .

و- غريزة الحب :

وهي من الغرائز الموجودة في الإنسان ، وقد راعى الإسلام هذه الغريزة ، فجعل أعلاها مرتبة ومنزلة حب الله ثم حب الرسول ثم حب ذوى القربى ثم حب المسلمين ثم الناس أجمعين ، ولا يراد بالعطف هنا الترتيب الزمني بل الترتيب التنازلي ، ذلك كله قد يجتمع في وقت واحد ودون إبطاء زمني ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [1] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [2] .

وقرن حب الرسول بحبه ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [3] ، وفي الحديث " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " [4] .

وبين الرسول ﷺ أن حب الله ورسوله يكسب الإنسان تذوقه لطعم الإيمان ، وفي الحديث " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار " [5] ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله " رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه " [6] .

---

(١) البقرة (١٦٥) .　　(٢) المائدة (٥٣) .

(٣) التوبة (٢٤) .

(٤) ج ١ / ١٠ مسلم الإيمان ١٦ / ٧٠ .

(٥) مسلم ك الإيمان ٦٧ ن حم ٣ / ١٠٣ .

(٦) البخاري ١ / ١٦٧ مسلم ك الزكاة ب ٣ رقم ٩١ حم ٢ / ٤٣٩ .

وأذن الإسـلام بإشباع هذه الغريزة بين الزوجين والآباء والأبناء وسمح بحب المال دون الافتتان به ، ورغب في الجنة وحبب فيها وتحدث عنها بما يشوق كل عاقل إلى سكناها .

كما دعا إلى حب الصالحين ومجالستهم وصحبتهم ، فالمرء على دين خليلـه فلينظر الإنسان إلى من يخالل .

وبهذا يكون الإسلام قد أعلى شأن هذه الغريزة ولم يأذن بإساءة استخدامها .

والميول القلبية إن لم تتجاوز حد الشرع فلا شئ فيها ، قال تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [1] .

وأمـا الحب أو الميل القلبي اللامشروع فهو محل ذم في الإسلام ، ويكفي أن النسوة اللائي علمن بأمر امرأة العزيز قد حكمن عليها بالضلال لسوء صنيعها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [2] ، وقـد تعـاطفن معها بعد تأثرهن العاطفي بجمالـه ، مما أدى إلى الضرر العضوي بأجسادهن ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [3] .

---

(١) البقرة (٢٣٥) .

(٢) يوسف (٣٠) .

(٣) يوسف (٣٠ ، ٣١) .

إن الغرائـــز القائمة بالإنسان تبلغ حداً فى الكثرة ، وقد عالجها الإسلام . جمع ذلـــك وفصّل الكلام فيه فى الماضي : الإمام الغزالى [فى إحياء علوم الدين] وفى الحاضر كتب المرحوم " محمد قطب " منهج التربية فى الإسلام ، أفاض فيه وأجاد .

٥- الاهتمام بالإنسان مفكراً :

فالـــتفكير هـــو أســـاس الرقى الحضارى وناتجه العمران والتقدم ، والصراع الفكرى لـــه دوره فى رقى الأمم وتخلفها ، والغلبة الآن لمن يملك مفاتيح المعرفة .

وقـــد حرص الإسلام على الاهتمام بالإنسان ككائن مفكر وسلك فى ذلك سبلا عدة منها :

١- إعـــلاء منزلـــة التفكير فى الإسلام ، وقد مدح اللـــه أهلـــه فى كثير من الآيـــات ، ومادة الفكر ومشتقاتها قد وردت كثيرا فى آى القرآن المكى والمدنى .

٢- دعـــا الإسلام إلى تفكير الإنسان فى أمر نفسه وتكوينه وتركيبه كما دعا إلى التفكير فى الكون أجمع ، لأن ناتج الفكر المجرد هو الاهتداء إلى خالق لـــهـــذا الكون ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

٣- حـــرك الإسلام العقل نحو التفكير بطرح الأسئلة والإجابة عليها وأحيانا يطـــرح الأســـئلة ولا يجيب تاركا للعقل الإجابة ، وكم يذكر المقدمات دون النـــتائج وأحيانا يذكر النتيجة دون المقدمات ، كل ذلك لتحريك العقل نحو التفكير .

---

(١) فصلت (٥٣) .

٤- حث الإسلام على التعلم ، وجعله فريضة على كل مسلم ، وتندرج المسلمة ضمن حكم الحديث الشريف في معناه ، وفي الحديث " طلب العلم فريضة على كل مؤمن "[١] .

وكتب السنة قد عقدت أبواباً خاصة لبيان فضل العلم وفضل أهله .

٥- حرم الإسلام كل شئ يضر بآلة التفكير (العقل) كالمسكرات والخمور والمفترات قل المشروب أو كثر .

٦- أعطى الرسول ﷺ شهادات تقدير لكل نابه أو نابغ في المعرفة وهي شهادات لا تمحى بمضي الزمن ، وفي الحديث " أقرأ أمتي أبيّ بن كعب[٢] أفرض أمتي زيد "[٣] وفي آخر .

٧- صرح الإسلام بالفرق الكبير بين المتعلم والجاهل ، ونفى التسوية بينهما في الدنيا والآخرة ، والعقل والشرع ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤] .

٨- حرر الإسلام الفكر من كافة المؤثرات الخارجية مثل الهوى والظن وموروثات الآباء ، والآيات في ذلك كثيرة ، لأن مثل هذه المؤثرات تصرف العقل عن النتيجة الصحيحة .

٩- أشار الإسلام إلى ما يسمى بمنهج التفكير العلمي في العصر الحديث من حيث فرض الفرض والملاحظة والتجربة واستخلاص النتائج وإن لم يسم ذلك بلفظه في القرآن ، ولكنه أشار إليه في كثير من آياته ، فقرض

---

(١) هـ ٢٢٤ مجمع ١ / ١١٩ .

(٢) كنز العمال ١٢ / ٣٢٦ .

(٣) ابن عساكر ٥ / ٤٤٩ فتح الباري ١٢ / ٢٠ .

(٤) الزمر (٩) .

الفرض فى قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [١] ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [٢] ، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣] والآيات فى ذلك كثيرة .

وأما الملاحظة فهى فى الآيات الآمرة بالسير والنظر والحث على أشياء يغفل الإنسان عن النظر إليها أو الاعتبار بها كما فى سورة النبأ وعبس وغيرهما كما يشير إلى مدى منزلة التأمل فى الإسلام .

وأما التجربة أو التكرار للتأكد من صحة النتيجة فأوضح ما يكون ذلك فى قول الحق ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [٤] كما أن التعبير بقوله ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [٥] فيه إشارة إلى التكرار لأنه يفيد الدوام والاستمرار ، كما ذكر القرآن النتيجة فى قولهم ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٦] .

٦- الاهتمام بالإنسان فرداً وأسرة ومجتمعا :

وهو أوضح ما يكون فى القرآن والسنة ، وسوف نبسط القول فيه فى النظام الاجتماعي فى الإسلام .

---

(١) الإسراء (٩٥) .

(٢) الإسراء (٤٢) .

(٣) سبأ (٢٤) .

(٤) الملك (٣ ، ٤) .

(٥) آل عمران (١٩١) .

(٦) آل عمران (١٩١) .

الخاصة ١ ـــ (الشمول)

ويراد به: شمول النظام الإسلامى لكافة مناحى الحياة الإنسانية، وإذا كانت البشرية قد عرفت نظما شتى إلا أنها تتسم بسمة التأقيت والانفصال والذوبان فى أغلب الأحيان، وكثيرا ما تكون محدودة الزمان والمكان والإنسان أما النظام الإسلامى فهو شامل الزمان والمكان والإنسان والحيوان ويمكن إيضاح ذلك فيما يلى:

أولاً: الزمان وشمولية النظم الإسلامية لــه:

تتصــل النظم الإسلامية بالزمان اتصالا وثيقا فى الماضى والحاضر والمستقبل. وقد تحدث الإسلام عن الزمن ذاته وبين السبب فى تعاقبه والحكمة من هذا التعاقب، قــال تعــالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1]، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[2].

وأشــار الإســلام إلى وحدات الزمن، فعبر عن اللحظة أو البرهة بأسلوب العصر فى ذلك الزمن، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3] وهو ما يعبر عنه بغمضة عين أو جزء من الثانية بلغة العصر. كما أشار إلى الســاعة وذلك فى قولــه تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[4] وإلى الــيوم واللــيلة وذلك فى قولــه تعالى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[5] وإلى الشــهر فى قولـــه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾[6] وإلى عدد

---

(١) الفرقان (٦٢). (٢) الإسراء (١٢).

(٣) النمل (٤٠). (٤) الروم (٥٥).

(٥) الحاقة (٧). (٦) البقرة (١٨٥).

شهور السنة فى قولــه ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[1]. كما تحدث عن السنة بأسلوب فردي وبــالجمع فى بعــض الأحــيان ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[2]، ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[3]، ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾[4] مما يدل على قيمة الزمن فى الإسلام.

ويمكن بيان مدى اتصال النظم الإسلامية بالزمن فى كل مراحلــه على النحو التالى :

تناول النظم الإسلامية للماضي

الــزمن وعاء الأحداث وذاكرة التاريخ والاعتبار بالماضى يفيد الحاضر وينير المســتقبل وقــد تناول الإسلام الرسالات السابقة ، كما تناول عادات وتقاليد الأمم السابقة ، وركز على الجوانب العقيدية والتشريعية والأخلاقية .

ففي المجال العقدي :

أشار إلى ملازمة الوحى للإنسان الأول ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[5] وإلى أن الفطــرة الســوية هى التوحيد للخالق أو هى الإســلام أو الإيمــان بخالق لــهذا الكون ، كما صرح بوحدة أصول الاعتقاد ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[6] ، ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[7] .

---

(١) التوبة (٣٦) .
(٢) الحج (٤٧) .
(٣) المعارج (٤) .
(٤) يوسف (٤٧) .
(٥) طه (١٢٣) .
(٦) الأنبياء (٢٥) .
(٧) الزخرف (٤٥) .

وذكـر القـرآن أن الانحـراف عن الفطرة مرده إلى الوسوسة وهوى النفس الأمارة بالسوء واصطفاء السوء والبيئة الفاسدة ، كما أشار إلى مظاهر العقائد الفاسدة لدى الأمم السابقة وبخاصة قوم نوح وإبراهيم وبين منهج هذين النبيين في دعوة قومهما .

كمـا ذكـر مـن المعتقدات الوضعية ما كان عليه قوم هود وصالح وموسى وعيسـى عليهم السلام ، وبين العاقبة التي آل إليها أكثر أتباع هذه الأمم ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

كمـا ذكر الإسلام الجوانب التشريعية لدى الأمم السابقة ، وصرح بوحدة أصـول الشـريعة في مجـال العبادات ، فكل الأمم السابقة قد تعبدها اللـه بالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وإن لم يفصل الأمر في الكم والكيف لدى السابقين ، ولم يحـدد المكـان بالنسبة للحج ، وإن ورد في السنة ما يشير إلى حج آدم وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل إلى البيت الحرام .

وأمـا المعاملات والأنكحة والحدود والجنايات فقد أشار الإسلام إلى وحدة أصـولـها ، ويجمع ذلك قول اللـه تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢) وحـين ذكـر أهل الكتاب قال ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٣) .

---

(١) العنكبوت (٤٠) .

(٢) الشورى (١٣) .

(٣) البينة (٥) .

وأشار فى جانب الحدود والجنايات إلى العقوبات المقدرة ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ (١) .

وأما الجهاد وقتال الأعداء ، فقد نص القرآن على تعبد السابقين به ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وفى مجال الأخلاق لدى السابقين ذكر القرآن الأخلاق الايجابية لدى بعض الأمم والأفراد ، وامتدحها وأثنى عليها وبخاصة الأنبياء والأولياء والصالحين ، كما ذكر الأخلاق السلبية وبين آثارها على الأفراد والأمم التى وصلت إلى حد الدمار .

ونظرا لاتحاد أصول الرسالات السماوية ، فقد اعتبر جمهور الفقهاء شَرْعَ من قبلنا كمصدر من مصادر التشريع بشروط رآها هؤلاء .

أوجه الاستدلال بشرع من قبلنا ..

١- يحتج بأى نص حكاه الله أو رسوله عن شرع من قبلنا الوارد بالقرآن أو السنة الصحيحة أو الحسنة إذا لم يرد فى شرعنا ما ينسخه كدليل إنشائى إثباتى للأحكام الشرعية العملية عند أبى حنيفة وبعض المالكية وبعض الشافعية .

٢- يحتج به كدليل تأكيدى فلا ينشئ حكما جديدا بل يؤكد حكما ثبت فى شرعنا عند بعض المالكية وبعض الشافعية .

---

(١) المائدة (٤٥) .

(٢) التوبة (١١١) .

٣- يحتج به في الترغيب والترهيب إذا كان من قبيل الأحاديث الموقوفة أو المقطوعة ، وكذلك يستعان به عند تفسير القرآن والسنة فيما وافق النقل والعقل[١].

٤- ذكر الإسلام حصاد تجارب السابقين ليعتبر بها المعاصرون في كل زمن ، وركز على الجانب الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي ففي المجال الديني نص على أن الالتزام الديني يكسب التمكين في الأرض والبقاء للأمم المتدينة أكثر منه لغير المتدينة ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[٢] ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[٣] ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[٤].

وذكر الإسلام أن الكفر بالله موذن بهلاك الأمم ، كما أن الظلم سبيل الفناء ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[٥].

وأما المجال السياسي :

فقد ذكر الإسلام صوراً شتى لأنظمة الحكم السابقة وبين ما آل إليه أمر هذه الدول وأمر حكامها ، نذكر من هؤلاء قوم عاد الذين مكن لهم في البلاد ، وبنوا

---

(١) النظم والثقافة الإسلامية ٧٣ ، ٧٤ بتصرف .
(٢) الأنبياء (١٠٥) .
(٣) النور (٥٥) .
(٤) الأعراف (٩٦) .
(٥) الطلاق (٨ ، ٩) .

قلاعــاً حربية ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [1] واعتدوا على من جاورهم وأعلنوها صريحة ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [2] وبلغوا شأواً كبيرا في العمران ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [3] .

ومن الإشارات السياسية في القرآن حديثه عن قوم صالح ، وذكره نظام الحكم في مصر في عهد يوسف ، وتضمين سورة يوسف صورة مفصلة لهذا النظام .

كما ذكر النظام السياسي في مصر أيام موسى عليه السلام وبين الشطط الذى أصاب الحاكم وما قام به وزراؤه وما آل إليه مصيرهم .

كما أشار إلى الفرس ضمنا والروم صراحة في سورة الروم وإلى الصراع بينهما وما آل إليه هذا الصراع .

وفي المجال الاقتصادي :

أشار إلى جوانب الإيجاب والسلب في النظم الاقتصادية السابقة .

فالنظام الإيجابي أوضح ما يكون في تدبير يوسف عليه السلام للنظام الاقتصادي المصرى .

والنظام السلبى في مدين وما آل إليه أمرهم وكذلك قارون وعاقبته .

وفي المجال الاجتماعي :

أشار إلى طبيعة العلاقة بين الأغنياء والفقراء والملأ المستضعفين والمستكبرين والمستذلين ، وحذر من توسد الفاسدين للمناصب العليا لأنهم سبب الهلاك والدمار ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [4] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [5] .

---

(١) الشعراء (١٢٩) .
(٢) فصلت (١٥) .
(٣) الفجر (٦ - ٨) .
(٤) الإسراء (١٦) .
(٥) الأحزاب (٦٧) .

كما ذكر علاقة الأباء بالأبناء في أسلوب بعض العرب في وأد البنات ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (١) وذكر علاقة الأبناء بالآباء، وأشار إلى الأبناء البررة كيحيى وعيسى وإسماعيل وإبراهيم وإلى الابن العاق كما في سورة الأحقاف وابن نوح وغيرهما.

وفي إطار العلاقات الاجتماعية حرم الخمر والمسكرات والغناء الفاحش والشعر المرذول، كمدح الأراذل والتشبيب بالنساء وذكر المعايب والهجاء الفاحش واستحلال الحرام، قال تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا . . .﴾ (٢) وأما طيب الشعر وحسنه فلا حرج فيه، ورسول الله ﷺ قد اتخذ شعراء له على رأسهم حسان بن ثابت، وفي الحديث " إن من الشعر لحكمة " (٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . (٤)

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أنشدت رسول الله ﷺ مائة قافية من شعر أمية بن أبي الصلت، يقول بين كل قافية " هيه " وقال " كاد أن يسلم ". (٥)

٣- الدعوة إلى الاعتبار بالماضي:

خيره وشره وحلوه ومره وتحسين حسنه وتقبيح قبيحه، وأخذ العظات من سلوك السابقين، وحسبنا أن القرآن بعد إشاراته إلى سلوك الأمم السابقة ونظمها في

---

(١) التكوير (٨ ، ٩).

(٢) الشعراء (٢٢٤ — ٢٢٧).

(٣) حم ١ / ٢٦٩ اتحاف ١ / ٢٤٩.

(٤) خ ٨ / ٤٣ حم ٢ / ٣٣٩.

(٥) سنن ابن ماجه ٢ / ١٢٣٥ ط الريان.

بمجال العقيدة والشريعة والأخلاق ، دعا إلى الاعتبار والعظة ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) ، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢) ، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٣) ، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٤) ، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) ، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (٦) .

إن الزمان الماضى حاضر فى الإسلام ، وإن العلم بالوجود الأول موجود فى القرآن ، وإذا كان استرجاع الزمن الماضى فى عداد الماضى فإن استحضار وقائعه فى عداد الحاضر حاضر ، ويمكن لمن يمعن النظر فى القرآن الكريم ، أن يعيش قصة خلق السماء والأرض والإنسان كأنها حاضر فى هذا الزمان وكأنه مشاهد لها .

لقد قدم الإسلام صورة حية للماضى بما حوى وطوى من زمان ومكان وإنسان لييسر السبيل لإنسان الحاضر بالاعتبار وحسن الاختيار .

إن أسباب التمكين فى الأرض واضحة فى القرآن ، منها الجلى ومنها الخفى وإن غير المسلمين قد أخذوا بهذه الأسباب فمكن لهم ، وإن المسلمين قد تقاعسوا عن الأخذ بالسنن فجرت عليهم سنن الله التى لا تنصر الكسالى ولا المتخاذلين ولا المتفرقين ولا المتباغضين ولا المتنافسين على زخرف الدنيا ولا المنغمسين فى اللهو والفجور والدعارة والكرة بأشكالها وألوانها .

۞۞۞

---

(١) الأعراف (١٧٦) . (٢) يوسف (١١١) .
(٣) العنكبوت (٤٣) . (٤) الأنبياء (١١) .
(٥) القصص (٥٨) . (٦) هود (١٢٠) .

النظم الإسلامية وسموها للحاضر

الحاضر والمستقبل من الاصطلاحات النسبية ، فحاضر اليوم هو ماضى الغد ومستقبل اليوم هو حاضر الغد ، ومن خصائص الإسلام أنه يعالج الحاضر ويرشد إلى مستقبل أفضل ولا يهمل الماضى لأنه المؤثر فى الحاضر والمستقبل .

وكل يوم يتلى فيه القرآن هو حاضر لمن يتلوه ، وإن كان النص بصيغة الماضى إلا أن معناه حاضر ، كما فى قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾[1] ، ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾[2] ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . . ﴾[3] .

وإذا كان النص الماضى فى الأسلوب حاضرا فى معناه وتكليفه ، فإن النص الوارد بأسلوب المضارع أو الأمر هو حاضر من باب أولى ومثل ذلك . ظرف الزمان ، قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[4] ، فالنص وإن نزل يوم عرفة إلا أن كلمة اليوم يراد بها كل يوم يتلى فيه النص ، كما أن قوله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[5] وقوله ﴿ . . مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . ﴾[6] ذلك يؤكد العموم والشمول للشريعة الإسلامية ما دامت هذه النصوص حاضرة تتلى ومحفوظة بحفظ منزلها .

إن الحق سبحانه أخبرنا أن الرجوع إلى القرآن والسنة كفيلان بحل المشاكل المستجدة ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[7] ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

---

(١) البقرة (١٨٣) .
(٢) النحل (١) .
(٣) المائدة (٤٥) .
(٤) المائدة (٣) .
(٥) النحل (٨٩) .
(٦) الأنعام (٣٨) .
(٧) النساء (٥٩) .

الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1] ، ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

لقد اجتهد السابقون لزمنهم ، وكان الواجب على اللاحقين أن يستنبطوا لزمنهم ، وتقصير المعاصرين عن استنباط أحكام تتعلق بوقائع العصر مرده إلى قصور في الفهم لا إلى التقصير في شريعة ربهم التي وصفت بأنها ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾[3] ، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[4] ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[5] .

إن المسميات الحاضرة للنظم المعاصرة أصولها موجودة في الإسلام منذ نزل على الرسول ﷺ وهذه إشارة عاجلة إلى مسميات هذه النظم وردها إلى الإسلام .

١ - النظام السياسي :

تحدث الإسلام عن الأمة الإسلامية و لم يستخدم لفظة الدولة لأن مفهومها يوحي بالحدود والمعالم والإسلام يؤمن بالعالمية لا المحدودية ، وقد وضع الإسلام أسس الحكم وآدابه كالعدل والمساواة والحرية والشورى ، وترك كيفية التطبيق لظروف الزمان والمكان ، لأن ما يناسب عصرا قد لا يناسب غيره ، إلا ما ورد به نص فلا مجال للاجتهاد في تطبيقه .

---

(١) النساء (٨٣) .

(٢) البقرة (٢) .

(٣) البقرة (١٣٨) .

(٤) آل عمران (٨٣) .

(٥) الأنعام (١١٤) .

كما تحدث الإسلام عن علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الدول في حال السلم وحال الحرب وأشار إلى العهود والمواثيق الدولية وذكر خصائص السفراء وحقوقهم كما ورد في السنة " لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما " قالها لرسولي مسيلمة الكذاب .[١]

وأوجب الإسلام إعداد العدة لدرء خطر العدو ، كما فرض على المسلمين نصرة إخوانهم الضعفاء في بلاد غير المسلمين وعاب عليهم خذلانهم لأنهم في حال الاستنصار ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[٢] وفي آية أخرى قال ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾[٣] .

وقد ألف علماء الإسلام كتبا في هذا المجال عرفت في الفكر الإسلامي بكتب السياسة الشرعية أو النظام السياسي في الإسلام وأحيانا توسم بـ (حكومة النبي ﷺ) ، (نظام الخلافة) . كما جمعت الوثائق السياسية لعهد النبوة والخلافة وجمعت مكاتيب الرسول ﷺ مما يدل على ثراء النظام السياسي الإسلامي في هذا الصدد وقد ألفت كتب شتى وأعطيت رسائل ماجستير ودكتوراه في أصول الحكم وأسسه في الإسلام كالشورى والعدل والمساواة والحرية .... الخ

النظام الاقتصادي :

وقد وضع الإسلام أسسه من حيث العمل وطلب الرزق والكسب الحلال وأشار إلى مواطن الطلب كالأرض والبحر والنهر وتحدث عن الزراعة والصناعة

---

(١) أبو داود ك الجهاد ب ١٦٥ المستدرك ٢ / ١٤٢ .

(٢) النساء (٧٥) .

(٣) الأنفال (٧٢) .

والتجارة ولفت النظر إلى الادخار وحث على الوسطية فى الانفاق وفرض الزكاة ونوّع مصادرها وحث على الصدقة وأعلى منزلتها وقدرها وحرّم الكسب من طريق غير مشروع ، كما تحدث عن الغنائم والفيئ والركاز وأشار إلى ما يحق للجميع الانتفاع به كالماء الجارى والعشب فى البرارى والنار الموقدة للضيافة .

وراعى الإسلام الفطرة فجعل حرمة المال كحرمة الدم وأوجب صيانته ونماءه والدفاع عنه والاستشهاد دونه ، وقدر عقوبات شتى على كل من يؤذ إنساناً فى ماله كعقوبة السرقة وحد الحرابة وحرم كنز المال وعدم نمائه وذكر العقوبة المقدرة على ذلك

إن أساس نظام الاقتصاد فى الإسلام هو الطهر ، فلا يجوز الكسب من طريق الغش أو الخداع أو النفاق أو التجارة فى العرض أو المسكرات أو القمار أو الاتجار فى الأعضاء البشرية ، ويأثم الإنسان بكل كسب من هذا الطريق ، ولا يقبل منه عمل تعبدى وبخاصة الحج والصدقة ، كما ورد الحديث " إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً "(١) ، " لا صلاة بلا طهور ولا صدقة من غلول " (٢) إلى غير ذلك مما ورد فى السنة المطهرة

٣- النظام الاجتماعى :

أشار الإسلام إلى اللبنات التى يتكون منها المجتمع كالفرد والأسرة والمجتمع ، وأشار إلى ولاة الأمر ومن وُلّى عليهم غيرهم ، كما تحدث عن الأغنياء والفقراء والمتعلمين والجهلاء ، وذكر الأهل والأقارب وبين ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، كما أشار إلى الجيران وحقوقهم والأخوة ومراتبها وحق كل مرتبة وفاوت بين الأخوة الإنسانية والأخوة الدينية والأخوة النسَبية وجعل لكل درجة حقا يتعدد بتعدد درجات الأخوة .

---

(١) م ك الزكاة ٦٥ حم ٢ / ٣٢٨ .

(٢) حم ٤ / ٢٣٥ ، ٣٢١ مجمع الزوائد ٢ / ٢٢٥ .

ولم يترك الإسلام أفراد المجتمع يتصرفون كما يحلو لهم ، بل وضع قواعد وضوابط يتعاملون بها فيما بينهم ، حتى لا تنحرف السلوكيات ويتسلط الهوى ، وحسبنا أن أسس المعاملات موجود فى النظم الإسلامية فالبيع والشراء والسلم والقرض والرهن والإجارة والمساقاة والمزارعة والشركة والكفالة والوكالة كل ذلك وردت أصوله فى الإسلام .

كما أن علاقة المسلمين بغير المسلمين قد وردت الإشارة إليها ، وقد كفل الإسلام لغير المسلمين مثل ما كفل للمسلمين، فلهم حق الحياة والحرية والكرامة والتملك والعمل والحل والترحال ، كما أباح الإسلام للمسلمين الزواج منهم وأكل ذبائحهم ورد السلام عليهم ، ومشاركتهم فى الأفراح والأتراح والتصدق عليهم وسد عوزهم وكفالة فقيرهم .

والإسلام وإن أقر التفاوت الاقتصادي بين أفراد المجتمع إلا أنه لم يضيع الفقير من أجل الغنى ولم يدمر الغنى لمصلحة الفقير ، بل كفل للفقير ما تقوم به حياته ، ويسد به عوزه ، وتأثم الأمة ويأثم أهل كل مصرٍ إسلامى بينهم جائع لا يشبعونه ، وقد نفى الرسول ﷺ تمام الإيمان عن كل غنى بات شبعانا وجاره جائع ، وفى الحديث " والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن . قيل من يا رسول الله ؟ قال : من بات شبعاناً وجاره جائع "(١)

إن الحقوق المالية الشرعية فى أموال الأغنياء وموارد الدولة الطبيعية لو جمعت فى صندوق وأعيد توزيعها على الفقراء لما بقى بينهم جائع ولا عريان .

إن نظرةً إلى نسبة الزكاة فى الزروع (العشر أو نصف العشر) بشروطها وزكاة عروض التجارة (٢,٥ %) والركاز (٢٠ %) والمواشى بحسب النوع

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة ٦ / ١٦٤ رقم ٣٠٣٥٩ .

والأنصبة تختلف الأسهم مع [illegible] ٢٠ ٪) من الغنائم كل ذلك كفيل بحل مشكلة الفقر .

وللإسلام نظرة تختلف فى ميدان الاجتماع عن نظرة غيره من النظم وهى إعطاء الفقير حتى يتحقق له الغنى ويتحول من جامع زكاة إلى مخرج للزكاة ، وفى الأثر (أعطوا حتى تغنوا) .

وأجاز الفقهاء إعطاء الزكاة وإن عظمت لفرد واحد إذا كانت ستخرجه من الفقر إلى الغنى ، كما حث الإسلام على اقتحام العقبة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (١) .

وحق العيش مكفول لكل مقيم بديار الإسلام ، وإن كان على غير الإسلام ، والزكاة خير أمان وضمان وتأمين للفرد المسلم ، فإن تحقق له الغنى أخرج الزكاة وإن افتقر أعطيت له الزكاة .

٤- النظام الأخلاقى :

الأصل فى الإسلام بعد الاعتقاد الصحيح الخلق الحسن ، والتكاليف الشرعية بنص القرآن تهدف إلى السمو الخلقى ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (٢) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (٤) ، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٥) .

---

(١) البلد (١٢ — ١٦) .

(٢) العنكبوت (٤٥) .

(٣) البقرة (١٨٣) .

(٤) البقرة (١٩٧) .

(٥) التوبة (١٠٣) .

ومن أقواله ﷺ " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** "(١) .

وقـد حسن الإسلام كل خلق حسن وأمر به وحث عليه ، وقبح كل خلق قبـيح ونفر منه ورتب عقوبة عليه فى الدنيا والآخرة ، وليس بالإمكان بسط القول فى هـذا الأمـر ، وقد أحسن الإمام الغزالى فى معالجة النظام الخلقى فى الإسلام فى كتابه (إحياء علوم الدين) فى ربع المهلكات وربع المنجيات .

وللمرحوم الدكتور دراز كتابه النفيس (دستور الأخلاق فى الإسلام) فضلا عما كتبه آخرون .

إن البشـرية فى عمومها لم تستطع أن تنكر خلقا حسنه الإسلام ، وعجزت عـن تحسين أى خلق قبحه الإسلام ، لأن هناك تلازما بين الوحى الإلـهى والفطرة السـوية ، فمـا اسـتقامت فطرة الإنسان إلا وهو يقر بمدح الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وفعل الخير وتحقيق العدل والإحسان وبذل المعروف ... الخ .

كمـا أن الفطـرة السـوية تنكر الكذب والخيانة ونقض العهد وفعل الشر وارتكاب الظلم ونكران الجهل ... الخ .

إن مـن أهداف الإسلام تطهير الإنسان ظاهره وباطنه ، ولا تقتصر الأخلاق فى الإسـلام عـلى الـهيئة الخارجية ، بل سلامة البنية الداخلية من أهدافه ، فدعوة الإسـلام إلى طهارة القلب من الغل والحقد والحسد والكراهية والشح أمر لا ينكر ، ودعوته إلى سلامة القلب والإخلاص فى القصد ونية الخير أمر لا يفتقر إلى دليل .

❀❀❀

---

(١) البيهقى ١٠ / ١٩٢ اتحاف ٦ / ١٧١ .

ثانيا : المكان وشمولية النظم الإسلامية له

عرفت الدعوات السابقة المحلية والقومية ، ونادى كل رسول قومه باسمهم تألـيفا لقلوبهم ودعوة لإصلاحهم ولم يعلن نبي أو رسول أنه أرسل إلى العالم أجمع في السابقين ، بل صرح كثيرون منهم بخصوصية رسالتهم .

وأمـا رسول الإسلام محمد ﷺ فقد أعلن صراحة أنه رسول رب العالمين إلى الخلق أجمعين ، وكثرت الآيات المكية والمدنية الدالة على ذلك ، والذى ينبغى الإشارة إليه الآن هو شمول النظم الإسلامية للمكان عامة ومدى اهتمامها به .

وإذا كانت كلمة المكان مرادفة من حيث المعنى والمقصود لكلمة الأرض فإن ذلك يتطلب بيان اهتمام الإسلام بالأرض وبلغة العصر [البيئة] وذلك فى النقاط التالية:

١- صرح الإسـلام بخلق الأرض وتسويتها وتهيئتها لسكنى الإنسان ، قال تعالى ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (١) .

٢- ذكر الإسلام أن اللـه خلق الإنسان لسكنى هذه الأرض وجعلـه خليفة فيها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢) وجعل أبناءه خلفاء لـه ، أى يخلف اللاحق السابق أو الأبناء الآباء ، أو يتوالدون فلا ينقرضون بعد الجيل الأول، وكان أمره الالـهى بالعيش فى هذه الأرض إلى ما شاء اللـه ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٣) .

---

(١) فصلت (٩ ، ١٠) .
(٢) البقرة (٣٠) .
(٣) الأعراف (٢٤) .

٣-صرح الإسلام بمحدودية الزمن الذى سيقضيه الإنسان على ظهر هذه الأرض ، وأتاح له فرصة الإعمار وحثه عليه ، ونهاه عن الفساد وحذره منه وقد رأينا الرسل السابقين يحذرون من الفساد فى الأرض كما فى دعوة صالح عليه السلام وهو يقول لقومه ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) ودعوة شعيب ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (٢) ودعوة محمد ﷺ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

٤-قدر الإسلام عقوبة مقدرة على كل من تسول له نفسه الفساد فى الأرض ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤) .

٥-ذكر الإسلام أن الأصل فى البيئة السلامة من العيوب وانتفاء الفساد ، وأن الإفساد ناتج سوء صنيع الإنسان ، قال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ (٥) وقد رأينا فى الآونة الأخيرة صورا للإفساد فى الأرض من صنع الإنسان لم تكن موجودة فى عصر التنزيل مثل : النفايات النووية والكيماوية واليورانيوم المخصب وغاز الخردل والأعصاب والأسلحة البيولوجية الجرثومية وأسلحة الدمار الشامل ، وانقلاب سفن الفضاء فى البحار والمحيطات والتلوث الصناعى وتلوث المواد العضوية المختلفة وعادم السيارات وتآكل

---

(١) الأعراف (٧٤) .

(٢) الأعراف (٨٥) .

(٣) الأعراف (٥٦) .

(٤) المائدة (٣٣) .

(٥) الروم (٤١) .

طبقة الأوزون واضطراب المناخ وتصحر بعض المناطق وغرق أخرى كناتج لقطع الغابات الطبيعية واستبدالها بالعمران أو الزراعة التقليدية ، كل ذلك ناتج قوله تعالى ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ .

٦-دعا الإسلام الناس عامة والمسلمين بخاصة إلى إماطة الأذى عن الطريق ، وفى الحديث " الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " وعن أبى برزة الأسلمى قال : قلت يا رسول الله دلنى على عمل انتفع به قال " اعزل الأذى عن طريق المسلمين " .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : كان على الطريق غصن شجرة يؤذى الناس فأماطها رجل فأدخل الجنة " .

وعن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : عرضت علىّ أمتى بأعمالها حسنها وسيئها فرأيت فى محاسن أعمالها الأذى ينحى عن الطريق ورأيت فى سئ أعمالها النخاعة فى المسجد لا تدفن "[١].

وكل إصلاح فى البيئة يترتب علية أجر جار ، ما دام أثر الإصلاح باق ، ومن الأعمال الجارية للإنسان حال حياته وبعد مماته " نهر أجراه أو بيت لابن السبيل بناه".

٧-دعا الإسلام إلى نظافة المكان الذى يقيم فيه الإنسان ، وفى الحديث "نظفوا أفنيتكم ولا تجعلوها كأفنية اليهود "[٢] ونهى ﷺ عن سوء التعامل مع المكان ، وفى الحديث " اتقوا الملاعن الثلاث ، البراز فى الطريق وفى الظل وموارد المياه [٣] .

٨-يميل الإسلام إلى عمارة الأرض لا خرابها ، لما للإعمار من آثار ايجابية سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية طيبة على الإنسان ، وحرصا على تحقيق الإعمار

---

(١) الأحاديث : سنن ابن ماجه ك الأدب ب إماطة الأذى عن الطريق ومسلم جـ ٦٣/١ رقم ٣٥

(٢) الترمذى ٥ / ١١ رقم ٢٧٩٩ .

(٣) المستدرك ١ / ٢٧٣ وأبو داود ١ / ٧ رقم ٢٦ .

كما في حديث الرسول ﷺ "من أحيا أرضاً ميتة فهي له"(1) كما ورد "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"(2) ومن السنة "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"(3).

٩- التراث الإنسان على ظهر الأرض محل تقدير واحترام ، وقد أحسن الإسلام الانتفاع به والحث على الوقوف عليه والرجوع إليه لأخذ العظة والعبرة . بل حث الله أتباع الرسول ﷺ طوال حياته وبعد مماته على النظر إلى آثار الأمم الباقية ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾(4) وعلى عاد قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾(5) وقد تحدث القرآن عن عاد وإمكاناتها وقوتها العسكرية وحضارتها المادية وما انتهى إليه أمرها ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾(6) وفي سورة فصلت ورد ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾(7).

---

(1) البخاري ٢ / ٨٢٣، رقم ٤٨١٣ .

(2) البخاري ٢ / ٨٧ مسلم ٣ / ١١٨٨ .

(3) مسند أحمد ٣ / ١٩١ .

(4) الفرقان (٤٠) .

(5) الأحقاف (٢٥) .

(6) الفجر (٦ – ٨) .

(7) فصلت (١٥ ، ١٦) .

وذكر القرآن قوم صالح وآثارهم ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

والرسول ﷺ مر على ديار ثمود في طريقه إلى غزوة تبوك ، ونهى أصحابه عن الانتفاع بماء آبارها قائلا لهم : " إنكم بواد ملعون . كما أمر بإطعام الإبل مما عجن من مائه " (مجمع الزوائد ٦ / ١٩٣) .

كما وردت آيات تأمر بالسير والنظر بصيغة العموم ، قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾[2] ، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾[3] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾[4] .

١٠- تقوم العلاقة بين الإنسان والأرض على أساس من التناغم والانسجام لا الصراع والصدام ، وصلة الإنسان بالأرض في الإسلام قوية للغاية ، فمنها منشأه ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾[5] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[6] ومنها غذاؤه ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾[7] ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾[8] ، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[9] وإليها مرجعه ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[10] .

١١- في الأرض دلائل شتى على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[11] وكم كثر الأمر بالسير فيها والنظر والتفكر لأن

---

(١) النمل (٥٢) .
(٢) الروم (٤٢) .
(٣) الروم (٩) .
(٤) غافر (٨٢) .
(٥) طه (٥٥) .
(٦) الحج (٥) .
(٧) المرسلات (٢٥ ، ٢٦) .
(٨) الحجر (٢٠) .
(٩) الملك (١٥) .
(١٠) طه (٥٥) .
(١١) الذاريات (٢٠) .

دلائــل الــهداية تبلغ حداً في الكثرة . و حسب التفسير العلمي للقرآن خير مــا يفصّل القول في هذا الكلام وبخاصة كتاب : اللــه والكون د / الفندى ، والإسلام يتحدى . وحــيد الدين خان ، والتفسير العلمى للآيات الكونية . حنفى أحمد ، وقصة الإيمان للشــيخ نــديم الجسر ، تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهري ، مفتاح دار السعادة لابــن القيم ، مع اللــه في السماء ، مع اللــه في الأرض أحمد زكي ، وللغزالي فضل السبق في هــذا في كتابه (جواهر القرآن) وهناك رابطة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ولــها مجلة تصدر تحوى الكثير من إشارات القرآن الكونية وبخاصة آثار الأمم الماضية وما فيها من عظات وعبر .

١٢- نظم الإسلام العلاقة بين الإنسان والبحار والأنهار ، فأشار إلى تسخيرها وما تقدمــه مــن خدمــات بقدرة اللــه للإنسان ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[1] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[2] ، ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾[3] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾[4] ، ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾[5] .

---

(١) النحل (١٤) .

(٢) إبراهيم (٣٢ ، ٣٣) .

(٣) الشورى (٩٦) .

(٤) الشورى (٣٢) .

(٥) الرحمن (٢٤) .

والآيــات تشير ضمناً إلى وجوب صيانة هذه النعم وشكر المنعم عليها ، فبالشكر تدوم النعم .

كمــا صرح القرآن بأن البحر وسيلة هلاك ووسيلة نجاة بحسب مراد اللــه وقد جمع اللــــه الأمرين فى وقت واحد فى قصة موسى وفرعون لبيان قدرته ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1] .

وفى ختام الحديث عن اهتمام الإسلام بالمكان (البيئة) يمكن القول :

إن لديــنا قواعد عامة يمكن قياس سلامة البيئة عليها ، فإذا كان إيذاء الآخر بالــرائحة الكريهة حرام ، وإذا كان إيذاء الجار برائحة القذر حرام ، وإذا كان إيذاء الغير بأى صورة من الصور حرام ، وإذا كان الظلم حراما ، والقتل المعنوى حراماً كل ذلك بحق فرد واحد ، فما بالنا بمن يقتل أُمَّة ويبيد جماعة ويفسد مجتمعاً ويعطل طريقا ويلــوث بحرا ويفسد نهرا ويدمر عامراً ويصحر أرضاً أوَ لا يعد ذلك حراماً فى شريعة الإسلام ؟

۞۞۞

---

(١) يونس (٩٠) .

ثالثاً : الحيوان وشمول النظم الإسلامية له

ينظر الإسلام إلى كل كائن حي نظرة تقدير ، ويقدر الإسلام الروح باعتبارها سر إلهي ، وكل حيوان حي ، راعى الإسلام فيه الإحساس والإدراك وقد صرح القرآن بخلق الدواب وتسخير الله إياها للإنسان ، كما أشار إلى آداب التعامل معها رسول الله ﷺ قال تعالى ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويمكن إيضاح النظام الإسلامي فى التعامل مع الحيوان على النحو التالى :

١- أحل الإسلام أكل كل حلال طيب وشرع لذلك طرقا مشروعة لحل تناوله وفى الحديث " كل ما أنهر الدم زكاة إلا السن والظفر " (٣) وحرم كل خبيث ضار ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ (٤) ونهى عليه السلام عن أكل لحوم الحمر الأنسية (٥).

---

(١) النحل (٥ - ٨) .

(٢) الحج (٣٦) .

(٣) المعجم الكبير ٢٦/٤.

(٤) المائدة (٣) .

(٥) البخارى ٤ / ١٥٤٤ ، مسلم ٢ / ١٠٢٧ رقم ١٤٠٧ .

٢- يـرى الإسـلام أن الحيوانات كائنات تحس وتتألم لذلك يحرم تعذيبها بأى صورة من الصور ، والحديث المشهور " عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعـاً فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها وسقتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض " (البخارى) .

٣-الإحسان إلى الحيوانات من موجبات الجنة وفى الحديث " وفى كل كبد رطب أجـر "(١) ، وقصة الرجل الذى أبصر كلبا يلـهث يأكل الثرى من العطش فقال لقـد بلـغ به الذى بلغ بى ثم نزل البئر وملأ خفه ماء وصعد فسقى الكلب فشكر اللـه لـه فغفر لـه " .

٤- عـدم الإيذاء المعنوى للحيوانات وكذلك الإيذاء الحسى ، عن عبد اللـه بن مسعود قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فمررنا بشجرة فيها فرخا حُمَّرة فأخذناهما قـال : فجـاءت الحمرة إلى رسول اللـه ﷺ وهى تعرض ، فقال من فجع هذه بفرخيها ؟ قال : فقلنا : نحن . قال ردوهما قال فرددناهما إلى مواضعهما " .

وفى حديـث آخـر " ... ثم أتاه بعير فقام بين يديه ، فرأى عينيه تدمعان فبعث إلى أصـحابه فقـال : ما لبعيركم يشكوكم ؟ فقالوا كنا نعمل عليه ، فلما كبر وذهب عملـه تواعدنا لنحره غداً فقال رسول اللـه ﷺ لا تنحروه واجعلوه فى الإبل يكون فيها "(٢) .

وعن يعلى بن مرة الثقفى قال : ثلاثة أشياء رأيتها من رسول اللـه ﷺ بينما نحـن نسـير معه إذ مررنا ببعير يستسقى عليه ، قال : فلما رآه البعير جَرْجَر ووضع جـرانه ، فوقع عليه النبى ﷺ وقال : أين صاحب هذا البعير ؟ فجاءه ، فقال النبى ﷺ بعنـيه ، قـال : بل نهبه لك يا رسول اللـه ، قال : بل بعنيه قال بل نهبه لك ، وإنه

---

(١) البخارى ٣ / ١٤٧ مسلم ك السلام ١٥٣ .

(٢) سنن ابن ماجه ٢ / ٢١ .

لأهـل بيت ما لـهم معيشة غيره ، قال : أما إذا ذكرت هذا من أمره فإنه قد شكى كثرة العمل وقلة العلف فأحسنوا إليه ...[١]

وعندما رأى الرسول ﷺ رجلا يأخذ برجل شاة ليذبحها قال لـه عليه السلام ويحك ، قدها إلى الموت قودا جميلا[٢].

٣- النهي عن الإستهزاء بالكائنات الحية وبخاصة الراقية منها ، والنهي عن تعذيبها لبعضها كصراع الديكة وقتل الطيور من طريق الصيد ترفا دون الانتفاع بها ، ومـن قتل طيرا عبثاً سئل عن سبب ذلك وطلب منه إعادة الروح إليه وأنى لـه ذلك ؟

٤- من وظـائف المحتسب في الإسلام رعاية العلاقة بين الإنسان وما يملكه من حيوان من حيث الإطعام والسقي والانتفاع في حدود المشروع والنهى عن الإيذاء والتعذيب والتحميل فوق الطاقة ولا يقتصر ذلك على الملكية بل يجرى على الاستئجار كذلك .

وهكذا سبق الإسلام النظم المعاصرة التي أنشأت جمعيات تسمى بـ (جمعية الرفق بالحيوان) في الوقت الذى لا تعرف فيه رفقاً بالإنسان .

٤- شمولية الشريعة الإسلامية للإنسان :

أشرت فيما سبق إلى منزلة الإنسان في الإسلام ، وبحث مدى اهتمام الإسلام به ، والآن نفصل القول في مدى شمول الشريعة الإسلامية للإنسان فنقول :

يحـرص الإسلام على إبراز ذاتية الإنسان المسلم ويجعل لـها من السمات ما ليس لغيرها ، وقد عالج الإسلام ذلك حين اهتم بظاهر الإنسان وباطنه .

---

(١) مجمع الزوائد ٨ / ٧٧ اتحاف ٢ / ٢٠٦ .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٤ / ٤٩٣ رقم ٨٦٠٥ .

فمــن حيث الظاهر : جعل للرجل المسلم سمات خاصة تتعلق بإطلاق اللحية وحــف الشوارب والصبغ بغير سواد ونهى عن إسبال الإزار وحث على المحافظة على الرجولة دون تكسر أو تميع " لعن اللــه المتشبهين من الرجال بالنساء "[1] كما حث المــرأة المسلمة على لبس الحجاب وترك كل ما يصف أو يشف ونهاها عن التميع فى القــول ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾[2] ونهى عن التكسر فى المشية ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾[3] ، كما نهاها عن النمص والفلج والوشــم والوصل حتى لا تكون مزدوجة الذات ، ونهاها كذلك عن مشابهة الرجال وفى الحديث " ولعن المتشبهات من النساء بالرجال " .[4]

كما حرص الإسلام على تأديب المسلمين – رجالاً ونساءً – بآداب شتى منها :

١ – الانتفاع بالحواس مع عدم إساءة استخدامها وبخاصة حاسة البصر ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾[5] ، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[6] وفى السنة كثير من الآداب المتعلقة بحاسة البصر .

ومــثل ذلــك حاسة السمع ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[7] وعن اليد ورد قول الحق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[8] وعن الفرج ورد ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[9] وعن اللسان ورد قول

---

(١) حم ١ / ٣٣٩ طب ١٠ / ٢٥٢ .
(٢) الأحزاب (٣١) .
(٣) النور (٣١) .
(٤) مجمع الزوائد ٨ / ١٠٣ .
(٥) النور (٣٠) .
(٦) النور (٣١) .
(٧) الإسراء (٣٦) .
(٨) الإسراء (٢٩) .
(٩) المؤمنون (٥ – ٧) .

الرسول ﷺ " أمسك عليك لسانك " (الترمذى ٤٠٦ فتح البارى ١٠ / ٤٤٧)

وعن الرجل ورد ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [1] وصرح الإسلام بأن حواس الإنسان ستشهد على سلوكه أمام الله ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

٢- التأدب فى الخطاب واختيار أفضل الكلام والنأى عن فحش القول وبه ورد الأمر كثيراً فى القرآن ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [4] ، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [5] ، ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [6] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [7] .

كما نهى الإسلام عن الغيبة والنميمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [8] .

٣-التأدب فى الإشارة ، وقد توعد الله أناساً قامت إشارتهم على أساس من الاستهزاء بالآخرين . قال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [9] ، ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [10] ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) لقمان (١٩) .
(٢) النور (٢٤) .
(٣) فصلت (٢١ ، ٢٢) .
(٤) البقرة (٨٣) .
(٥) طه (٤٤) .
(٦) الإسراء (٢٨) .
(٧) الأحزاب (٧٠) .
(٨) الأحزاب (١١) .
(٩) الهمز (١) .
(١٠) القلم (١٠ ، ١١) .

رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ [١] ، ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ [٢] .

إن الآيات السابقة لتشير إلى إشارات مذمومة ودلائل غير محمودة وتصرفات ينكرها الإسلام على فاعلها .

والأصل فى الإسلام : أن ما يصدر عن المسلمين من إشارات ينبغى أن ينبئ عن سلامة سريرتهم . لأن الأصل فى الإسلام هو سلامة الصدر ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [٣] ، ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ [٤] .

وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على أن يكون ظاهرهم كباطنهم ، وكل مخالفة تعد لونا من النفاق وفى الحديث " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا أؤتمن خان "[٥] (البخارى ٧ / ١٥ ، مسلم الإيمان ١٠٧ ، ١٠٩ ، حم ٢ / ٣٥٧) .

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى بشاشة الوجه وجعل ذلك لونا من الصدقة وفى الحديث " وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة "[٦]، وفى حديث آخر " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه "[٧] .

۞۞۞

---

(١) المنافقون (٥) . (٢) نوح (٧) .

(٣) الشعراء (٨٨ ، ٨٩) . (٤) الشعراء (١٢٤) .

(٥) البخارى ٧ / ١٥ ، مسلم الإيمان ١٠٧ ، ١٠٩ ، حم ٢ / ٣٥٧ .

(٦) البخارى ٢ / ١٤٣ مسلم ك الزكاة ٥٥ ، ٥ / ٦٤ .

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ٥/٢١٢ رقم ٢٥٣٣٣ ..

اهتمام الإسلام بباطن الإنسان

صرح الإسلام بأن استقامة قلب الإنسان مدعاة لاستقامة ظاهرة وفى القرآن الكريم تحذير من إساءة استخدام القلب وحث على صلاحه وإصلاحه ، قال تعالى ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [١] وفى الحديث " ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب "[٢].

وقد اهتم علماء المسلمين بالقلب دراسة وتحليلا ، فبينوا أمراضه وعلله وعوامل السلامة ودواعى الاستقامة فليراجع فى مؤطنه من مؤلفات علماء الإسلام وإذا كان القلب دون النفس ، فإن الإسلام قد استخدم النفس كثيراً فى مصادره ، وقسم القرآن النفس بحسب حال أصحابها إلى :

١- نفس مطمئنة . وهى السهادئة الراضية عن الله والراضى عنها الله وهى فى أسمى المراتب وعاقبتها خير عاقبة ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [٣] .

٢- النفس اللوامة : وهى التى تلوم صاحبها عقب كل ذنب فعله أو خير فرط فيه أو عبادة أنسأها أو تركها ، وصاحبها بين بين ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [٤] .

٣- النفس الأمارة بالسوء . وهى التى استمرأت المعصية وحملت صاحبها دوماً عليها ، وسوء عاقبتها محقق إلا أن يعدل صاحبها عن ذلك ، قال

---

(١) الإسراء (٣٦) .

(٢) البخارى ١ / ٢٨ رقم ٥٢ ومسلم ٣ / ١٢١٩.

(٣) الفجر (٢٧ — ٢٩) .

(٤) القيامة (١ ، ٢) .

تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

إن نصوص القرآن أحرص ما تكون على استقامة باطن الإنسان ، وكم من آيات وردت تحمل الإنسان مسئوليته عما بداخله ، وتعتبر نية الخير أساسا للثواب وإن لم يفعله الإنسان ، ونية الشر أساساً للعقاب وإن لم يقدم عليه الإنسان ، وفى الحديث قال رسول الله ﷺ " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت "(٢) ، وفى القرآن الكريم ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وهكذا تؤاخذ الشريعة الإسلامية الإنسان بما تعجز عنه القوانين الوضعية لخصوصية الشمول لظاهر الإنسان وباطنه .

۞۞۞

---

(١) يوسف (٥٣) .

(٢) مسلم ١ / ١١٨ رقم ١٣٠.

(٣) البقرة (٢٨٤) .

الخصيصة الرابعة
(الواقعية فى الخطاب والعقلانية فى الإقناع)

ويراد بالواقعية : مراعاة واقع الإنسان وطبعه وتكوينه عند الخطاب الإلــهى لــــه ، فهى واقعية خطاب وواقعية إلزام وواقعية سلوك والتزام فى غير إكراه ولا ملل ولا عجز ولا سأم .

وأما العقلانية فيراد بها : مخاطبة العقل بما يقنعه وتقديم الحجج والبراهين وذكر المقدمات والنتائج دون اعتماد أسلوب الإكراه أو الالجاء .

ويمكن معالجة الواقعية فى الإسلام فى الجوانب الآتية :

أولاً : النظرة الواقعية للإنسان من حيث التكوين والنوع والفطرة .

ثانياً : الواقعية فى تقرير العقيدة والدعوة إليها .

ثالثاً : الواقعية فى تقرير الشريعة والدعوة إليها .

رابعاً : الواقعية فى تقرير الأخلاق والدعوة إليها .

ويمكن بيان ذلك فيما يلى :

أولاً : النظرة الواقعية للإنسان من حيث :

أ- التكوين :

عرفت البشرية نظما شتى غير إلــهية ، ذهب بعضها إلى أن الوجود الحقيقى هو الوجود الروحى ، وقد دعا هؤلاء إلى السمو الروحى فقط ، مع الحرص على قتل الجسد من طريق المبالغة فى العبادة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (١) .

---

(١) الحديد (٢٧) .

وادعى البعض – من غلاة هذا الاتجاه – أن الوجود الأبدى للروح وأن الوجود المادى يؤثر سلبا على الروح ، وإلى هذا ذهب المانوية والبرهمانية والبوذية ، كما أن نظرية المثل عند أفلاطون أقرب ما تكون إلى هذا الاتجاه وقد رأينا هؤلاء ينصرفون عن الواقع الكونى من حيث الخلافة والإعمار والتحضر ... الخ وذهبت بهم أيديولوجياتهم إلى النأى إلى شعب الجبال والإقامة فى الأديرة والكهوف والأكل مما تنبت الأرض من خشاشها واستعذاب الحشرات والتلوث بالقاذورات ومضى الأيام والليالى بلا مطعم ولا مشرب لقتل الجسد وسمو الروح بدعوى (النرفانا) أى الفناء فى الأعلى .

وقابل الاتجاه الروحى اتجاه مادى مفرط ، لا يؤمن بالروح ولا يرى إلا المادة موجوداً . وأصحاب هذا الاتجاه هم الماديون ، ويمثلهم قدامى فلاسفة اليونان الذين رأوا الوجود الإنسانى ناتج تفاعل عناصر أربعة هى : الماء والهواء والتراب والنار ، ومزدك فى بلاد فارس الذى أسرف فى المادية ودعا إلى الشيوعية فى المال والأهل والولد

وفى العصر الحاضر (القرن العشرين) ظهرت المادية من جديد بصورة قوية اعتمدت السيف كسبيل لحمل الناس عليها ، وبخاصة الثورة البلشفية وأعلن أهلها صراحة أن (الدين مخدر) . (الدين أفيون الشعوب) . (لا إله والحياة مادة) . (المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم) . (آن للإنسان أن يتأله وآن للإله أن يتأنس) ... الخ
أحرقت المصاحف والكتب المقدسة وحولت دور العبادة إلى مسارح ودور للسينما وحظائر للماشية ، وكممت أفواه وأبيدت عائلات بسبب تمسكها بالجانب الروحى (العبادة) .

جاء الإسلام ليصحح أخطاء الماضى ولتقي الفكر الإنسانى من الخطأ فى الحاضر والمستقبل إن لم يكن للبشرية عامة فللمسلمين بخاصة ، وتحدث حديث العليم الخبير بحقيقة الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [1] فذكر ما تمت

---

(١) الملك (١٤) .

الإشارة إليه سابقا من كون الإنسان مادة وروحاً ، شق محسوس ملموس وشق لطيف خفى من أسرار اللـــه فى الإنسان ، وقد شرع لكل ما يناسبه كما سبق .

ب- من حيث النوع :

وكما كان الإسلام واقعيا فى حديثه عن تكوين الإنسان (مادة وروح) فقد كان واقعيا فى حديثه عن النوع (ذكر وأنثى) والآيات كثيرة فى هذا .

وقد راعى الإسلام قدرة كل نوع فحملـــه ما ينبغى عليه القيام به ، وأسقط عنهما معا ما يعجزان عن القيام به ، واسقط عن كل نوع ما يعجز عنه أو يشق عليه القيام به ...

لقـــد حمل الإسلام الرجل المسئولية الاجتماعية تجاه الأسرة والمجتمع ، فهو فى بيـــته قـــيم عليه ومسئول عنه دينيا ودنيويا ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[1] ، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[2] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[3] ، كما أنه مسئـــول عن وقاية أهلــه من الأذى والدفاع عنهم إلى حد القتل " من قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهلــه فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد "[4] .

وهـــو مســـئول عن المجتمع فى وقايته من أذى أعدائه بالاختيار أو الاضطرار حسب مقتضى الحال وعليه أداء الجمعة والجماعة والنفقة ...

وأما المرأة فقد أسقط الإسلام عنها القوامة والنفقة والجمعة والجماعة والجهاد والحج إن لم يتوفر الأمن والصيام - إن كانت المشقة - والصلاة مع الأعذار بلا إعادة لـــها فى حال الطهر لرفع المشقة .

---

(١) النساء (٣٤) . (٢) طه (١٣٢) .

(٣) التحريم (٦) . (٤) البخارى ٣ / ١٧٩ مسلم ك الإيمان ٢٤٦ .

كما أسقط عنها الآذان مراعاة لطبعها وصونا وسترا لـها ، ووقاية من أذى الآخرين ، وقد ألفت كتب شتى فى فقه النساء .

جـ - من حيث الفطرة :

والحديث عنها لـه اتجاهان :

الاتجاه الأول : التدين :

الاتجاه الثانى : الخير والشر .

والتدين : أمر فطرى فطر اللـه الإنسان عليه ، ومن لم يعبد اللـه من طريق الوحى عبده من طريق الوضع ، ومن لم يستجب إلى داعى الرحمن استجاب إلى داعى الشيطان ، ومن لم يتبع عن طريق الوحى الإلـه ، اتخذ إلـهه هواه .

وقـد راعى الإسلام واقع الإنسان من ناحية التدين فأرسل لـه رسلاً وأنزل عليه كتبا ورسم لـه سبيلا للعبادة وأقام عليه الحجة وألزمه بالحجة ، وفاوت لـه فى أنواع العبادة فمن عجز عن نوع عبد من نوع آخر ، مراعاة لمقتضى الحال وحسبنا أن العبادات فى الإسلام منها البدنية ومنها المالية ومنها المالية البدنية ومنها الظاهرية ومنها القلبية ومنها اللسانية ومنها سوى ذلك .

إن رفـض الدين مصادم للفطرة ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[1] ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2] .

كمـا أن الغلو فى الدين منهى عنه شرعاً بنص القرآن والسنة ، فالتقوى مقيدة بالاستطاعة ، وبعدم هلكة النفس ، والتكاليف فى أساسها فى حدود الطاقة والرسول ﷺ

---

(١) الحج (٣١) . (٢) طه (١٢٤) .

نهى عن الغلو في الدين " إن الدين يسر " [١] ، " إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى " [٢] ، " ولكن ساعة وساعة " [٣] .

والخير والشر عند الإنسان في الإسلام لا يقوم على أساس أن الإنسان خير محض أو شر محض ، ونصوص القرآن واضحة الدلالة في هذا الجانب ، فقد ذكر الإسلام صلاحية الإنسان لسلوك أحد السبيلين بالاختيار الحر ، وكل سلوك تحت وطأة الإكراه لا يؤاخذ الإنسان عليه ، قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٤] ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [٥] ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [٦] وفي الحديث " ما من أحد منكم إلا وكل به قرين من الجن وقرين من الملائكة ، قالوا وأنت يا رسول الله قال وأنا إلا أن الله أعانني على شيطاني فأسلم " [٧] ، " إن للشيطان لمة بابن آدم وإن للملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالحق وتكذيب بالشر " [٨] .

إنما واقعية الإسلام في نظرته للإنسان من حيث الخير والشر ، ولذلك رأينا الإسلام يذكر بالتقوى ، ويصرح بأن نزغ الشيطان يمحقهم محكي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [٩] وفتح باب التوبة للعصاة حتى لا ييأسوا ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

---

(١) ن ٨ / ١٢٢ – هق ٣ / ١٨ .
(٢) هق ١ / ١٩ .
(٣) ابن حبان ٢ / ٥٥ ومسند أبي يعلى ٥ / ٣٧٨ .
(٤) الشمس (٧ – ١٠) .
(٥) الإنسان (٣) .
(٦) الزلزلة (٧ ، ٨) .
(٧) حم ١ / ٤٦٠ .
(٨) الترمذي ٢٩٨٨ .
(٩) الأعراف (٢٠١) .

حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (١) ومهما كان الإسراف فباب الأمل مفتوح ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (٢).

وأما من استمرأ فى المعصية وداوم عليها كان مصيره الطبع على قلبه والختم عليه ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٣)، ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٤).

إن الإنسان فى الإسلام ليس ملاكا معصوما من الخطأ - باستثناء الأنبياء - وليس شيطانا باستثناء من ضرب لهم المثل فى العناد والكفر كفرعون وهامان وقارون وأبو لهب ومن دار فى فلكهم، وإنما هو إنسان له خصائصه ومزاياه.

ثانياً : الواقعية فى تقرير العقيدة والدعوة إليها

إذا كان الإيمان بمصدر للكون أمرا فطريا، فإن الحق سبحانه لم يشأ أن يكره الناس على الإيمان به خالقا، قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٥)، ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ (٦)، ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٧).

إن الإسلام قد سلك منهجا واقعيا فريداً فى تقريره أصول العقيدة، نلمح ذلك فى الجوانب التالية :

---

(١) الفرقان (٧٠).
(٢) الزمر (٥٣).
(٣) البقرة (٧).
(٤) المطففين (١٤).
(٥) يونس (٩٩).
(٦) الشعراء (٤).
(٧) البقرة (٢٥٦).

أ- اعتمد الإسلام قانون السببية عند إقامة الدليل على وجود الله، قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (١)

ب- ذكر الحق أسباب استحقاقه للربوبية والعبودية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢)

وهناك آيات كثيرة ذكرت الربوبية وصرحت بآثارها في واقع الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (٣)، ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا﴾ (٤)، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥).

جـ- ذكر الحق استحقاقه للألوهية وأقام الدليل على أنه لا يستحق الألوهية إلا واحد هو الله، وحسبنا الآيات الست التي وردت في سورة النمل (٥٩ — ٦٥)

وفي سورة القصص ذكر بعض الوجوه على استحقاقه للألوهية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ

---

(١) الطور (٣٥ - ٣٦).

(٢) البقرة (٢١ ، ٢٢).

(٣) يونس (٣).

(٤) الإسراء (٦٦).

(٥) الأنبياء (٥٦).

وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، وهناك الكثير من القوانين التي تشير إلى سنن الله في الكون ، كسنة الرعاية والعناية (فاطر ٤٠) وسنة النظام (الملك ٣ ، ٤) وقانون الغاية (القمر ٤٩) وقانون الجاذبية (الرعد ٢) وقانون السببية (الكهف ٨٤) وقانون الطفو (الشورى ٣٢ ، الرحمن ٢٤) .

د- قارن الحق بين المعبودات الوضعية وبين ذاته العلية من حيث الذات والصفات والأفعال ، وذكر ذلك واضحا على لسان إبراهيم ومحمد عليهما السلام معتمدا على الواقع المرئي المحسوس الملموس ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (٣) .

وفي إطار التحدي بالواقع في ميدان الألوهية خاطب المشركين أن يَدْعوا آلهتهم بفعل شئ يدل على ألوهيتهم مع تحديهم بالعجز عن فعل ذلك زيادة في الإنكار والاستفزاز ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ

---

(١) القصص (٧١ ، ٧٢) .

(٢) الشعراء (٧٢ ، ٧٣) .

(٣) الأعراف (١٩١ - ١٩٥) .

(٤) الحج (٧٣) .

وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ * فَإِن لَّم تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّت لِلكَافِرِينَ ﴾ (١).

وحين ادعى النصارى ألوهية المسيح وأمه ، لفت الإسلام نظرهم إلى الواقع ﴿ مَا المَسِيحُ ابنُ مَريَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (٢).

وذكر الإسلام مناقشة إبراهيم لقومه في ألوهية الكواكب والقمر والشمس معتمدا على المشاهدة والواقع وألزمهم الحجة على أساس الواقعية (٣). وفي إطار إثبات الوحي إلى الرسول ﷺ اعتمد الإسلام على الواقع أيضا سواء بالرد إلى الوحي لدى السابقين أو بالجمع بين الوحي لرسل الله أجمعين أو بالقياس ، قال تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلنَا إِلَيكَ فَاسأَلِ الَّذِينَ يَقرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبلِكَ ﴾ (٤) ، ﴿ إِنَّا أَوحَينَا إِلَيكَ كَمَا أَوحَينَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعدِهِ وَأَوحَينَا إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيمَانَ وَآتَينَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (٥) ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٦) وعندما أنكر اليهود الوحي إلى الرسول ﷺ نزل القرآن ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدرِهِ إِذ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيءٍ قُل مَن أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (٧).

---

(١) البقرة (٢٣ ، ٢٤) .

(٢) المائدة (٧٥) .

(٣) الأنعام (٧٦ — ٧٨) .

(٤) يونس (٩٤) .

(٥) النساء (١٦٣) .

(٦) الشورى (٣) .

(٧) الأنعام (٩١) .

وحين شكك المشركون فى القرآن الكريم تحداهم فى الواقع أن يأتوا بمثل القرآن هم وأشياعهم ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [١] فلما عجزوا فى الواقع تحداهم بعشر سور ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] ثم تبسط معهم فى التحدى إلى سورة واحدة ، يستوى فى ذلك قصير السور وطويله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٣] .

إن التحدى بالصور السابقة للتحدى لا يزال قائما ، ولا تزال البشرية عاجزة عن الإتيان بمثله ، وقد شهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء ، والمعرضون قبل المؤيدين ، والترهات التى وردت على لسان مسيلمة الكذاب والأسود العنسى وسجاح وغيرهم لا تعدوا أن تكون سفاسف أو هراء من القول لا يرقى إلى مستوى الذوق العربى السليم .

وأما نبوة الرسول ﷺ فقد اعتمد الإسلام على الواقع فى الحديث عنه وإثبات نبوته ورسالته والرد على خصومه ، كل ذلك بأسلوب مقنع يتأتى قبوله ويتعذر رده .

لقد صرح القرآن ببشرية الرسول فى كثير من الآيات ، وقرن ذلك بالنبوة والرسالة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [٤] ، ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [٥] .

وأيده بالمعجزة الحسية والمعجزة العقلية كواقع تم التحدى به لإقامة الدليل على نبوته ورسالته ، وكلما أثيرت شبهة بحقه كان الرد معتمداً على الواقع ﴿ وَقَالُوا

---

(١) الإسراء (٨٨) . (٢) هود (١٣) .
(٣) البقرة (٢٣) . (٤) الكهف (١١٠) .
(٥) الإسراء (٩٣) .

مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [1] فكان الرد ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [2] وعندما ادعوا تركيزه على الزواج وطلب الولد جاء الرد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [3] وحين ادعوا أنه يتعلم من بشر علما يدعي به النبوة والرسالة نزل النص ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [4]

وعندما علقوا الإيمان به على مطالب حسية فيها خرق للعادة وقلب لسنن الله الكونية نزل النص بالإجابة ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [5] وعندما ادعى المشركون نفي رسالته نزل الوحي ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [6] وقد صرح القرآن بنهاية المطاف للرسول ﷺ شأنه شأن سائر البشر قال تعالى ضاربا الشاهد من الواقع ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [7] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [8]

۞۞۞

---

(١) الفرقان (٧) .
(٢) الفرقان (٢٠) .
(٣) الرعد (٣٨) .
(٤) النحل (١٠٣) .
(٥) الإسراء (٩٠ — ٩٣) .
(٦) الرعد (٤٣) .
(٧) الأنبياء (٣٤) .
(٨) آل عمران (١٤٤) .

اليوم الآخر والواقع

اعتمد القرآن في الإلزام باليوم الآخر على الواقع ، سواء في إقامة الدليل على إمكانية البعث أو في الإقناع به ، قال تعالى في تقريره لإمكان البعث ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وعندما سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ضرب الله له مثلاً من الواقع ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

ومثل ذلك حديث القرآن عن العزير وذلك في قول الحق ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

وحول الإقناع باليوم الآخر والإلزام به وتهيئة النفس لذلك طرح كثيراً من الأسئلة تعتمد على الواقع في الإجابة ، قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ (٥) ، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ

---

(١) فصلت (٣٩) .

(٢) البقرة (٢٦٠) .

(٣) البقرة (٢٥٩) .

(٤) الرعد (١٦) .

(٥) فاطر (١٩ — ٢٢) .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [١] ، ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ [٢] .

وهناك أسئلة تبلغ حداً في الكثرة تعتمد على الواقع في تقرير البعث والثواب والعقاب .

ثالثاً : الواقعية في تقرير الشريعة والدعوة إليها

إذا كانت العقيدة هي الشق النظرى في الإسلام ، فإن الشريعة والأخلاق هما الشق العملي في الشريعة الإسلامية .

والشريعة تحتوى على العبادات والمعاملات والأنكحة والحدود والجنايات والجهاد ، وتتجلى واقعية الإسلام في مجال الشريعة من جانبين :

الجانب الأول : عام يشمل كافة التكاليف الشرعية :

الجانب الثاني : خاص بكل تكليف على حده .

ويمكن بيان ذلك في الآتي :

أولاً : الواقعية في مجال التكاليف الشرعية

راعى الإسلام في تكاليفه الشرعية الأمور التالية :

أ- القدرة والعجز عند التكليف ، قال تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ﴾ [٣] ، ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [٤] ، ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [٥] وبشأن

---

(١) ص (٢٨) .

(٢) الجاثية (٢١) .

(٣) التغابن (١٦) .

(٤) البقرة (٢٨٦) .

(٥) الطلاق (٧) .

الصيام ورد ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم ... أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ... على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ [1] وبشأن الجهاد ورد ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [2] وعن الحج ورد ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ [3].

ومن مراعاته للقدرة والعجز رفعه التكليف عن ثلاث كما فى الحديث " رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق "[4].

ب- الحل والترحال : فكثير من العبادات يختلف حكمها باختلاف السفر والإقامة والحر والبرد ، قال تعالى ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ [5] وعن الصيام ورد ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ [6] وفى الحديث " ليس من البر أن تصوموا فى السفر " [7]، ويجوز عند شدة الحر والبرد جمع الصلاة وترك الجمعة وترك الجماعة بحسب الضرورة .

جـ- تقدير الأمور بحسب آثارها فى ضوء الواقع : وقد كثرت القواعد الفقهية المتعلقة بهذا الأمر ، كقاعدة الضرر يزال ، درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، الضرر لا يزال لضرر أكبر منه ، ارتكاب أخف الضررين ومن العلوم الحديثة علم يسمى بفقه الأولويات ، فقه الواقع ، فقه النوازل .

---

(١) البقرة (١٨٤ ، ١٨٥) . (٢) الفتح (١٧) .

(٣) آل عمران (٩٧) .

(٤) النسائى ٦ / ١٥٦ ، حم ١ / ١٤٠ هق ١ / ٥٦ .

(٥) النساء (١٠١) . (٦) البقرة (١٨٤) .

(٧) البخارى ٣ / ٤٤ مسلم الصيام ب ١٥ رقم ٩٢ .

كما قدر الضرورات بقدرها ، وكل آيات التحريم المتعلقة بالأطعمة والأشربة قد قيدت بعدم الاضطرار ، وأما المضطر فالحرج عنه ساقط ، قال تعالى ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [1] ، ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [2] .

د- مراعاة النزوع والأهواء فى المعاملات : وذلك بوضع أصولـها وتقرير قواعدهـا مع ترك كيفية التطبيق لمستجدات الزمان ، ولو ترك الحق الناس إلى أهوائهم ما استقامت المعاملات ولا صلح المجتمع ، لذلك رأينا الشريعة الإسلامية تضع القواعد العامـة مثل حل البيع وحرمة الربا وإباحة السلم والسلف والرهن والإجارة والمساقاة والمزارعة والكفالة والوكالة والقراض ... الخ .

هـ -مراعاة السنن الإلـهية فى عمارة الكون : فميل الرجل إلى المرأة أمر فطـري ومـثل ذلـك ميل المرأة إلى الرجل ، وحتى لا يكون إشباع الغرائز على غير هـدى، ويكون الناتج على أساس من الردى ، جعلت الشريعة الإسلامية الاتصال بين الطـرفين مرتبطا بقواعد شرعية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [3] ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [4] وفى الحديـث " فإنكم أخذتموهن بأمانة اللـه واستحللتم فروجهن بكلمة اللـه " (البخارى ٧ / ٣٤) .

كمـا راعى الإسلام الواقعية فى الحب والتعدد والخلاف بين الزوجين والإصلاح ووضع قواعد لعلاج النشوز وأباح الطلاق والخلع بآداب معروفة فى الفقه الإسلامى .

---

(١) البقرة (١٧٣) .

(٢) المائدة (٣) .

(٣) الروم (٢١) .

(٤) النساء (٢٥) .

و- ومــن واقعية الشريعة الإسلامية فرضها حدوداً وتقديرها عقوبات على جــرائم معيــنة ، لعــلم الخالق أن أفراداً معينين لا يردعهم إلا الضرب على أيديهم بــالحديد، ولذلــك جاءت العقوبات محققة الأمن للواقع جالبة الطمأنينة لأفراده نافية الخــوف عن أهلــه ، مع توفر العلم بالعقوبة المقدرة من خلال النصوص التى تقرأ فى الكــتاب والســنة ومــا أظن سارقا أو زانيا أو سكيرا أو مرتدا إلا وهو يعلم العقوبة مقــدرة شــرعاً على فعلته ، وكأنه بالأقدام على الفعل قد استهان بالعقوبة وبالشرع وبحــق المجــتمع ، ولذلك منع الإسلام الإمام من العفو فى الحد إذا بلغه العلم به ، وفى الحديث " تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد وجب "(١) .

وقد أثبت التطبيق العملى الآثار الإيجابية لإقامة الحدود فى الماضى وفى العصر الحاضــر تنعم به المملكة العربية السعودية بنعمة الأمن بعد تطبيقها للحدود التى أقرتها الشريعة الإسلامية ...

ز- ومــن واقعــية الإسلام شريعة الجهاد : لأن الاعتداء ليس قاصراً على الأفــراد ، بل إن الدول لتعتدى على غيرها كذلك ، وقد حرص الإسلام على صيانة حــدود الأمــة الإسلامية حين شرع الجهاد وأذن بالدفاع عن الأرض والعرض والمال والديــن وحــث على التماس أسباب القوة لدرء خطر العدو بل اعتبر الإعداد القوى سبيلا لمنع الحرب .

الجانب الثانى : خاص بكل تكليف على حدة :

ففى مجال الاعتقاد كان المشركون يُكْرِهون بعض المسلمين على النطق بكلمة الكفر ، وقد تأثر بعضهم بعد النطق بها ، فإذا بالإسلام يأذن لمن فرض عليه الواقع أن

---

(١) أبو داود ٤٣٧٦ النسائى ك قطع السارق ب ٥ .

يسلك هذا المسلك ، بأن ينطق بكلمة الكفر قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[1] وأذن عليه السلام لمن نزل به ذلك قائلا : " إن عادوا فعد "[2].

وقد يكون ذلك نظريا في عالمنا الإسلامي ، ولكن في بلاد الشيوعية كانت التقية مع كثيرين وكان الاعتصام بالعقيدة والجهر بعكسها مما يعرض للوقاية من القتل .

وأما الواقعية في مجال العبادات فهي أوضح ما تكون في مراعاة الظروف الصحية للمصلي ، فإذا كان الوضوء شرطاً لصحة الصلاة فإن تعذر استعمال الماء أو فقده حقيقة أو حكما ، وأذن الإسلام باستعمال التراب الطاهر ، ومن عجز عن استعمال الطهور ، صلى بدون وضوء ، كما راعى الإسلام أصحاب الأعذار كمرض سلس البول والريح ...

وبالنسبة للصلاة ورد في الحديث " صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب "[3].

ومن واقعية الإسلام مراعاة السفر والمطر وجواز الجمع فيهما والقصر حال السفر ، كما تتجلى الواقعية في إسقاط الجماعة والجمعة عن النساء ، وعدم مطالبة المرأة بإعادة الصلاة المتروكة بسبب الأعذار حتى لا تكون المشقة .

وأما الصوم . فالواقعية فيه أوضح ما تكون في إيجاب الفطر على المرأة النفساء والحائض والإذن بها للحامل والمرضع حتى لا تجتمع شدائد عدة على المكلف .

ومثل ذلك السماح بالفطر في حال السفر ومع كل شدة يتعذر معها الصوم .

ومن واقعية الإسلام السماح للمتزوجين بالاستمتاع ليالي رمضان في الوقت المتاح فيه الفطر ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ ﴾[4].

---

(١) النحل (١٠٦) .

(٢) هق ٨ / ٢٠٨ المستدرك ٢ / ٣٥٧ .

(٣) البخاري ٢ / ٦٠ أبو داود ٩٥٢ الترمذي ٣٧٢ .

(٤) البقرة (١٨٧) .

وأمـا الواقعيـة فى الزكاة فهى أوضح ما تكون فى رعاية حق المزكىِّ وحق المستفيد ، فقد راعى الإسلام واقع المزكىِّ حين كفل حداً أدنى فى الزرع لا تخرج الزكاة دونه [خمسة أوسق] وقليل [عشرين مثقالاً] من الذهب أو ما قيمته من المال لا تخرج منه زكـاة ، وجعل زكاة المال مرة كل عام لاختلاف النماء باختلاف المواسم، وفاوت بين الأنصبة فى ضوء الواقع ، فالذى يروى بماء السماء فيه العشر ، ومـا تسقيه النواضح فيه نصف العشر وأما عروض التجارة ففيها ٢,٥ % وهى نسبة لا تجهد التاجر بعد إسقاط كافة المصروفات والديون ، كما أنها سنوية ولو كانت يومية أو أسبوعية أو شهرية لأجهدت المزكي .

وفى إيجاب الزكاة على الأغنياء واقعية تحقق الأمن والطمأنينة لأن العطاء يقضى على الشره ، ويكسر حدة الشر ويمنع من التفكير فى السرقة ... الخ ..

وأما مراعاة واقع الفقير فهو واضح فى كفالة حق العيش الكريم لـه بالحرص على إخراجه من واقع الآخذ إلى واقع المعطى ، وجعلت لـه حقا فى كل ما تنبت الأرض عند بعض الفقهاء وأوجبت لـه هذا الحق يوم الحصاد ، واشترطت أن يكون من طيب الحصاد ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ (١) .

كمـا راعت واقع الفقير فى تنويع مصادر الزكاة وموارد الصدقة بين زروع وثمـار وعروض تجارة وصدقة فطر وكفارة ظهار وكفارة يمين وفطر فى رمضان ، كل ذلك لحل مشكلة الفقر الواقعية .

وأما الواقعية فى الحج . فهى أوضح ما تكون فى عدم إيجابية إلا على المستطيع عمليـا بنفسـه ومالـه ، فإن استطاع بنفسه ولم يستطع بما لـه فلا حج عليه وإن استطاع بمالـه ولم يستطع بنفسه سقط كذلك ، وأما الاستطاعة بالغير فى غير سرف

---

(١) البقرة (٢٦٧) .

ولا تسرف ولا مزايدة فلا شئ فيها وهو حل لمشكلة تقع لبعض الناس يتعذر عليهم الأداء بأنفسهم فيؤدون بغيرهم .

ومن واقعية الإسلام في الحج إيجابه مرة واحدة في العمر لما فيه من مشقة بدنية ومالية . وكذلك توفير الأمن للمرأة من أجل وجوبه عليها ، فإن لم يتوفر لها الأمن سقط الحج عنها إلى حين الاستطاعة .

ومن واقعيته كذلك مراعاته الطوارئ والأعذار ، كالوصول بعد عرفة والاحصار وإصابة المرأة بما تصاب به النساء وبخاصة في يوم عرفة وعند الوداع ومع طواف الإفاضة فضلا عما أذن به الإسلام من يسر في الحج مراعاة لحال الحجيج .

ومن واقعية الإسلام أنه أذن بالتجارة حال الحج ، وأوجب ستر العورة على عكس تقاليد الجاهلية ، قال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [1] ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [2] .

كما جعل الإسلام لكل مشكلة في الحج حلا ولكل محظور كفارة ولكل إفساد عقوبة ، لأن الخطأ من سمة الإنسان ، وقد اشترط العلماء العلم بالحكم والعمدية في الفعل حتى تكون العقوبة المقدرة ، فإن كان الخطأ والنسيان فلا شئ من العقوبات بنازل على المخالف .

ومن واقعية الإسلام في شريعة الحج أنه جعله مرة واحدة في العمر وبها تسقط الفريضة ، وأذن في الوقت نفسه بالتكرار لا على أنه فريضة ، بل سنة ، كما أذن بالحج عن الغير حال الحياة وبعد الممات وسمح بتكرار العمرة مراعاة للأنفس التواقة إلى زيارة هذه المناسك .

وهكذا تبدو الواقعية وصفا لازماً للشريعة الإسلامية في كافة العبادات .

---

(١) البقرة (١٩٨) .

(٢) الأعراف (٣١) .

رابعاً : الواقعية في تقرير الأخلاق والدعوة إليها في الإسلام :

الأخـــلاق عامة وأمهات الفضائل بخاصة قرينة الوجود الإنساني وقد عرفت البشـــرية دعـــوات شـــتى للرسل ، ركزت على جوانب ثلاثة هي العقيدة والشريعة والأخلاق .

وجـــاء الإسلام ولدى البشرية أخلاق شتى منها الحسن ومنها القبيح ولـــهم عادات وتقاليد منها المرذول ومنها المقبول ، فحسن الإسلام " الحسن وأقره ودعا إليه، وقبح القبيح وحذر منه وهذب ما تطلب التهذيب وأتم ما نقص في هذا الجانب ، وفي الحديث " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [1] .

وتتأكد واقعية الأخلاق الإسلامية في كون البشرية عاجزة عن رد كل خلق جميل أقره الإسلام ، بل إن الدول التي لم تدن بالإسلام دانت بأخلاقه لاتفاقها مع الفطرة .

فالصدق والأمانة والوفاء بالعهد واحترام المواعيد والنظام والنظافة والإحسان والإتقان في العمل كل هذا مما يتحلى به الغرب .

والكـــذب والخـــيانة ونقض العهد وعدم احترام المواعيد والفوضى والقذارة والغش والخداع والتضليل كل ذلك مما يرذلـــه الغرب وهو ما نهى عنه الإسلام .

وفي إطار تهذيب الإسلام للأخلاق وجدناه يرفض الإفراط والتفريط في كثير مـــن الأخـــلاق ، فمثلا الإفراط في الشجاعة تهور والتفريط جبن والإفراط في الإنفاق سـرف والتفريط بخل ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [2] .

---

(١) البيهقي ١٠ / ١٩٢ .

(٢) الإسراء (٢٩) .

وكما هذب الإسلام الطباع فإنه وضح المفاهيم تجاه بعض الأخلاق الواقعية وقت التنزيل . وفى الحديث " انصر أخاك ظالما أو مظلوما "(١) وهذا ما ألفه العرب ، فقال المسلمون يا رسول الله نصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال تمنعه من ظلمه " .

وصحح عليه السلام مفهوم الشدة أو القوة فى الإسلام فقال " ليس الشديد بالصرعة . إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب "(٢) . وبين أن بعض المفاهيم الواقعية لا تستقيم فى ميزان الشريعة الإسلامية ، وفى الحديث " أتدرون من المفلس ؟ قالوا : من لا درهم له ولا دينار قال : لا ولكن المفلس الذى يأتى بصلاة وصيام وزكاة وحج يأتى وقد سب هذا وشتم هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا لم يبق من حسناته شئ أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار "(٣) .

ومن واقعية الإسلام فى الأخلاق إباحته الكذب للضرورة إذا تطلب الواقع ذلك ، كالصلح بين الزوجين والصراع مع العدو وكلام الزوج المعسول لزوجته لإتلاف قلبها فى غير مخالفة للشرع ووقاية إنسان من عدو يطلبه ليقتله ... الخ .

ولم تنته واقعية الإسلام عند الحد السابق بل إنه أشار إلى أثر البيئة على التأثير الخلقى وذكر الواقع وأثره فى تحسين الأخلاق وتهذيبها أو فى تدمير الأخلاق وإيذائها ، قال تعالى ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾(٤) ، وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا

---

(١) البخارى ٣ / ١٦٨ حم ٣ / ٩٩ .

(٢) البخارى ٨ / ٣٤ مسلم ك البر والصلة .

(٣) مسلم ك البر والصلة ٥٩ ، الترمذى ٢٤١٨ .

(٤) الأعراف (٥٨) .

لها من قرار ﴾ [١] . لقد ذكر نوح هذا لربه قائلا بحق أمته ﴿ .. رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ [٢] .

وذكر القرآن نماذج من واقع الأخلاق المرذولة وواقع الأخلاق المحمودة وبيّن الإلف بين أتباعهما ، قال تعالى ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ [٣] ، وقال تعالى ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ [٤] .

ومن أجل سلامة الأخلاق فى واقع الناس رأينا الإسلام ينهى عن النظرة المسمومة ويحرم الخلوة وينهى عن التبرج ويوجب على المرأة ستر نفسها إلا الوجه والكفين ويوجب على الرجال ستر العورة ولا يأذن بإبداء المرأة لزينتها إلا لمن يجوز لهم ذلك ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ [٥] .

كما يوجب استئذان الأطفال على والديهم إذا بلغوا الحلم .

ويحمل الإسلام الأمة مسئولية طهر المجتمع بتزويج الأيامى وكفالة اليتيم ورعاية الفقير والمسكين وينهى عن دخول البيوت بلا إذن أو النظر إليها خلسة ، كما ينهى عن المشى مرحا والتميع فى الكلام والتكسر فى المشية ، وكل خروج عن هذه الأخلاق له آثاره السلبية على الفرد والمجتمع وهو ما ندفع ثمنه الآن .

۞۞۞

---

(١) إبراهيم (٢٤ - ٢٦) .
(٢) نوح (٢٦ ، ٢٧) .
(٣) النور (٣) .
(٤) النور (٢٦) .
(٥) النور (٣١) .

الخصيصة الخامسة
(صلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان)

عرفت البشرية معتقدات شتى كما عرفت ديانات عدة منها الوضعي ومنها الالـهي ، وكثرت الأيديولوجيات التي تتحدث عن نفسها كمنقذة للبشرية ، إلا أن التاريخ أثبت عدم صلاحيتها للدوام والاستمرار فضلا عن عدم صلاحيتها للتطبيق في بعض الأحيان .

أما الإسلام فإنه صالح لكل زمان ومكان ، ونظمه تتسم بسمة العالمية بل إن قوانين الأمم المتحدة في أرقى ما وصلت إليه هي دون ما أتت به الشريعة الإسلامية بمراحل شتى ، وما جاوزت فيه الشريعة الإسلامية فأكثره يحث على الفوضى ، كإطلاق الحرية الشخصية في (الحمل غير المشروع - الإجهاض - الشذوذ الجنسي - زواج الشواذ ....) .

ويمكن تحديد بعض المبادئ التي تكسب نظام الإسلام خاصة العالمية فيما يلي :

أولاً : مجال العقيدة :

أسس الاعتقاد في الإسلام تتفق مع الفطرة والعقل والقلب سواء أقامت على البدهيات أم المقدمات والنتائج أم البراهين والدلائل كما راعى الإسلام التنوع والتفاوت العقدي وأذن به مع وجوب البلاغ دون الإكراه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [1] ، ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [2] ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [3] .

---

(١) الغاشية (٢١ ، ٢٢).

(٢) المائدة (٩٩) .

(٣) القصص (٥٦) .

كما صرح الإسلام بأن الاختلاف العقدى سنة من سنن الله بين البشر وسيظل ذلك إلى قيام الساعة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٣) .

وذكر القرآن بعض المعتقدات ولفت النظر إلى قواعد القبول لها قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) .

ودعا الإسلام إلى ترك الوصاية على غير المسلمين فى المعتقد ، وتفويض حسابهم إلى الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٥) .

وحرم الإسلام على المسلمين سب غير المسلمين ، مراعاة للفطرة وصونا لأمن المجتمع ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٦) .

وأقر الإسلام شعائرهم الاجتماعية كصحة الزواج وما يترتب عليه من آثار وثبوت النسب والتوارث ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل ضمن لغير المسلمين فى دياره ما ضمنه للمسلمين - إلا الملاحدة - لأن قانون السيادة فى دولة الإسلام هو : حق العيش لمن يؤمن بخالق لهذا الكون .

ولا يجوز فى الإسلام منع كتابى من ممارسة طقوسه الدينية فى دار عبادته ، بل تمتد سماحة الإسلام مع أهل الكتاب إلى أن المسلم إذا تزوج بكتابية فليس له منعها

---

(١) هود (١١٨ ، ١١٩) .
(٢) يونس (٩٩) .
(٣) الشعراء (٤) .
(٤) البقرة (٦٢) .
(٥) الحج (١٧) .
(٦) الأنعام (١٠٨) .

من أداء صلاتها في [illegible] معبدها ولا يكرهها على الشعائر الدينية الإسلامية في الحياة الزوجية مثل الغسل من الجنابة وغيره .

إن الإسلام يقر حرية الاعتقاد ، ويفرق بين الإقرار والصحة ، وكل إيمان على أثـر الإكراه مردود على صاحبه ، قال تعالى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ (٢) .

إن أركان الاعتقاد في الإسلام تضيف إلى اليهودي والنصراني ما يتم به الاعتقاد ، وتصحح له ما أعوج من تراث عقدي عنده ، فهي لا تحرم اليهودي من الإيمان بموسى أو التوراة ، بل تضيف إلى ذلك الإيمان بعيسى والإنجيل ، ومحمد والقرآن .

ومثل ذلك النصراني . تضيف إلى إيمانه بعيسى إيمانه بمحمد وإلى إيمانه بالإنجيل إيمانه بالقرآن .

إن العقـيدة في الإسـلام أيسـر ما تكون عند الطلب من القرآن بعيداً عن الفلسـفة والسفسطة ، ومن يسرها وسهولتها أعتنق الإسلام كثيرون من غير المسلمين بل من صفوة رجال المعتقدات الأخرى وبخاصة اليهود والنصارى .

صلاحية الشريعة للتطبيق :

تنقسم الشريعة بحسب محتواها إلى : عبادات ، معاملات ، أنكحة ، حدود ، جنايات ، صيد وذبائح ، جهاد .

---

(١) يونس (٩٠ ، ٩١) .

(٢) النساء (١٧ ، ١٨) .

ومـــا مـــن مفـــردة من هذه المفردات إلا وهي صالحة للتطبيق في هذا الزمن فالعبادات تمارس عند المسلمين وغير المسلمين ، وقاسم مشترك بين سائر المتدينين .

فالصلاة والصيام وإن اختلفا في كمهما وكيفهما من الشعائر التي تمارس لدى أتبـاع الديانات السماوية والديانات الوضعية ، والتوجه إلى مكان مقدس أمر لا يخفى عـــلى المتخصصـــين في الأديان ، ويمكن تصحيح ما سبق بإحلال التكاليف الشرعية الإسلامية محل التكاليف الوضعية أو المحرفة .

لقـــد كان العرب يصلون قبل الإسلام ، فلم يحرم عليهم الصلاة ، بل صحح لـــهم نظامها ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [١] ، وكانوا يحجـــون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم ، الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل قائلين لا نطـــوف في ثـــياب عصينا اللـــه فيها ، فجاء الإسلام بالحج مبطلا الباطل ومحقا الحق ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [٢] .

والصوم معروف عند غير المسلمين بكم وكيف مختلف ، والإسلام وضع كمه وكـــيفه في آيـــات محكمة ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [٣] ، ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [٤] .

وأمـــا المعاملات فقد وضع الإسلام لـــها قواعد كلية ، وترك كيفية التطبيق لظروف الزمان والمكان ، وما استطاع الناس تحريم شئ أحلـــه الإسلام ولا تحليل شئ حرمه الإسلام ، ولو كانوا على غير الإسلام ، سوى المعاملات الربوية ، وقد ظهرت

---

(١) الأنفال (٣٥) .

(٢) الأعراف (٣١) .

(٣) البقرة (١٨٥) .

(٤) البقرة (١٨٧) .

آثارهـا السـلبية على الدول والأفراد حتى إن بعض الدول التي تعاملت به ، أصبحت عاجزة عن سداد الفائدة (الربوية) فضلا عن سداد المال المقترض .

والآداب الـتي وضـعها الإسلام للمعاملات : لا يستطيع مخلوق على وجه الأرض أن يـنفي المثبـت منها أو يثبت المنفي ، فقد نهى الإسلام عن الغش والخداع والتضـليل وما لا يملك الإنسان وما يعجز الإنسان عن تسليمه ، وأباح الخيار في البيع ونوعه بين الشرط والعيب ...

كما حث الإسلام على إعطاء المدين من الصدقة وانظار المعسر وإنساء الفقير أو العفو عنه .

كما دعا الإسلام إلى توثيق العقود وكتابة الدَّين والإشهاد عليه لا على سبيل الوجوب بل الندب والاستحباب ، وأذن بالرهن لأجل الضمان وأوجب احترام العقد والعهـد وفرض الوفاء ومدحه وجعل التوبة غير مسقطة للحقوق المالية تجاه الآخرين وجعل حرمة المال كحرمة الدم والعرض .

وأمـا الأنكحة : فلا يزال نظام الإسلام أسمى النظم من حيث التطبيق فالمرأة فيه محل تقدير واحترام ، لا تخون ولا تخان ولا تعاشر ولا تعاشر إلا بالطرق المشروعة ، ولا يعني الأمر حل هذا لغير المتزوجين — وحقها مكفول تجاه زوجها ، وإصلاح ذات بيـنهما مسئوليتهما أولاً ومسئولية أقاربهما ثانياً ، وصير كل زوج على الآخر لون من العـبادة ، وتعذر الحياة بينهما يأذن بفسخها إلى حين ، ثم تكون الرجعة مرة واثنتين ، ومـن أصر على الفسخ الدائم دفع الثمن للآخر ، والتعدد مأذون به كضرورة وليس الأصـل بل الاستثناء وهو معنى عن الخلة والانحراف ، يحل مشكلات المجتمع في حال الحرب أو كثرة النساء على الرجال أو الميل القلبي المفرط .

وأمــا الحــدود والجنايات فصلاحيتها للتطبيق قائمة بشرط عدم الانتفاء عند التطبــيق ، ومن يقف على الشروط المتعلقة بالحد من حيث الإثبات وشروط الوجوب وموانع التنفيذ يدرك أن دائرة الحدود أضيق مما يتصور الإنسان .

ورغــم الاعتراضــات الــتى قامت بها دول شتى تجاه عقوبة الإعدام والجلد وغيرهما ، إلا أن هذه الدول أصبحت تمارس الإعدام بحق بعض الجناة ، بل إن الإعدام لــها هواية الآن .

إن مــا أعدمته أمريكا بخاصة فى أفغانستان والعراق لا يخفى على أحد وهناك إعــدام خفى عن طريق العقوبات التى تفرض على دولة من الدول حتى إنه ليموت من أولادها الآلاف نتيجة الحظر الغذائى أو الدوائى كما أنها تؤيد سياسة الإعدام العلنى فى فلســطين وتباركه وتعتبره دفاعاً عن النفس ، كما أن دولا عدة أقرت عقوبة الإعدام بحق بعض الجنايات الآن .

وخاتمة القول فى العبادات : إن الجهاد بآدابه وشروطه أساس السلم العالمى ، لأن سياســة الردع تحول دون الحروب ، والقوة تؤدى إلى رهبة وليس من لازم القوة الحــرب بل غاية القوة فى الإسلام تحقيق السلم وانتفاء الحرب ، قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) .

ثالثاً : فى مجال حقوق الإنسان فى الإسلام :

لم تعــرف البشــرية حقوقــا للإنسان مجموعة فى ثنايا كتاب إلــهى فى غير الإســلام ولم تعــرف البشــرية مساءلة ولى الأمر عن حقوق الرعية فى غير الشريعة الإســلامية ، ويمكن القول : إن الإسلام قد أقر للناس عامة وللمسلمين بخاصة الحقوق التالية :

(١) الأنفال (٦٠) .

- حق الحياة . - حق الحرية .
- حق الكرامة . - حق التملك .
- حق العمل . - حق الحل والترحال .
- حق التعليم . - حق كفاية العيش .

وهذه الحقوق القيام بها منوط بولى أمر المسلمين بحق الذكر والأنثى .

رابعاً : فى مجال القيم :

إن المبادئ العليا فى الإسلام تكسبه العالمية ، وقد عجزت البشرية عن مضاهاة تلك القيم أو محاكاتها ، وإن تأثرت بها ضمنا ودعت إليها علانية وعجزت عن التطبيق لانتفاء الوازع الدينى وراء هذه القيم .

لقد جاء الإسلام بالعدل للناس عامة ، وحرم الظلم مع الخصومة أو العداوة وأوجب العدل مع الخصوم وإن كانوا على غير الإسلام . قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[1] ، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2] ، ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[3] .

ومن مبادئ الإسلام المساواة ، وهى خصوصية لهذا الدين ، فالمعتقدات الأخرى اكسبت أتباعها إدعاء الأفضلية ، ودان أهلها بالعنصرية وقد أبطل الإسلام ذلك حين أعلن وحدة النوع البشرى ووحدة الأصل ونفى تعدد المصدر ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[4] وفى الحديث " الناس لآدم وآدم من تراب "[5] .

---

(١) النحل (٩٠) . (٢) المائدة (٨) .
(٣) المائدة (٤٨) . (٤) النساء (١) .
(٥) أبو داود ٤ / ٣٣١ ، الترمذى ٥ / ٧٣٥ ، حم ٢ / ٣٦١ .

ومـــن مـــبادئ الإسلام (الكرامة الإنسانية) حيث أعلنها صراحة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١] ونهى ﷺ عن امتهان كرامة الإنسان سواء من طريق ضربه على وجهه أو من طريق صلبه أو قتلـــه صبرا أو التمثيل بجسده ...

ومن مبادئ الإسلام الحرية فالأصل فى الإسلام حرية الناس فى مجال الاعتقاد والـــرأى والرقاب ، والرق فى الإسلام عارض ، وقد أذن به الإسلام اتباعاً لسنة جارية وتمكيناً للرقيق من العيش حتى يفدى نفسه أو يعتقه سيده أو يُكفّر به غيره .

وللـــرق فى الإسلام مصدر واحد هو أسرى القتال من المشركين إذا لم يعلنوا إسلامهم قبل التوزيع وللحرية فى الإسلام أبواب عدة منها :

الكفارات وهى متعددة .

الديات مع تحرير رقبة .

التطوع بالعتق .

الرغبة فى مضاعفة الأجر .

المكاتبة ، المدبر ، الاستيلاد .

مع تحريم الاسترقاق من طريق السلب أو النهب أو السرقة أو البيع للأبناء مما تعارف عليه الناس قبل الإسلام .

ومـــن قيم الإسلام الحق وقد دعا إليه ويسر سبل تحقيقه وقرن إقامته بولى الأمر وجماعة المسلمين ، وأعطى الفرد حرية التمسك بحقه أو التنازل عنه بمقابل أو بدون مقابل، وفى الأثـــر " لعن اللـــه قوماً ضاع الحق بينهم " سيد الشهداء حمزة ورجل قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتلـــه "[٢] ومن أقوالـــه ﷺ " دعوه فإن لصاحب الحق مقالا "[٣] .

---

(١) الإسراء (٧٠) .

(٢) المستدرك ٣ / ٢١٥ .

(٣) البخارى ٨٠٩/٢ .

والحق في الإسلام لا يعرف اللون ولا الدين ولا النوع ولا الفوارق الاجتماعية وهو للفرد والأسرة والمجتمع ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[(١)] .

كما أن لله على عباده حقوقا وللعباد على الله حقا ، وقد فصلت السنة ذلك .

ومن مبادئ الإسلام السلام وهو من غايات الدعوة الإسلامية وقد وضع الإسلام له أسسا شتى ، وهو القاعدة في الإسلام ، والحرب استثناء وضرورة ، ولم يكن القتال إلا لمواجهة خطر واقع أو متوقع ، أما حروب الاحتكار والعنجهية والاستعلاء فالإسلام لا يعرفها ، وحقن الدماء في الإسلام مبدأ أساسي وإهدار الدم دائرته ضيقة للغاية ، والقصاص يسقط بالشبهة وبالعفو وبتنازل أولياء الدم أو أحدهم عن الدم إلى الدية كل ذلك حقناً للدماء .

والاستجابة لداعي السلام فرض في الإسلام ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[(٢)] ، ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[(٣)] .

والقرآن وإن صرح بالخلاف لكنه لم يجعله سبيلاً للاقتتال ، بل جعل الخلاف سبيلا للتعارف ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[(٤)] .

ومن قيم الإسلام العليا العمل وقد حث الإسلام عليه وأوجبه على القادر وحرم التسول مع القدرة على الكسب ، وحرم إعطاء الصدقة للقادر على العمل مع الإعراض عنه " إن الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مرة سوى " صدق رسول الله ﷺ[(٥)]

---

(١) المائدة (٨) .

(٢) الأنفال (٦١) .

(٣) النساء (٩٠) .

(٤) الحجرات (١٣) .

(٥) شرح معاني الآثار ٢ / ١٤ رقم ٢٧٥٩ .

وجعل الإسلام خير الكسب من عرق الإنسان ، واشترط الحل فى العمل فلا طبل ولا زمر ولا رقص ولا دعارة ولا خمارة ولا بار ولا حانة ولا سوق سوداء ولا تجارة فى حرام بدعوى أنه عمل .

وقد فاوت الإسلام فى نوع العمل وأشار إلى من يعمل فى الصناعات الثقيلة (داود — ذى القرنين) ومن يعمل فى الصناعات الخفيفة كصناعة الغزل والنسج وغيرها

وراعى الإسلام الفطرة فرتب أجرا على العمل ، وجعل لكل فرد طاقة وحرم تكليف العامل فوق طاقته . وفى الحديث" فإن كلفتموهم فأعينوهم "(١) ، وضمن لكل عامل حق العيش الكريم ، وفى الحديث " من ولى لنا عملا وليس لـه منزلا فليتخذ منزلا وليس لـه زوجة فليتزوج أو ليس لـه خادم فليتخذ خادما أو ليست لـه دابة فليتخذ دابة ومن أصاب شيئا سوى ذلك فهو غال " (٢) فهل ينكر هذه الأسس أى مخلوق على وجه الأرض به مسكة من عقل ، إن قيم الإسلام التى تكسبه العالمية تبلغ حدا فى الكثرة ، بما لا يتسع المقام لتناولـه الآن .(٣)

خامساً : فى مجال الأخلاق :

دعا الإسلام إلى مجموعة من القيم الخلقية التى تعانى من عدمها البشرية الآن ، ومن هذه القيم (الصدق — البر — الأمانة — الأخوة — التعاون — الوفاء — الصبر — الشكر — الحياء — النصح — الرحمة) إلى غير ذلك من القيم .

---

(١) البخارى ١ / ٢٠ رقم ٣٠ مسلم ٣ / ١٢٨٢.

(٢) حم ٤ / ٢٢٩ .

(٣) راجع : الثقافة الإسلامية تخصصا ومادة وقسما علميا من ٦٨ — ٧٢ ، قسم الثقافة — كلية الشريعة — جامعة الإمام محمد بن سعود .

والإسلام لا يجعل أى خلق من هذه الأخلاق قاصراً على المسلمين فيما بينهم بل إنه ليلزم المسلم بهذه الأخلاق مع المسلمين وغير المسلمين وهو ما تعانى البشرية من فقدانه الآن .

سادساً : فى مجال الحكم :

قـــدم الإسلام منهجا لولاية الأمر تعجز البشرية عن محاكاته ، وسوف نفصل ذلــك فى الـــنظام السياسى — إن شاء اللـــه — ولكني أقول فى عجالة إن ولاية الأمر تكلـــيف وليســـت تشريف وهى من أسمى مراتب العبادة إن قامت على الطاعة ، ولا تكسب صاحبها عصمة ولا قداسة ولا تأذن لـــه بالاستعلاء والسيطرة ، وهو مسئول عن بيان منهجه للأمة ويسأل عن الالتزام وعدمه .

وولايـــة الأمر ليست ملكا يورث ولا مالاً يوهب بل هو عمل يقوم به الإمام ويمكـــن أن يعهد به إلى غيره حال حياته أو بعد مماته شريطة أن لا يكون فى الأمة من هو أولى بالإمامة من المعهود إليه ، وهو مسئول أمام اللـــه عن الرعية ومنوط به حماية العـــباد والبلاد وعليه ان يرعى الدين والدنيا ، وأن يقيم حكمه على أساس من العدل والمساواة والحرية الإنسانية والوفاء بالعهد والإخلاص فى العمل والرقي بالمجتمع .

إن هذه الأخلاق وإن كانت إسلامية فإن كل الأمم بحاجة إليها ، بل إن أزمة البشرية الآن فى عدم تحقيق هذه المبادئ .

أين العدل فى قرارات الأمم المتحدة الآن ؟

أين المساواة بين المسلمين وغير المسلمين فى القرارات ؟

أين الحرية لأبناء أفغانستان والعراق وفلسين ؟

أين الإنسانية فى الضمير العالمى ؟ أسرى فى السلاسل ، وهدم البيوت واعتقال النســـاء وقـــتل الأطفال وقطع الشجار وتجريف المزروعات واستخدام أسلحة الدمار الشـــامل وحرق الكهرباء وتلويث الماء وتدمير المبانى ونسف الكبارى وقطع الماء وقتل

الأبرياء والتمثيل بالجثث وقتل الأجنة وسجن الطلاب وإغلاق المدارس ومنع الطلاب من طلب العلم وخلط ماء الشرب بماء المجارى ... الخ .

كل ذلك بمرأى ومسمع من دول العالم المتحضر - الصواب المتخلف -.

إن النظام السياسى العالمى لو اهتدى بهدى الإسلام فى العقود والعهود والجوار الحسن والتعاون وتلاقح الأفكار لكان حال البشرية غير ما هو عليه الآن .

سابعاً : موقف الإسلام من العلم التجريبى يكسبه العالمية :

أعرضت بعض المعتقدات عن تحديد موقفها من العلم ، وناصبت معتقدات أخرى العلم العداء ، وأما الإسلام فهو علم والعلم فى الإسلام دين ، ولست بصدد تفصيل القول ولكنى أقول فى عجالة :

للمعرفة شقان : شق نظرى وشق عملى ، وقد أعلى الإسلام قدر الشقين معاً، وأثنى على كل من يلتمس علماً ، ومن مات فى طلب العلم – من المسلمين – فهو فى عداد شهداء الآخرة .

والإسلام يعتبر العلم محرابا للإيمان ، والعلم يؤكد الدين ويقويه ، وكل الحقائق العلمية تهدى إلى وجود خالق لهذا الكون ، ويمكن إيضاح موقف الإسلام من العلم التجريبى فى النقاط التالية :

١- أسقط الإسلام القدسية عن الطبيعة وأزال الرهبة عن مكوناتها بعد خوف الناس منها ، وعبادتهم للشمس والقمر والنجوم والحيوانات والحجر والشجر ... فصرح بتسخيرها للإنسان وسيادة الإنسان عليها .

٢- ذكر القرآن ما يسمى الآن بآداب البحث العلمى ، وأشار ضمنا إلى أسس البحث العلمى كفرض الفرض والملاحظة والتجربة واستخلاص النتائج ، كما نهى عن الظن والتقليد الأعمى وموروثات الآباء ... الخ .

٣- أشار القرآن إلى كثير من الحقائق العلمية التي اكتشفها العلماء الآن ومنها قانون النظام ، الرعاية والعناية ، الكمية والمقدار ، السببية ، الغاية ، التوازن ، الجاذبية ، الطفو ، النسبية ، بما لا يتسع المقام لذكر الآيات الدالة على هذا .

٤- فتح الباب للخيال العلمي ، فأساس العلم التجريبي الخيال ، وقد حث الإسلام الإنس والجن على الخيال العلمي ، قال تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (٢) .

وقد وعد الحق سبحانه بتحقق ذلك للإنسان ، باعتبار تحققه هاديا إلى الله ، قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٣) .

٥- توفير طاقة العقل حين نهاه عن البحث فى أمور الغيب ودعاه إلى البحث فى الواقع ، وجعل الكون كله له واقعاً .

٦- مدح القرآن العقل وأثنى عليه ووضع آداباً للتفكير وحث على نماء العقل ورقيه وقدم له مقدمات وترك له استنباط النتائج وأعطاه أحيانا النتائج اعتماداً على البديهات العقلية .

إن العلم يفتقر إلى الدين لضبط إيقاعه ، فلا نسخ للبشر ولا تحكم فى النوع ولا تغيير فى الخلقة ولا إجهاض لحمل ولا ترقيع لبكارة ولا قلب ... الخ .

---

(١) الرحمن (٣٣ - ٣٥) .

(٢) الانشقاق (١٦ - ١٩) .

(٣) فصلت (٥٣) .

والديـــن يحتـــاج إلى العلم لأنه خير مبين للآيات الكونية فى القرآن ، وخير شارح لسنن اللـــه فى النفس والآفاق ، وإليه يتم الاحتكام فى القضايا الشرعية أحياناً ، ورأى الطبيـــب يعدل فتوى العالم فى بعض الأحكام والأحيان ولأهل العلم ما ليس لأهـــل الدين فى بعض المواطن ، والكون كلـــه ميدان للبحث العلمى فى الإسلام من يجيب ؟

❁❁❁

المبحث الثاني
خصائص النظم الوضعية

تناول الباحثون في النظم الوضعية خصائصها بالبحث والدراسة، وقد جاءت هذه الخصائص متداخلة مع خصائص النظم الإسلامية، مشابهة لها في الألفاظ وليس في الجوهر والمضمون، وكان هذا سببا من أسباب تناولنا لخصائص النظم الوضعية حتى نبين أنه لاصلة بين المصطلحات وتشابهها في النظامين الإسلامي والوضعي حماية لطلاب العلم الذين يدرسون المذاهب الوضعية على أنها حقائق ومسلمات.

أولا: بشرية المنهج:

النظم الوضعية «تصدر عن فكر البشر وتصورات عقولهم الخاضعة للأهواء والمشارب المختلفة والمتغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة»[١].

«وتنشأ النظم عادة من العادات الشعبية، وتنمو وتتطور في صورة أعراف»[٢].

وتبعا لذلك فقد تعددت النظم في الموضوع الواحد، فنظام الزواج في الصين غير نظام الزواج في أفريقيا، والأولى بذلك أن يقف علماء النظم الوضعية عند الوصف فقط.

وخير مثال على ذلك «انقسام علم الاجتماع إلى قسمين هما علم الاجتماع الماركسي، وعلم الاجتماع الغربي الليبرالي. وطبيعة هذا الانقسام تعود بالدرجة الأولى إلى التصورات العقدية والأطر الفكرية للباحثين حول الإنسان، والمجتمع والتاريخ»[٣].

---

(١) د. مصطفى أبو سمك: نظرات في نظم الإسلام وثقافته ص ٢٦.

(٢) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٤.

(٣) منصور زويد المطيري: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٧٢.

ومن هنا جاءت النظريات المعلنة فى علم الاجتماع ذات طابع فلسفى. أى أنها ليست سوى تبريرات عقلية، لبعض الفروض الخلقية التى يقتنع بها الباحث.

وقد أدى هذا إلى التناقض فى الآراء والنظريات تبعا للميول والرغبات والحب والبغض.

وقد أدى هذا إلى أمر خطير «دعا روبرت مرتون لأن يعترف بأن فى الولايات المتحدة خمسة الاف عالم، لكل واحد منهم علم الاجتماع الذى يخصه[1] وحده»، وذلك نتيجة تعدد العقائد الخاصة بكل عالم، رغم انتماء غالبيتهم إلى عقيدة المجتمع الرأسمالى. وتبعا لذلك ظهرت العقلانية كمذهب مناوئ للدين.

ولم يكن هذا فى صالح الإنسان ولافى صالح الكون فطاقات العقل محدودة، ولا تتعامل إلا مع المحسوسات، «فقد اقتصرت على عالم الشهادة، دون اعتبار لعالم الغيب، واقتصرت على المحسوسات دون المعنويات. ولاشك أن تأثير عالم الغيب فى الحياة الواقعية كبير جداً، إضافة إلى أنه حق لاريب فيه، لايجوز عقلا إنكاره، أو تجاهله بهذه الطريقة»[2].

وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهؤلاء الذين يستقلون بالعقل فى قضايا الإنسان والوجود، يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

(١) انظر أو سيبوف: قضايا علم الاجتماع، ترجمة سمير نعيم، د. فرج أحمد فرج، دار المعارف ١٩٧٠م/٦٤.

(٢) منصور زويد المطيرى: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ٤٥.

(٣) سورة الجاثية: آية ٢٣.

عندي بها(١). وتلك حالة مرضية تؤدى بصاحبها إلى الضلال «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله»(٢). ولهذا المنهج الشعورى فى النظم خطورته وعواقبه الوخيمة التى تظهر فى المجتمعات التى تتبنى هذا المنهج، والواقع خير شاهد على ذلك.

ثانياً: العمومية والحتمية:

يقصد بالعموم فى النظم الوضعية، «أنه لا يوجد مجتمع ما أو أى نموذج اجتماعى ما دون أن يصحبه نظام اجتماعى يحدد الأوضاع والعلاقات داخل هذا المجتمع أو ذلك النموذج الاجتماعى، ومن ثم فإن من أهم خصائص النظم الاجتماعية أنها عامة أى تعم جميع النماذج الاجتماعية فى المجتمع ولا يخلو منها أى وجود اجتماعى مهما كان مستواه»(٣).

ويقصد بالحتمية «أنه إذا وجد شكل من الأشكال الاجتماعية أو نموذج ما. مثل المجتمع المحلى، أو القبلى أو القرية، أو العشيرة. فمن الضرورى أن يلازم هذا الوجود نظام اجتماعى يحدد شكل هذا النموذج الاجتماعى ويوضحه، وبالتالى فإن النموذج الاجتماعى، والنظام متلازمان، ومن ثم فإن حتمية النظم الاجتماعية مرتبطة تماماً بعموميتها»(٤).

ولاشك أن العمومية فى النظم الوضعية بعيدة كل البعد عن خاصية العموم فى النظم الإسلامية، فالأولى تبقى كل شئ على ماهو عليه، وتقرر تعدد النظم الفاسد منها والصالح، حتى ولو كان ذلك فى مسألة واحدة، فما يكون صوابا فى مجتمع ما، قد يكون خطأ فى مجتمع آخر. فقتل

---

(١) سورة القصص: آية ٧٨.

(٢) سورة القصص: آية ٥٠.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨١.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢.

الأطفال الذى توافق عليه بعض الجماعات تحت ظروف خاصة، يعتبر إجراما فى جماعات أخرى، والعفة قبل الزواج مطلوبة فى أحد المجتمعات، وغير مستحبة فى الآخر»[١]، والثانية تحافظ على أن يحكم الجميع بنظام أخلاقى وعقدى واحد، تلغى من خلاله العنصريات والطبقات وكل الفوارق.

وقد عملت رسالة الإسلام منذ البداية «على التحول الشامل بكل أجزاء المجتمع، مع إخضاع الجماعات البشرية إلى نظام موحد والارتفاع عن مستوى المتناقضات السلالية والعنصرية.. أى أن الغاية المثلى من هذا الدين هى الانتقال من المراحل الجزئية إلى مراحل التجانس والإطار الفكرى الموحد الذى يمكن أن تزدهر فى ظلاله مختلف الآراء مهما تنوعت وتباينت»[٢].

إن غاية مايقال فى العمومية والحتمية الوضعية: أنهما دليلان على ضرورة النظم الإسلامية لوحدة الأسرة الإنسانية العالمية.

ثالثاً: التلقائية:

تعنى التلقائية فى النظم الوضعية «أنها تنشأ وتتطور من خلال الحياة الاجتماعية للمجتمعات المختلفة، وذلك مثل نظم الزواج وتكوين الأسرة الذى ينشأ تلقائيا فى المجتمعات استجابة للقيم الخلقية»[٣].

وهذا يؤكد أنها وليدة الظروف والأحداث والأعراف، ترجع إلى مايحدده الأفراد فى نظام اجتماعى معين يختلف عن غيره فى مكان آخر.

---

(١) منصور زويد: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٦٨.

(٢) د. زيدان عبدالباقى: علم الاجتماع الإسلامى ص ٤.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ٨٢.

أما الاسلام فإنه يبدأ معتنقيه بالتكاليف والقوانين الإلهية التى يريدها الله - سبحانه وتعالى - من خلقة، ويبقى دور المسلم هو الجد والاجتهاد فى استقبال هذه القوانين قلبيا وعقليا وفكريا، والانتقال بها إلى مجال التطبيق الداخلي فى ذاته، والخارجي فى المجتمع من حوله، «وإذا تجاوزنا - أو إذا كان لنا أن نتجاوز عن القرن الأول الإسلامي - فإنه يمكن القول: إن كل الأفراد فى المجتمع الإسلامى قد نشأوا فوجدوا النظم الأسرية والقضائية والاقتصادية وغيرها بصورتها الإسلامية فصبوا فيها أعمالهم وأفكارهم متأثرين فى ذلك بما يلقونه من تربية إسلامية فى طفولتهم، بمعنى أن هذه النظم والأوضاع قد نشأت بصورتها الإسلامية منذ نشأة المجتمع الإسلامي، ومن هذا فإن صفة التلقاية يمكن الأخذ بها فى مجال الدين الإسلامى بعد القرن الهجرى الأول، بل وقبل القرن الهجرى الأول إذا أخذنا بأن الإسلام دين سائر الأنبياء»[1]، وتلك حقيقة، وهذا يؤكد أن الإنسانية بدأت منظمة تنظيما إلهيا، فقد كان الدين الإسلامي تلقائيا تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل، يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ

---

(١) د. زيدان عبدالباقي: علم الاجتماع الإسلامى ص ٢٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٢.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٨.

(٤) سورة مريم: آية ٥، ٦.

أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾[١].

وهكذا بقيت التلقائية الإسلامية في كل الأجيال الإنسانية يحملها خلف عن سلف، وأنبياء عن رسل، والأتباع الصادقون المخلصون فى كل زمان ومكان، ومن ثم كان ذو القرنين وكان لقمان وكان مؤمن آل فرعون، وكان غيرهم، يقول تعالى:﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾[٢].

ومن ثم فتلقائية النظم الإسلامية تغاير تلقائية النظم الوضعية تغايراً تاماً فى المضمون والمفهوم.

رابعاً النسبية:

النسبية فى المذاهب والنظم الوضعية نوعان: زمانية ومكانية.

ويقصد بالنسبية الزمانية «أن النظم الاجتماعية قد تختلف بالنسبة للمجتمع الواحد من وقت لآخر فهى ليست ثابتة دائمة بصفة مستمرة على شكل واحد على طول الزمان بالنسبة لأى مجتمع، فقد يلتزم مجتمع معين بنظام معين فى وقت من الأوقات، ثم مايلبث أن يأخذ بنظم غيره فى وقت آخر إذا ماثبت عدم جدواه أو أهميته بالنسبة لهذا المجتمع[٣].

ويقصد بالنسبية المكانية «أن النظم الاجتماعية تختلف من مجتمع لآخر، فقد يأخذ مجتمع مابنظام اجتماعى معين، ويأخذ مجتمع آخر بنظام إجتماعى آخر يناقضه تمام التناقض وفى نفس الزمن.

---

(١) سورة الصف: آية ١٤.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٤.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ١٨٣.

فالنظم الاجتماعية ليست واحد ة فى كل المجتمعات ولكنها تختلف باختلاف المجتمعات، كما تختلف أيضا بالنسبة لوظائفها فى كل مجتمع من المجتمعات»[١].

وهذا يعنى إلغاء الثبات من حياة الإنسان، وهذا يجعل المجتمع غير متواصل حضاريا ونظميا، وهذا يؤكد أن النظم الوضعية لم تفرق بين الثوابت فى حياة الإنسان والمجتمع وبين المتغيرات التى لاتخرج فى إطارها العام عن روح الثوابت، كما أنها تعمل على تحقيق مقاصد هذه الثوابت.

والنظم الوضعية بذلك «فى تغير دائم، ولا تكاد تستقر على حال، حتى الدساتير التى هى أم القوانين، كثيراً ماتلغى بجرة قلم، من حاكم متغلب، أو مجلس الثورة، أو برلمان منتخب، انتخابا صحيحا أوزائفا، حتى يصبح الناس ويمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أى مادة، أو قاعدة قانونية، كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام»[٢].

ومن هذا المنطلق بدأ أصحاب هذه النظم الوضعية يهدمون القيم الأخلاقية واحدة تلو الأخرى، وتجاوزوا الحد فى ذلك إلى بلاد المسلمين ليفرضوا عليهم مظاهر هذه النسبية من خلال وثيقة مؤتمر السكان والتنمية[٣].

وفى هذا المؤتمر أعلنت الحرب على العفة والأخلاق والشرف، من خلال صياغة ماكرة خبيثة لبعض الفقرات جاء فيها:

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للاسلام ص ٢٠٤.

(٣) عقد هذا المؤتمر بالقاهرة فى الفترة من ٢٩ ربيع الأول ١٤١٥ هـ ٥/٩/١٩٩٤م إلى ٨ ربيع الآخر ١٤١٥هـ ١٣/٩/١٩٩٤م.

* يتعين على البلدان، بدعم من المجتمع الدولى، أن تحمى وتعزز حقوق المراهقين فى التربية والمعلومات، والرعاية المتصلة بالصحة الجنسية والتناسلية(١).

* وينبغى بذل جهود خاصة لإشراك الرجل وتشجيعه على الاشتراك النشط فى الأبوة والمسؤولية، أو الصحة والسلوك الجنسيين والتناسليين... والوقاية من حالات الحمل غير المرغوب فيها(٢).

وهذه دعوة خبيثة لشرعية الإجهاض وإباحته من قبل الأجهزة المعنية فى الدولة(٣).

* على المسؤولين الترويج للسلوك الجنسى المأمون، والمسؤول، بما فى ذلك العفة الطوعية، واستخدام الواقى الذكرى.. وعلى المسؤولين عبء آخر وهو إلغاء القوانين التى تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسى بحرية، واختيار، وحماية الحاملات سفاحا، لأن ممارسة الجنس، والانجاب، حرية شخصية، وليست مسؤولية اجتماعية(٤).

كما نفّرت هذه الوثيقة من ختان الأنثى، وفيها طالب كتابها بفرض سياسة تحديد النسل فى ثلاث عشرة دولة من دول العالم الثالث، ٩٠٪ من هذه الدول إسلامية»(٥).

---

(١) انظر فقرة ٧/٤٤ ص ٥٣.

(٢) انظر فقرة ٤/١٧ ص ٢٨.

(٣) د. الحسينى سليمان جاد: وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية، كتاب الأمة ط أولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦/م ص ٥٧.

(٤) انظر فقرة ١٨/٣١ ص ٦٤.

(٥) د. الحسينى سليمان جاد: وثيقة مؤتمر السكان ص٦٨.

وقد تعددت المؤتمرات التى تدعو إلى ابتداع أنماط وأشكال جديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية[١].

وفى هذه المؤتمرات حاولوا الترويج والإقرار لأنماط أسرية بديلة، دون أدنى اعتبار للنواحي الشرعية والقانونية والأخلاقية، مثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، وإعطاء الجميع حقوقا متساوية ووضع سياسات وقوانين تقدم دعما تأخذ فى الاعتبار تعددية شكل الأسر، إضافة إلى تحديد النسل باسم تنظيم النسل وتشجيع موانع الحمل وتيسير سبل الإجهاض» [٢].

وإذا كان هذا هو حال النظم الوضعية، فإن النظم الإسلامية تتمتع بخاصية التمام والشمول والواقعية، وتحمل مقومات الثبات والمرونة؛ فالنظم الإسلامية تفرق بين الثوابت الضرورية لكل المجتمعات والمتغيرات التى تتغير فى المجتمع الواحد، أو يحتاج إليها مجتمع دون آخر، وقد كان للإمام الشافعي مذهب وهو فى العراق وهذا مايعرف بالمذهب القديم وعندما جاء إلى مصر بنى مذهبه الفقهي الجديد، وهذا يرجع إلى استيعاب النظم والقوانين الإسلامية للثوابت والمتغيرات وقيامها على الثبات والمرونة.

خامساً: القهرية والموضوعية:

يقصد بالقهرية في مجال النظام الاجتماعي «أن النظام الاجتماعي يمارس ضغوطا على الأفراد، ولا يستطيع الأفراد أن يخرجوا على

(١) فى عام ١٩٩٢م عقد ماعرف «بقمة الارض» فى ريودى جانيرو في البرازيل، ثم «المؤتمر العالمى حول حقوق الانسان» فى فيينا بالنمسا ١٩٩٣م، و«المؤتمر العالمى الحد من الكوارث الطبيعية» فى يوكوهاما فى اليابان عام ١٩٩٤م، و«القمة العالمية التنمية الاجتماعية فى كوبنهاجن فى الدانمارك ١٩٩٥م و«المؤتمر العالمى الرابع للمرأة» فى بكين بالصين ١٩٩٥م و«مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية فى اسطنبول ١٩٩٦م.

(٢) عمر عبيد حسنة : تقديم المصدر السابق ١٣.

ماتواضع عليه المجتمع من مواضعات متمثلة في التقاليد والعادات والأعراف التي تسود المجتمع، وعلى الأفراد الإلتزام والطاعة»[١]. تحت مايسمى جبرية النظم الاجتماعية.

ويقصد بالموضوعية، «أن عالم الاجتماع حينما يدرس – بداءة – بعض ظواهر أو تيارات أو نظم المجتمع يتعين عليه، أن يتخذ موقفا يماثل موقف العالم الطبيعي الذي يفترض أنه يرتاد ميدانا غير معروف وغير مكتشف، لاسيما وأن هذه الظواهر والتيارات والنظم الاجتماعية لها وجود خاص خارج شعور الفرد، لأنها ليست من صنعه، بل هو يتلقاها من المجتمع الذي نشأ فيه، بمعنى أنها ليست وليدة التفكير الذاتي، بل الأولى أن يقال بأنها هي التي تشكل هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس إلى حد كبير أو قليل، طبقاً لدرجة التقدم التي وصل إليها المجتمع»[٢].

وبين مايسميه علماء الإجتماع بالقهر أو الجبر أو الإلزام أو الضغط الاجتماعي وبين الموضوعية علاقة، بمعنى أن خاصية القهر أو الإلزام تترتب على خاصية الموضوعية[٣].

وبهذه القهرية التي تؤدي إليها الضغوط الاجتماعية يفقد الإنسان حرية التفكير والمراجعة، «ولايستطيع الأفراد الخروج عن المصطلحات التي يرسمها النظام الاجتماعي، ومن يحاول الخروج عليها فهو لامحالة مأخوذ بالقصاص الاجتماعي»[٤].

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٤.

(٢) د. زيدان عبدالباقي: علم الاجتماع الإسلامي ص ١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

(٤) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٧٤.

وقد أدى إلى هذه الحالة أسباب كثيرة، تتمثل فى فقدان القانون الحق الذى يقيم هذه العادات والتقاليد التى يقهر الإنسان على الالتزام بها، حتى يدحض منها الباطل، ويبقى على الصالح العام، ثم إن هناك خروجا كثيراً على بعض هذه العادات والتقاليد، وهذا يثبت أن مصطلح القهرية يحتاج إلى المراجعة والتصحيح، وإلا فهذا إقرار من علماء الاجتماع بأن الانسان غير قادر على التفكير.

وهذا إن دل على شئ، فإنما يدل على أن هذه العادات والتقاليد التى تحكم النظم الوضعية خالية وعاجزة عن تقديم الأدلة التى تثبت صحتها لدى العقل، وهى بذلك ليست موضوعية.

والقهر والإلزام من خلال المجتمع يتسم بالقصور ويبقى شكليا فدائرة الجزاء فيه محدودة، وإن عالجت الجانب المادى فى الإنسان فلن تعالج حقيقته الداخلية وجوهره الأساسى.

والنظم الاسلامية بعكس ذلك، فهى ليست قهرية ولاتمثل ضغطا اجتماعياً على الأفراد، فقوامها الاستقامة والتعاون على البر والتقوى، ومظهرها القدوة الطيبة والمثل الصالح، ووحدة الوسيلة والغاية، ومراقبة الله - عز وجل - هى السياج الجامع لكل ذلك، فالمسلم عضو فى جسد الجماعة ولبنة فى بناء الأمة، والقانون الذى يحكم الجميع ليس قانون الأمة ولا هو اختراع الجماعة، وإنما هو قانون الله ونظامه وحكمه، ومن ثم فدور الجماعة فيه يماثل دور المسلم. فدور الجماعة يطلق عليه العلماء «العقل الجمعى» وهو مجال للخلط وضياع بعض الآراء الصحيحة. ومن ثم كانت المسؤولية ملقاة على عاتق كل مسلم، وعندما جاء الخطاب جمعيا وجماعيا فى القرآن الكريم وهو يعرض التكاليف والقوانين التى تمثل النظم الإسلامية، كان هذا متعلقا بأهداف تربوية وعلمية تجمع الأمة والجماعة

على التعاون على البر والتقوى وتحقيق الدور الإيجابى الذى يظهر النظم الإسلامية فى كيان المجتمع بأكمله. يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾(٣). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾(٤).

وعموما الخطاب لايعنى إعطاء الجماعة حق التشريع أو سن القوانين وإنما هو خطاب التكليف بالقانون والنظام الإلهى يستوى فى امتثاله وطاعته الفرد مع الجماعة، فالمسؤولية فى النظم الإسلامية فردية، وهناك مسؤوليه جماعية ترجع فى أساسها إلى المسؤولية الفردية، يقول تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(٥). ويقول جل شأنه: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾(٦).

والقول بموضوعية النظم الوضعية كخاصية من خصائصها، على هذا التصور والمفهوم الذى وضعه علماء الاجتماع القدامى منهم والمحدثون، يجعلها منقطعة الصلة بالإنسان، ويجعل لها قانون عمل آخر يختلف عن قانون عمل الإنسان، وهذا يؤدى إلى إهدار النعم وتضييعها فى غير ماخلقت له، وقد قطعت الحضارات التى تقوم على النظم الوضعية شوطا كبيراً فى إهدار النعم، وقد رصد القرآن الكريم بعض مظاهر الموضوعية التى تتبناها النظم الوضعية، فذكر الآثار المترتبة على هذا

---

(١) (٢) (٣) سورة البقرة: الآيات ١٨٣، ١٧٨، ٢١٦.

(٤) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٥) سورة النجم: آية ٣٨: ٤١.

(٦) سورة الأحقاف: آية ١٩.

الفكر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(٣).

وقد أدى إلى هذا الطغيان القول بانقطاع الصلة والعلاقة بين الإنسان وبين النظم وأنه يتلقاها من الخارج مستقلة عن فطرته، وأن المعرفة بها تأتي من الخارج بعيدة عن شعور الأفراد، وقد أدى إلى هذا الخلط تصورهم أن «النظم الاجتماعية لها وجود خاص خارج شعور الفرد، لأنها ليست من صنعه، بل هو يتلقاها من المجتمع الذي نشأ فيه، بمعنى أنها ليست وليدة التفكير الذاتي»(٤).

وعلى هذا فالموضوعية في النظم الوضعية تختلف عن الواقعية في النظم الإسلامية إختلافا جذريا، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه ذو فطرة إيمانية، يقول تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾(٥). وهذه الفطرة هي «التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»(٦). وقد صرحت السنة النبوية بذلك في قول النبي - ﷺ - :

---

(١) سورة الشعراء: آية ١٢٨: ١٣٠.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٨.

(٣) سورة الفجر: الآيات ٦:١٤.

(٤) د. زيدان عبدالباقي: علم الاجتماع الإسلامي ص ١٠.

(٥) سورة الروم: آية ٣٠.

(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤٣٢/٣.

«مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[١]. وقد خلق الله الإنسان وزوده بالمعارف والملكات التي تتعرف على الكون وتتعامل معه يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[٢]. ويقول تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[٣]. وبين الكون وبين الإنسان علاقة هى علاقة العبودية لله رب العالمين، فدلائل القدرة وأدلة اليقين تتماثل فى الكون والنفس الإنسانية فالخالق واحد هو الله، والسنن التى تحكم الإنسان وتحكم الكون، وتقوم عليها النظم الإسلامية واحدة.

وقد خلق الله فى: الإنسان بموجب استعداده علما ضروريا بحقائق الأشياء، وسنن الله التى تحكمها، ومالها من قوانين النفع والضر»[٤].

ولما كان الإسلام هو الأقدر على توضيح الحقائق وإثبات العلاقة القائمة بين الإنسان والأشياء والأفكار، وذلك إذا سارت فى رحاب التوحيد والإيمان، وجدنا يحدثنا عن صور لهذه الصلة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ ياجبال أوبى معه والطير وألفاله الحديد ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[٦]. وقول النبى - ﷺ - :«إنى لأعرف حجراً كان يسلم على قبل أن أبعث»[٧]. ومنه تسبيح الحصى فى كف النبى - ﷺ -

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البرد والصلة والآداب، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة صحيح مسلم بشرح النووى ٢٠٧/١٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٣١.

(٣) سورة الرحمن: آية ١:٤.

(٤) د.أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق ص ٨٥.

(٥) سورة ص: آية ١٠.

(٦) سورة النمل: آية ١٦.

(٧) الحديث فى الصغير برقم ٢٦٤٥ ورمز له بالصحة، وفى مختصر مسلم برقم ١٥٢٨، لجنة تحقيق جمع الجوامع للسيوطى بمجمع البحوث الاسلامية رقم ٣٧٠٢/٨١٩٠.

وفي كف بعض الصحابة وسماعهم لهذا التسبيح، وهكذا فلغة التوحيد مشتركة وعلاقتها قائمة بين الإنسان وكل شئ في الكون.

وبهذا نرى أن علماء الاجتماع - دوركايم وغيره - في القول بالقهرية والموضوعية قد جنحوا جنوحاً ماديا لإقصاء كل مايتعلق بالدين وإبعاده، حتى ولو كانت الفطرة الإنسانية.

سادساً: النسقية والهدفية:

يقصد بالنسقية في علم الاجتماع الإنساني، «أن النظم الاجتماعية تترابط فيما بينها وتتماسك لتشكل كلا واحداً، يخدم النموذج الاجتماعي العام الذي يوجد عليه المجتمع بصفة عامة.

فالنظم الاجتماعية لاتعيش كل فيها منفردة ومنعزلة عن الأخرى، ولكنها تترابط وتتساند على هيئة نسق متكامل لتعمل على ضغط المجتمع كوحدة واحدة.

فالنظم الاجتماعية مرتبطة بالنظم القانونية والأخلاقية والدينية والأسرية والتشريعية والسياسية والاقتصادية»[١].

وأما الهدفية فيقصد بها «أن النظم الاجتماعية لاتتجه إلى الصدفة لكي تحركها، لكنها محددة الأهداف من حيث أن لها أهدافا وأغراضا تتجه لحماية هذه النظم والحفاظ عليها»[٢].

وهكذا تبدوا أهمية النسقية والهدفية في النظم المختلفة والمتعددة، لأنها تؤدي إلى السعادة التي ينشدها الإنسان بتصوره ومقياسه، وهذا يتطلب أموراً عديدة: حجم النظم التي يحتاج إليها الإنسان وهنا يأتي الشمول في النظم الإسلامية، وكذلك الأفراد الذين ستعمهم هذه النظم

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٥.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

وهنا تأتى خاصية عموم النظم الإسلامية، فالنظم الوضعية النسقية فيها محدودة بحدود كل مجتمع، أما النظم الإسلامية فمفهوم العمومية فيها يشمل الكون والإنسان والزمان والمكان وذلك من خلال المقومات التى تساعد على ذلك.

وهذه النسقية مطلب حضارى ولكن هل توافرت الشروط التى تبنى نظماً صالحة تؤدى فى النهاية إلى التناسق وبناء الإنسان الصالح؟ الواقع الإنسانى فى النظم الوضعية لايشهد بذلك، فنسبة الانتحار، وانهيار الأسرة، وانتشار الأخلاق المذمومة يتعارض مع قول علماء الإجتماع: إن أهداف وأغراض النظم الوضعية «تنحصر فى محاولة تأمين المجتمع وتأكيد سلامته وسلامة أفراده والحرص على مقومات هذا المجتمع وبقاء كيانه»(1).

وقد يكون هذا القول مقبولاً لديهم، إذا كانت أهداف النظم الوضعية هى العنصرية، ونشر المادية الملحدة، ومحاربة الدين، والأخلاق الحسنة.

وهنا نقول: هل إباحة الزنا فى هذه النظم يؤدى إلى تناسق النظام الاجتماعى مع النظم الأخرى؟.

والأمر كذلك بالنسبة لشرب الخمر، وماهى الحقائق العلمية التى انتهى إليها العلم بخصوص الزنا والخمر والميسر وغير ذلك مما تشتمل عليه النظم الوضعية؟.

إن أهداف النظم لايستطيع أن يحددها غير الذى بقدرته أن يخطط النظم التى تستوعب حياة الإنسان المادية والروحية، ويعلم حقيقة المادية والروحية فى الإنسان، ومن ثم تأتى النظم بالأهداف التى تصل بالإنسان إلى المستوى الراقى والمعرفى الذى وضعه له خالقه.

---

(1) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٦.

إن علماء الاجتماع وأصحاب النظم الوضعية لن يعييهم الكلام، وكان الأحرى بهم أن يبينوا الأهداف والأغراض التى حققتها النظم الوضعية للإنسان فى أى بيئة من البيئات.

إن السعادة لاتقاس بكثرة الاختراعات، وأسباب الترفيه، ولكنها كما يقول «ألكسيس كاريل»: «يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شئ. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لايملك معرفة علمية بطبيعته.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية.. إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا.. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها»[1].

ويقول «ول ديورانت» الفيلسوف الأمريكى فى كتابه «مناهج الفلسفة»: «وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض.. وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا، ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب»[2]. ولنا على هذه الأقوال بعض التعليقات حيث إنه من الثابت أن التقدم لايذم لذاته وإنما تذم النظم التى تؤدى به إلى حالة الضنك هذه التى يعيشها العالم، أن هذه الدول أصيبت بكل هذه الأمراض، ولم تستطع المسيحية ولا

---

(١) د. ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٦/م ص ٤١.

(٢) محمد قطب: التطور والثبات فى حياة البشرية، دار الشروق ط خامسة ١٩٨٣م ص ١٦٠.

اليهودية أن تقدم حلا لمشكلات الحضارة، ولم يثبت للغرب حضارة خلت من هذه الأمراض وتلك المشكلات، أما النظم الإسلامية فقد أقامت حضارات عديدة كانت خالية من الأمراض والأزمات التى واجهت غيرها من الحضارات، فهناك مملكة سليمان نبى الله ﷺ ، وماكان فيها من العطاء والفضل الإلهى، وهناك حضارة ذى القرنين وماكان فيها من كشف للسنن الإلهية فى الكون، ثم كانت الحضارة الإسلامية الخاتمة التى امتدت لأكبر رقعة من الكرة الأرضية، وامتدت أزمته طويلة بقيت أكثر من عشرة قرون.

إن خصائص النظم الوضعية التى أشار إليها علماء الاجتماع ليست شاملة وليست كاملة، وليست واقعية، وليست إنسانية، وإنما هى تقديرية لاتفى بحاجات الإنسان وهواه، كما ترجع فى أهدافها ومقاصدها إلى عوامل تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن ثم فالأهداف والمقاصد متعددة ومتباينة من مجتمع لآخر.

الفصل الخامس

أثر النظم في المجتمعات

المبحث الأول : سنة الله في النظم والمجتمعات

أولا : مفهوم السنة:

السنة هي الطريقة والسيرة، وسنة الله : حكمه في خليقته(١).

يقال : سننت الإبل، إذا أحسنت رعيتها والقيام عليها. واستن الفرس، وهو عدوه إقبالا وإدبارا في نشاط، وسن الماء على وجهه : صبه صبا سهلا. وسن الحديدة : حددها(٢).

ويقال : هذا مما يسنك على الطعام، يشحذك على أكله، ويشهيه إليك وسن الشئ : صوره وملسه، والأمر بينه، والمشرع القانون، وضعه(٣). ولما كانت المادة اللغوية لهذه اللفظة غنية بهذه المعاني استخدمها القرآن الكريم للدلالة على مجموعة القوانين التي سنها الله - عز وجل - لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها(٤).

فالسنة حكم وقانون يراعي فيه حسن التدبير حتى ترتبط المقدمات بالنتائج، والأعمال بالآثار المترتبة عليها. وهذه السنة تجري في نشاط واستمرار بدون توقف، وهي تعمل بيسر وسهولة فلا تتداخل ولا تفقد مرونتها، وذلك لإحكام صنعها ووضعها عند خلقها وتسيرها، وهي خاضعة للمفعول محققة الأثر قاطعة، وهي كاملة الأركان واضحة المفهوم تتعامل مع الإنسان حسب طاقاته وإمكانياته، وتزرع فيه الهمة إلى التعرف عليها ليقبل على توحيد المشرع الذي وضعها وأتقنها وعبادته، وتصديق رسله الذين أرسلهم، والعمل بوحيه الذي هو نظامه الذي تحكمه السنن الإلهية والقوانين

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١ / ٤٥٦.

(٢) الفيروز ابادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثانية ١٩٨٦م ٢/٢٦٨.

(٣) المعجم الوسيط١ / ٤٥٥.

(٤) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ٥٢.

الربانية، وهذه السنن واضحة وجلية فى الجانب المادى للكون فقد قدره الله تقديرا، يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾[3] ويقول تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾[4] ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾[5]. ويقول تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[6].

وهذا التقدير الإلهى تظهر آثاره فى قيام المخلوقات بدورها تبعاً للسنن الإلهية التى تحكم هذه المخلوقات وتسيرها، يقول تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾[7].

وبالتأمل نرى أن هذه السنن والقوانين تعمل بأمر الله وتنفذ أمر الله فهى أمر الله، الذى إذا اكتملت أسبابه وقعت آثاره وكانت نتائجه يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾[8] ويقول تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[9] ويقول تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[10].

وتقوم هذه السنن الإلهية بدورها من خلال خصائص تجعل الأمور التى تخضع لهذه السنن فى نطاق التسخير لنا.

---

(١) سورة الفرقان : آية ٢.

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٨.

(٣) سورة القمر : آية ٤٩.

(٤) سورة الأعراف : آية ٥٤.

(٥) سورة الأعلى : آية ٣.

(٦) سورة الطلاق : آية ٣.

(٧) سورة يس : آية ٤٠.

(٨) سورة الطلاق : آية ٣.

(٩) سورة الأحزاب : آية ٣٧.

(١٠) سورة البقرة : آية ٢١٠.

وأهم هذه الخصائص:

* الشمولية لكل الخلائق حيث يجد الإنسان أنها جميعا ترتبط بمنهج موحد من السنن الربانية، «فكل مافى هذا الكون من جماد وحيوان ونبات وإنسان يخضع لسنن ربانية محكمة ... وأنه لا شئ فى هذا الوجود خارج عن سنة الله، بل الكل خاضع له سبحانه»[1] وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾[2].

* الثبات، أى أنها لا تتبدل ولا تتحول، يقول تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[3] ويقول تعالى : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[4].

* الإطراد واللزوم، فجميع السنن التى فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة - بإذن الله - كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع، التى تحول دون تحقيقها، يقول تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[5] ويقول تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[6].

وهذا الاطراد يخضع للقدرة والمشيئة الإلهية التى تحكم ماتريد، والتى إذا أرادت عطلت فى السنن هذه الخاصية لحكمة ربانية.

ومما لا شك فيه أن هذه السنن معالم ربانية شاهدة تدعو الإنسان إلى الإيمان بالله خالق السنن والقوانين، كما أنها دالة وهادية ومعلمة ومرشدة،

---

(١) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٦٥.

(٢) سورة الرعد : آية ١٥.

(٣) سورة فاطر : آية ٤٣.

(٤) سورة القمر : آية ٣.

(٥) سورة محمد : آية ٧.

(٦) سورة آل عمران : آية ١٢٠.

تأخذ بلب الإنسان وعقله إلى حقيقة أوسع وأشمل، أكمل وأعم، وهى حقيقة النظم الإلهية القائمة هى الأخرى على السنن الإلهية فهي مهيمنة لهذه.

ثانيا: علاقة النظم بالسنن الإلهية.

تسير النظم الإلهية وفق منهج علمى واضح المعالم والحدود، فالعبادات مقدرة، والمعاملات بكل أنواعها نجد فيها التقدير، والأخلاق معروفة الهيئة والصفة.

وهذا التحديد والتقدير بالأعداد والأرقام يمثل قانون الله ونظامه الذى يأمر به خلقه عند أداء هذه العبادات والقيام بها، وكل طريقة أخرى للأداء مردودة، سواء كان ذلك بالتغيير والتبديل أوبالزيادة والنقص، فقد وضع الله هذه النظم بقدر وتقدير يؤدي إلى آثار ونتائج مقدره، وهى على هيئتها التى شرعها الله عليها وطبقها رسول الله - ﷺ - تتفق وتتناسب مع قدر الله وتقديره فى خلق الإنسان، كما أن طاقتها تسير مع الطاقة الإنسانية، وإلى هذا يشير قول الله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] وكان دعاء المؤمنين : ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[2].

ومن هنا فالخلل فى الأداء بأى صورة من الصور لا يحقق الآثار الحقيقية المترتبة على أفعال وأعمال الطاعات والعبادات، مما يجعلها مردوده لأن قانون الله فيها لم يكتمل وسنته لم تطبق كما شرع الله وكما طبق رسوله - ﷺ - وإلى هذا يشير رسول الله - ﷺ - بقوله : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[3].

(١، ٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦.

(٣) رواه البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول رقم ٧٣٥٠ جـ ٢٨ ص ٨٥.

والحديث فى صحيح مسلم وسنن أبى داود. منصور على ناصف : التاج الجامع للأصول، كتاب الإسلام والإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٣/١.

فلابد للنظم أن تكون قائمة على وفق القانون الذى وضعه الله، مستوفية للشروط التى سنها لقبولها حتى تعود على الإنسان آثار هذه النظم، وقد بين القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١).

ومن هنا فالسلوك الإنسانى مقدر ومحدد ويجرى وفق قانون وسنة، وتلك خصيصة من خصائص النظم الإسلامية. وهذا مايتمتع به المسلم دون غيره، فنظم الإسلام تكفل له سلوكا شاملاً لكل جوانب حياته، أهم مقوماته أنه علمى موضوعى يقوم على حقيقة ثابتة وسنة صادقة وقانون مدروس العواقب والآثار.

وقد لاحظ ذلك العلاقة ابن القيم وأشار إليه بقوله : «لهذا يذكر الشارع - الله - العلة والأوصاف المؤثرة، والمعانى المعتبرة، فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها»(٢).

وإن من يدقق النظر فى أحكام الشرع المختلفة، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة، التى لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شئ مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دائماً، فى الدنيا قبل الآخرة، وإن الإتيان بشئ قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة فى الدنيا قبل الآخرة، وفى هذا غاية العدل والحكمة والتدبير»(٣).

وبهذا البيان يجيب الفكر الإسلامى على كثير من الأسئلة التى يتصور البعض أنها معضلة أو ليس لها جواب، وذلك كسؤال البعض عن الصلوات

---

(١) سورة فاطر : آية ١٠.

(٢) أعلام الموقعين : ١ / ١٩٦.

(٣) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٧٨.

لماذا كانت خمسا؟ ولماذا كان عدد الركعات متفاوتا من صلاة إلى أخرى؟ ولماذا كانت مقادير الزكاة على هذا النحو؟ ولماذا كان الصيام شهراً قمريا؟ ولماذا كان الحج إلى بيت الله الحرام بمكة ؟ وهكذا.

والجواب أن هذه الأحكام سنن إلهية وقوانين ربانية تتفق مع طاقة الإنسان، تجلب له المصلحة وتدفع عنه المفسدة، وقد وضعت تبعا لعلم الله بدقائق النفس الإنسانية وخفاياها وطبيعتها ودوافعها وغرائزها، فجاءت محققة للأمن النفسي والاستقرار الروحي.

ثالثا: علاقة السنن بالإنسان والمجتمع.(١)

النظم الإسلامية سنن وقوانين، تحكم الإنسان والمجتمع، وتظهر آثارها عند تطبيقها في صور كثيرة، وإذا ماخالفها الإنسان أو أعرض عنها فلها آثار أخرى تظهر في صور أخرى، فالنظم سنن تنتج سننا، فالصلاة لها قانون وسنة والمحافظة عليها ينتج قانونا وسنة، والاهمال فيها ينتج قانونا وسنة، وهكذا الحياء والصدق والإيثار والشجاعة والصبر والجهاد وأداء الزكاة، وكل نظم الإسلام.

وهذه الآثار تظهر على الإنسان كما تشمل المجتمع.

«إننا نؤمن بأن الله - تعالى - هو خالق كل شئ بقدرته وإرادته واختياره وحكمته، وإن له تعالى فى نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع، سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وإن سننه تعالى عامة فى عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر السنن الإجتماعية باللفظ فى سورة المائدة والأنفال والحجر والإسراء والكهف والأحزاب وفاطر والمؤمنون والفتح، فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام فى

---

(١) راجع ص ٢٩١.

الخلق الذى تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التى وضعها الخالق لها»(١).

وإذا كانت سنن الله جارية وواقعة فى النظم التى شرعها، فهى كذلك تحكم حياة الإنسان وتظهر آثارها عليه.

يقول أبو الأعلى المودودي : «تلك سنة الله فيما خلق، وهذه السنة كما هي جارية فى سائر الموجودات، هى جارية أيضا فى الإنسان، سواء فى حالته الفردية أوفى حالته الجماعية القومية، فلا يزال العز والذل، والعسر واليسر، والصعود والنزول، وما إلى ذلك من الحالات يتناب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة الدورية، فتطرأ على الجميع كل هذه الأحوال بالتناوب، وليس منهم من حرم فى هذه القسمة للأبد، ولا منهم من اختص بدوام حالة واحدة علية للأبد، سواء أكانت حالة الإقبال أم الإدبار»(٢).

وهذا قانون وسنة إلهية يشير إليها قول الله – تعالى – : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾(٣).

ومعنى ذلك أن سلامة الإنسان وسعادته ليست ذاتية، وإنما هي ترتبط بالنظم التي ينظم بها حياته، ومدي توافق هذه النظم مع طبيعته ومكوناته، وكما يقول أهل التخصص : صاحب الصنعة أعلم بأسرار صنعته، وهذا يؤكد ضرورة النظم الإسلامية.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن النظم الإسلامية فى كل مجالاتها تقوم على أفعال وأعمال وأفكار تقع مابين الأمر والنهى، وما بين حلال وحرام، ويترتب على عمل الحلال آثار، كما يترتب على عمل الحرام آثار، وهذه كلها محكومة

---

(١) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدى ١٥٣ وما بعدها.

(٢) أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية، دار الفكر ٧٢.

(٣) سورة الأحزاب : آية ٦٢.

بسنة وقانون إلهى جعله الله آية وعلامة واضحة تدل الإنسـ[illegible]ـى ولا يجرى على الأفراد يجرى على المجتمعات.

وقد ربط الله بين سنن النظم وبين الإنسان والمجتمع، فأيما إنسان عمل بنظم الإسلام التى هى نظم خالق هذا الإنسان إلا نال الأثر الطيب وهو الجانب الإيجابى فى سنن الله، وأيما عبد خالف نظم الصانع الخالق فى صنعته إلا نال العقاب الذى جعله الله قانونا وسنة، وهو الجانب السلبى للقانون والسنة الإلهية.

يقول تعالى مبينا العلاقة بين قانون النظم الإلهية وعلاقته بالإنسان والمجتمع : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[1] ويقول تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾[2] ويقول تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾[3].

وهذه الآيات تبين السنن الإلهية التى جعلها الله آثاراً للطاعة وعمل الصالحات، التى تتمثل فى تطبيق قانون الله فى النظم وتشغيل الإنسان. وهناك آيات أخرى تبين السنن الإلهية التى جعلها الله مرتبطة وحتمية للكفر والمعصية، يقول تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[4] ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[5] ويقول تعالى : ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[6]. ويقول تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ

---

(١) سورة الكهف : آية ٨٢.

(٢) سورة الرحمن : آية ٦٠.

(٣) سورة الليل : آية ٥ :٧.

(٤) سورة الأنفال : آية ٥١.

(٥) سورة الزخرف : آية ٥٥.

(٦) سورة الأعراف : آية ١٦٦.

أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[1].

والآيات القرآنية فى بيان السنن الإلهية التى تربط بين النظم والإنسان والمجتمع كثيرة، وهى تؤكد قيام وحتمية هذه السنن واطرادها فى حياة الأفراد والمجتمعات، كما أنها تبين تعددها وتنوعها مابين مادية ومعنوية فى جانب الفجور والتقوى، والطاعة والمعصية، والإصلاح والإفساد، والكفر والإيمان.

ولنا أن نستأنس بما كتبه الدكتور : أحمد محمد كنعان، وهو يبين هذه الحقيقة، وذلك فى قوله : «أجل .. فإن سنن الله – عز وجل – لا تحكم العالم المادى وحده، بل هى تحكم مافى هذا الوجود من خلائق، سواء أكانت مادية كالذرة، والكهرباء والحرارة، أم كانت معنوية كالعواطف الإنسانية، والسلوك الاجتماعي .. وهذا ما تؤكده آيات كثيرة من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2] فالكل خاضع لله .. خاضع لسننه التى فطر الخلق عليها .. وكما أن الماء يطفئ النار، وكما أن المعدن يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة ..

وهذه كلها سنن مادية مشاهدة ومدركة .. فكذلك السنن التى تحكم النفس البشرية والحياة الاجتماعية، فهى سنن تقوم على مقدمات ونتائج، وترتبط نتائجها بمقدماتها ارتباطا وثيقا مقدرا من الله عز وجل.

ويجمع علماء النفس من خلال ماحصلوه من معلومات وخبرات عن طبيعة النفس البشرية، بأن هذه النفس محكومة بسنن صارمة، تقدر حالها،

---

(١) سورة الطلاق : آية ٨ : ١٠.

(٢) سورة آل عمران : آية ٨٣.

من حيث الصحة والمرض، والعادة والشقاء، كما يجمعون على أن الوضع النفسى للفرد يتوقف بصورة مؤكدة على عوامل عديدة، كالثقافة والظروف البيئية والاجتماعية والسياسية ..

ويثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة دون لبس، ويبين بوضوح تام، أن حال الإنسان من حيث السعادة والشقاء مثلا مرهونة بنظرته إلى الحياة، وبموقفه من هذه الحياة .. ففى سورة الشمس، يخبرنا الله – عز وجل – بأن صلاح الإنسان مرهون بتزكية نفسه، وأن شقاءه بالمقابل، مرهون بتدسية هذه النفس ..

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾(١).

فهذه سنة نفسية تصدق على أى إنسان، فأيما إنسان صدق العزم، وأخلص النية، وزكا نفسه، فنأى عن المحرمات، وعن الخبائث، فإن الفلاح سيكون من نصيبه، وأيما إنسان دنس نفسه بالحرام، ورضى بالخبائث فإن الخسارة نازلة به لا محالة.

ولقد قدم لنا القرآن الكريم السُّنَّة التى تحكم سعادة الإنسان وشقاءه بصورة معادلة رياضية لا تقبل الجدل، وذلك فى قوله – سبحانه – : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(٢).

فالسعادة والشقاء كما يقدر الحق – تبارك وتعالى – رهن بالتزام شرع الله، أو النأى عنه ورفضه، وهذه سنة ربانية تحكم حياة البشر، وستظل تحكمها إلى يوم القيامة ..

---

(١) سورة الشمس : آية ٧ : ١٠.

(٢) سورة طه : آية ١٢٣، ١٢٤.

ولو تتبعنا الآيات القرآنية، لوجدناها تعرض لنا الدليل تلو الدليل على أن النفس البشرية خاضعة لسنن صارمة، لا تقبل التبديل ولا التحويل فإذا ما انتقلنا بعد ذلك من نطاق النفس البشرية، إلى نطاق المجتمع، فإننا سنجده أيضا محكوما بسنن ربانية صارمة شأنه شأن النفس .. ولا عجب في هذا .. فإن المجتمع في الحقيقة ليس إلا مجموعة من الأفراد .. وإن حال المجتمع يعكس سلوك هؤلاء الأفراد أنفسهم، ومن ثم فإن مصير المجتمع بأسره مرهون بسلوك أفراده .. نجد مصداق هذا في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١) وقوله - تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(٢).

وفي هذا دليل على أن سلوك الأفراد، الذين يشكلون مجتمعا ما، يعد بمثابة مقدمة لنفاذ السنة المرتبطة بهذا السلوك .. وبمعنى آخر فإن انتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائيا، بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط وجهته»(٣).

وحقائق القرآن الكريم في هذا المجال ليست نظرية فقط، وإنما لها رصيد كبير يؤكدها من الواقع العملي والمجال التطبيقي، وذلك في حياة الأفراد والمجتمعات السابقة التي ظهرت فيها الآثار الإيجابية والسلبية للسنن الإلهية والقوانين الربانية التي تحكم سلوك الأفراد والمجتمعات، يقول تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٥.

(٣) انظر د. أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٥٨ وما بعدها.

(٤) سورة القصص : آية ٨١.

مِّنْ أَغْرَقْنَا ﴾[1] وقوله كذلك : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[2] وحديث القرآن الكريم عن الأمم والمجتمعات السابقة المختلفة والمتعددة واضح فى بيان الجانب التطبيقى لسنن الله، منها من عاش حياة رغيدة آمنة، ومنها من ذاق لباس الخوف والجوع، ومنها من باد وهلك بعذاب أليم، والأمثلة كثيرة، فهناك قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح وأصحاب مدين، وفرعون وقارون، وهناك سبأ، وصاحب الجنتين، وعلى الجانب الآخر هناك ذو القرنين. يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾[3] ويقول تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾[4].

وهكذا فالعلاقة قائمة بين قانون النظم وقانون الإنسان والمجتمعات، بين الإيمان وأثره، وبين الكفر وأثره، بين الطاعة وأثرها، والمعصية وأثرها.

وقد عرضت السنة النبوية لكثير من الحقائق التى تتصل بالسنن الإلهية والقوانين الربانية التى تحكم حياة الأفراد والمجتمعات. وذلك فى قوله - ﷺ : «ما ظهر فى قوم الربا والزنى إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»[5] وقوله - ﷺ : «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»[6] وقوله - ﷺ :

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٠.

(٢) سورة فاطر : آية ٤٣.

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٦.

(٤) سورة الجن : آية ١٦.

(٥) الحديث فى مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود ٤٠٢/١، والحديث فى مجمع الزوائد ١١٨/٤ قال الهيثمى : رواه أبو يعلى، وإسناده جيد. السيوطى جمع الجوامع ٤٩٨/١٨٨٧٠ ص٢٣٣١.

(٦) الحديث فى مجمع الزوائد كتاب الزكاة، باب فرض الزكاة، قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط. السيوطى جمع الجوامع ١١٨٧ - ١٩٥٥٩ ص ٢٩٦٤.

«لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض مافى أيديهم.

ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[١].

هذه صور للسنن الإلهية التى تحكم الأفراد والمجتمعات وتقع بهم وتظهر فيهم آثارها، وهذه نتيجة حتمية مرتبطة بمخالفة سنن الله التى جاءت فى نظمه التى شرعها ونظم بها خلقه من الأفراد والمجتمعات.

وهناك صور ونماذج عرضت لها السنة النبوية فيما يتصل بالسنن التي تظهر في الأفراد والمجتمعات عند الالتزام وتطبيق النظم الإلهية، ومن ذلك قول النبي ﷺ : «من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ فى أثره فليصل رحمه»[٢] وقوله - ﷺ - : «مانقصت صدقة من مال، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٣] «فهذه كلها سنن اجتماعية لا تتخلف نتائجها عن أسبابها، فهى كالمعادلة الرياضية، التى ترتبط فيها

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات ٤٠١٩ هـ ٢ ص ١٣٣٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم. النووى : شرح صحيح مسلم ١٦ / ١١٤.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة : باب استحباب العفو والتواضع. شرح النووى ١٤١/١٦.

النتيجة بالمقدمة ارتباطا محكما لايقبل التبديل»[1] ونخلص من كل ماسبق إلى تقرير الحقائق الآتية :

- أن لله سننا وقوانين أقام عليها النظم التى شرعها لخلقه.
- أن هذه السنن تتوافق وتنسجم مع خلق الإنسان وطبيعته وأنها تحقق له الإنسجام مع المجتمع والكون.
- أن الله أحكم صنع الكون المادى وأتقنه بسنن وقوانين تحكم نظامه وحركته، ومن خلالها يقوم كل مخلوق بدوره، ومنها تعلم الإنسان الكثير واستفاد منها فى حياته العملية.
- أن الإنسان والمجتمع يخضعان لسنن إلهية مرتبطة بالنظم الإلهية سواء عند تطبيقها والعمل بها أو عند تركها ومخالفتها.
- أن الواقع وأخبار الأمم السابقة يؤكد ذلك.
- أن السنن الإلهية التى تحكم العالم المادى جعلها الله دليلا يأخذ بالإنسان إلى الإيمان بالسنن التى قامت عليها النظم الإلهية، والتصديق بالسنن التى جعلها الله آثاراً للإيمان بالنظم أو الكفر بها ومخالفتها.
- أن هذا الفكر السننى ليس له مصدر سوى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتلك خصيصة إسلامية لا توجد فى أى فكر آخر، أو أى مذهب وضعى.

---

(١) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٦١.

المبحث الثاني : أثر النظم الإسلامية

جاءت النظم الإسلامية مستوفية لكل الخصائص والمعالم التى تؤكد توافقها مع الطبيعة الإنسانية بما فيها من طاقات وقدرات ونوازع ودوافع، وما ذلك إلا لأنها نظم الله الذى خلق الإنسان وصوره فى أحسن تقويم، ولما كانت النظم الإسلامية على هذا النحو فقد جاءت لتوظف طاقات الإنسان أحسن توظيف، ولتستخرج مافيه من المواهب الروحية التى تجعل الإنسان أهلا لاستشراق العوالم النورانية والآفاق العلوية، فالمسلم لا يؤمن بعالم الغيب إيمانا نظريا فقط، وإنما يجمع إليه التذوق والوجد والمشاهدة من خلال النظم الإلهية التى توفر له هذه الملكات وتحرك فيه هذه الطاقات، ولذلك فالقضية ليست فى عالم الغيب ولكن القضية فى النظم التى تحرك الملكات وتوقظ عالم الروح الحقيقى فى الإنسان، وقد شرح القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله – تعالى – : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾(١) وقوله – تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٢).

ومن هنا كانت آثار النظم الإسلامية بعيدة المدى عظيمة التأثير والأثر فى الإنسان لأنها تتعامل مع الكيان الإنسانى بشقيه المادى والروحى، وهى فى فكرها وتطبيقاتها العملية تغذى فيه الجانبين معا، ثم تضيف الى ذلك بعداً ثالثا وهو الأثر الذى يلحظه المسلم فى حياته الخاصة والعامة، فيما بينه وبين مجتمعه، وفيا بينه وبين ربه وخالقه – سبحانه وتعالى – فالنظم الإسلامية مربية وحاكمة ومثمرة.

وآثار النظم مجالاتها واسعة، يراها المسلم فى تربيتها للفرد والجماعة، ويراها كذلك فيما تحققه من هدى ونور وصلاح، وأخوة صادقة،

---

(١) سورة البقرة : آية ٥.

(٢) سورة الزمر : آية ٢٢.

وترابط حقيقى بين أفراد المجتمع المسلم، ويراها كذلك فى نجاح الفرد المسلم فى رسالته، ونجاح الأمة فى القيام برسالتها وشهادتها على الناس، ويراها كذلك فى الدنيا والآخرة، ويراها كذلك فى التقدم العلمى بكل تخصصاته، والآفاق الروحية التى تصل بالمسلم إلى مقام اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إن المسلم يعرف من خلال سنة الله فى النظم الإسلامية بركة الطاعة، وشؤم المعصية، ويعرف أن هذه من آثار النظم الإسلامية، إنه يتعامل مع النظم الإسلامية فيرى أثرها وثيق الصلة به فى كل شؤن حياته، كما يرى أثرها فى الأسرة التى يعيش فيها والمجتمع الذى هو فرد من أفراده.

وقد جاءت آثار النظم الإسلامية على النحو التالى :

أولاً: أثر النظم فى بناء المجتمع.

يقوم المجتمع على عدد من الأفراد يمثلون كيانه وحقيقته، تربط بينهم روابط متعددة، تختلف فى تصورها من مجتمع لآخر، «فكل مجتمع لا يصلح للحياة المشتركة، إلا إذا وجدت بين أحاده روابط من ضروب شتى، تجمع بينهم وتوجههم إلى غرض واحد. وقد وجدت هذه الروابط فى أول أدوار الاجتماع، وكانت من السذاجة على قدر ماكان عليه الأجيال الأولى من البساطة، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعا بأفراد من نوعه، كانت أولى تلك الروابط الحاجة المعاشية، فكان الأفراد يترابطون على القيام بها تحصيلا للقوت، ودفاعا عن الحوزة ضد الحيوانات الضارية، وضد المغيرين عليهم من الجماعات المجاورة لهم. وكانوا كلما ارتقوا فى الأسباب، زادت الروابط التى بينهم تركبا، ومازالت تتركب حتى بلغ الإنسان شأوا بعيداً من المدنية، فبلغت الروابط بينهم من التعقد بحيث يعوزها خبرة عظيمة بما يناسب الجيل من القيود والروابط ... من هنا صارت الحاجة

ماسة إلى وجود علماء للاجتماع ليتعرفوا هذه الروابط، ويقفوا على أسباب توثقها، وعلل تفككها، ووسائل معالجتها، حرصا على بنية المجتمع من الانحلال»(١).

وهذه الروابط متداخلة ومتشابكة ومعقدة، فالمجتمع يجمع بين الذكر والأنثى، والأم والأب، والزوجة والولد، والأخ والصديق والجار في السكن، والصاحب في العمل، والصغير والكبير، والصحيح والمريض، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، وكلها حقائق تشكل المجتمع، وتكشف عن عمق المشكلة التي تواجه من يضع روابط للمجتمع، تربط بين هذه النماذج جميعا مع مراعاة العدل والمساواه بين الجميع في الحقوق والواجبات، ولا يتسنى ذلك إلا للخالق الذي خلق الجميع، وقد سبق علمه بهذه الحقيقة التي يقوم عليها المجتمع، فجاءت تشريعاته ونظمه موازية لهذه الحاجات، محققة للعدل والمساواة بين هذه النماذج وتلك الحالات التي إن أهمل منها نموذج واحد، أو لم يعالج معالجة تتوافق مع حالته فربما أدى ذلك إلى وقوع الخلل في المجتمع.

ومن هنا كان إهتمام النظم الإسلامية بالأركان التي تمثل المجتمع، وكان أثرها الواضح في هذه الأركان التي تجمع الفرد والأسرة والأمة.

- **أثر النظم في بناء الإنسان.**

الإنسان هو اللبنة الأساسية التي يتكون منها المجتمع، ولذلك اهتمت به النظم الإسلامية أيما اهتمام، لتجعل منه المثل الصالح والقدوة الحسنة، والنموذج الطيب الذي يشكل مجموع الأمة، وقد حددت النظم الإسلامية للإنسان المسلم كوحدة في بناء المجتمع الحقائق اللازمة لبناء شخصيته وتقويم فكره، حيث أمدته بالحقائق التي تتصل بخلقه ومكانته بين المخلوقات،

---

(١) محمد فريد وجدي : مهمة الإسلام في العالم، هدية مجلة الأزهر ١٤٣٢ هـ ٢ / ٣٦.

ودوره ومهمته فى الكون، ومدى رعاية الله له وعنايته به، كما حدد السلوك المستقيم، ورسمت له الصورة الصحيحة الحقيقيه لغايته التى خلق من أجلها.

والمتأمل فى النظم والقيم الإسلامية يرى أنها جاءت على قدر هذه الحقائق التى يزرعها الإسلام فى قلب وعقل المسلم، ولذلك يظهر أثر النظم فى بناء الشخصية من خلال، «تلك الخصائص العامة التى يصنعها الإسلام بطبيعة الفلسفة التى يقدمها للإنسان، والقيم التى يدخلها إلى بنائه النفسى، بحيث كل فرد من أفراد المسلمين مهما تكن خصائصه، الوراثية الجسمية، البيولوجية والفيزيولوجية، فإنه يأخذ حظه من الآثار التى تولدها التربية الإسلامية فى شخصيته، والتى يصبح بفضلها كائنا يجمعه قاسم مشترك مع غيره من الأفراد داخل نفس المجتمع»[١].

وهذا الأثر الذى تحدثه النظم الإسلامية فى المسلم يعمل فى اتجاهين: إتجاه تربية للمسلم، واتجاه النتائج التى تعود عليه نتيجة لتطبيقه للنظم، حيث يجد ثمرة هذه التربية.

وبالتالى فهذا التأثير ذو شقين .. شق يترتب على قراءة الإنسان فى نظم الإسلام وثقافته، والشق الآخر يترتب على معايشة الإنسان لثقافة الإسلام والتزامه تطبيقا لنظمه»[٢].

وهكذا فالنظم الإسلامية تصنع الإنسان القدوة، الذى يوجد لديه وعى صحيح بحقيقة النظم الإسلامية، يمكنه من كشف الدخيل من النظم الوضعية، ومواجهة الوافد من التيارات الثقافية البشرية النابعة من أهواء

---

(١) د . عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، كتاب الأمة، ط أولى ١٩٩٩م ١٢٦.

(٢) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦٦.

العقول، وهذا هو التحصين لعقل المسلم ضد هذه الانحرافات الفكرية، والذى تحققه النظم الإسلامية بتنمية قوى الإنسان الروحية والفكرية، والحسية والمادية، مما يحقق للمسلم السير فى طريق طاعة الله - عز وجل - ومراقبته وخشيته، والبعد عن طريق الهوى والعصيان.

وأعظم أثر لنظم الإسلام فى الفرد المسلم هو تقوية صلته بالله - عز وجل - إلى الدرجة التى تجعله يراقبه فى السر والعلن، فى كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شئ إلا وهو يراعى حرمة الله ويرجو له وقارا، إنه يستشعر الخشية منه، وهو مقيم بين الخوف والرجاء، وهذا يملأ قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف، الخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، لأنه يشعر بقوة الله وحده، وأنه هو المالك للضر والنفع، وهذه الصلة بالله لها من الآثار، ذلك التركيز لفكر الإنسان وجهوده وطاقاته حول محور واحد هو الولاء لله ولرسوله وملة الإسلام ونظمه، فهذا التركيز هو الدرع الواقى من التشتت والانشطار الذى يضرب الذات بعنف فى غياب الإيمان بالله.

وإذا كانت النظم الإسلامية، وعلى رأسها الإيمان بالله، تترك أثرها فى النفس والجسم، طمأنينة وسكينة، فإنها فى ترابط عضوى مع كل الآثار السابقة، تخلف أثرها الواضح فى عقل الإنسان المسلم بفضل ذلك النسيج المحكم من الحقائق والتشريعات وأنماط السلوك التى يتصل بها كيان المسلم»[1].

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[2].

ولابد أن يستوعب المسلم حقيقة السنن الإلهية والتى تمثل النتيجة الحقيقة لأثر تطبيق النظم واستيعابها، وذلك كسنة الإيمان يؤدى إلى الفلاح،

---

(١) د. عبدالمجيد بن مسعود: القيم الإسلامية التربوية ١٢٧ بتصرف.

(٢) سورة التغابن: آية ١١.

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾[1] والكفر يؤدى إلى البوار يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ ﴾[2] ومثل ذلك علاقة الاستغفار بنزول المطر فهذا أثر يمثل قانونا للنظم الإسلامية ينتج عنها عند تطبيقها، وكذلك المدد بالأموال والبنين، وعلاقته بالزراعة والرى، والجنات والأنهار، وكذلك علاقة المعاصى بظهور الفساد فى البر والبحر، إلى غير ذلك من الآثار الإيجابية والسلبية التى تتعلق بالنظم الإسلامية عند التطبيق وعدم التطبيق، وهذا مجال واسع يحتاج إلى دراسة متخصصة.

ولا شك أن هذه الآثار تتعلق بحياة المسلم، وهو يواجها تبعا لنوعية أعماله وسلوكه الذى يختاره، ولا يظلم ربك أحدا.

وهذا هو عطاء النظم الخاص بالنظم الإسلامية فقط، والذى «يتمثل فى قدرة النظم الإسلامية على تحقيق المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والشرور عن كل فرد من أفراد المجتمع»[3].

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآثار تجمع بين المادية والروحية المعنوية، وهذا مرتبط بدرجة الإخلاص التى يلتزم بها المسلم فى أداء ماعليه من حقوق وواجبات تجاه نفسه وتجاه الآخرين، وقبل ذلك تجاه الله سبحانه وتعالى. يقول تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩ ﴾[4].

والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن والسنة، وصورتها جمع القرآن فى الآثار المترتبة على نظم الإسلام بين البركات التى تفتح من السماء والأرض

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١.

(٢) سورة إبراهيم : آية ٢٨.

(٣) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦٨.

(٤) سورة الأحقاف : آية ١٩.

والنور الذى يجعله الله فى القلب، والبرهان الذى يختص الله به من يشاء، والبصيرة التى ينالها أهل الايمان والتقوى، وهذه كلها آثار معنوية روحية، وبين الآثار المادية، وصورتها زيادة الرزق والعيش الرغد، والمخرج، والتيسير، والرزق من حيث لا يحتسب. إلى غير ذلك من الآثار.

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾(1) ويقول تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (16) ﴾(2) ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(3) ويقول تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12) ﴾(4) ويقول تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾(5).

وهذه الآثار – كما هو واضح من الآيات القرآنية – قانون يحكم نظم الإسلام فى كل الرسالات.

- أثر النظم فى بناء الأسرة.

الأسرة هى الوسيلة التى شرعها الله، وجعلها سببا للتناسل وتحقيق الذرية، فالأفراد جميعاً ينتمون إلى أسر مختلفة، والأسرة تحمل فى نظام الإسلام أمانة إعداد الأفراد، ولذلك كان اهتمام الإسلام بها عظيما، ودعوته إلى قيامها وتحقيقها أمراً أكيدا، فقد رغب الإسلام فى الزواج، وجعله

---

(1) سورة المائدة : آية ٦٦.

(2) سورة الجن : آية ١٦.

(3) سورة الأعراف : آية ٩٦.

(4) سورة نوح : آية ١٠ : ١٢.

(5) سورة هود : آية ٣.

السبيل الوحيد والطريق المشروع للعلاقة بين الرجال والنساء، وحتى يتحقق وجود الأسرة - معمل الأفراد - يسر الإسلام الأسباب التى تؤدى إلى قيامها، وأتاح الوسائل التى تحققها، ولم يقف بها عند الأسباب والوسائل المادية فقط، وإنما امتد بها إلى مكارم الأخلاق ومكانة الإنسان فى فكر الإسلام وثقافته، وبين للناس فلسفة الزواج، والدوافع التى على أساسها يتناكح الناس، وبين الحقيقى منها والوهمى، والأصيل والمزيف، وذلك فى كل من الزوج والزوجة، حتى أن الإسلام تغلغل فى البيان فتناول عوامل الوراثة وخصوصا منها مايتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد الحسنة والسيئة، وجاء أثر النظم الإسلامية واضحا فى بناء الأسرة عندما رسم الإطار الصحيح لمكان الرجل والمرأة فى الأسرة، وحدد لكل منهما دوره، وماله من حقوق وما عليه من واجبات، ورتب الخطوات التى على أساسها تقوم العلاقة بين الزوج والزوجة، وشرح لهما الغاية من هذا الزواج، وأنه لا يقتصر على المتعة وقضاء الوطر فقط، وإنما هذه وسائل ودوافع يحرك الله بها الإنسان لبقاء النسل وقيام الذرية التى هى عماد الأسرة.

ولما كانت تربية الأولاد تحتاج إلى مرونه وصبر، وجدنا نظم الإسلام تعالج ذلك ببيان المنهج الذى يتبعه الزوج والزوجة فى تربية الأولاد، وبيان الخير الذى يعود عليهما من وراء التربية الحسنة، كما عالج الأزمات التى قد تطرأ على الأسرة، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، مع بيان دورهما فى هذا العمل الشاق مما يدفع بالأولاد إلى برهما والعطف عليهما، وفى كل ذلك تعرض النظم الإسلامية صوراً واقعية من مصادرها الأصيلة، تشرح من خلالها للزوج والزوجة المراحل التى تعرض لهما فيما يتصل بنعمة الأولاد، والغاية التى من أجلها يطلب الولد ذكرا كان أو أنثى، وكيف يقف كل منهما عند فقد الولد، أو الحرمان منه، وذلك من خلال حياة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام، وحياة المؤمنين الصادقين الذين يقول الله عنهم :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[١] ويقول عن مقاصدهم فى الزواج والتناسل : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾[٢] ويقول عن تقديرهم لنعمة الأولاد، وقيامهم بواجب تربيتهم، وما يرجونه لهم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ ﴾[٣]. وفى مقام التربية يعرض كذلك الفكر النظمى الإسلامى من خلال مصادره نماذج للصادقين، وخير مثال على ذلك ما بينته لنا سورة لقمان - عليه السلام -. إن الأسرة هى المجتمع الصغير، وهى نواة الأمة الإسلامية، وطالما كانت فى رحاب النظم الإسلامية فهى محققة لدورها من خلال التعاليم والأحكام الربانية التى تمثل نظم الإسلام، التي تحقق لها السعادة وتضمن لها السكن المادى والمعنوى والمودة والرحمة، وحتى يقف المسلم والباحث عن الحقيقة على الأثر العظيم للنظم الإسلامية فى بناء الأسرة المسلمة، فإن عليه أن يمم وجهه شرقا أو غربا إلى النظم الوضعية، ليرى الفارق واضحاً بين الصورتين والحقيقتين من خلال آثار كل منهما، وإلى أى مدي يحقق كل من النظامين الأمن والاستقرار للأسرة بالمفهوم الصحيح وليس المزيف أو الخداع فى ظل رسالة الإنسان وغاية وجوده، وليس فى ظل الأهواء والشهوات. ولو أن الباحث عن الحقيقة قارن بين النظامين من خلال التعرف على بعض الحقائق فى كل من النظامين الإسلامي والوضعى من مثل العفة، وزى المرأة، وعلاقتها بالآخرين وبزوجها، والحرية، فإن الحقائق ستتحدث عن نفسها، والفطرة ستجد ضالتها، وليس ذلك إلا فى الأسرة المسلمة[٤].

---

(١) سورة الفرقان : آية ٧٤.

(٢) سورة مريم : آية ٥، ٦.

(٣) سورة إبراهيم : آية ٣٩، ٤٠.

(٤) عالج كثير من الباحثين المسلمين نظام الأسرة فى الإسلام، كما عالجها أساتذتنا فى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين بالقاهرة نذكر منها على سبيل المثال : دراسات فى النظم والثقافة الإسلامية، لكل من الأساتذة : أ.د محمود يوسف كريت، أ.د مصطفى أبو سمك، أ.د. محمد رجب الشتيوى، أضواء على النظم الإسلامية. أ.د. عبدالقادر سيد عبدالرءوف، فلتراجع.

- أثر النظم في بناء الأمة.

جاء الإسلام ليجمع من يدخلون فيه تحت راية واحدة، وأمة واحدة، ووضع الأسباب والوسائل والمقومات التي تحقق ذلك، وتكفلت النظم الإسلامية ببيان ذلك، فالقاعدة الفكرية واحدة، والمنظومة الثقافية واحدة، ومصادر النظم لدى الجميع واضحة.

وقد جاءت تراتيب النظم الإسلامية لبيان هذه الحقيقة واضحة، حيث الأمر بالتعاون والاعتصام، والدعوة إلى إخراج الأمة وتكوينها، وبيان صفات هذه الأمة وخصائصها، ومقوماتها، والدور المنوط بها، مع النهي عن الاختلاف والتفرق، وترك سبيل المؤمنين، والتشيع أحزابا.

وهذا يلقي بالمسؤلية على عاتق كل مسلم للقيام بدوره في تحقيق هذا المطلب الإسلامي.

وقد جاء أثر النظم الإسلامية واضحاً تجاه هذه الحقيقة، حيث الروابط التي تخلق من المجتمع أمة، «فقد كانت الروابط الاجتماعية للأمم إلى عهد الإسلام تنحصر في التعاون على تحصيل مقومات الحياة المادية بإثارة الحروب على المجاورين وشن الغارات عليهم، فإذا كتب لجماعة منها النصر جعلت همها تجريد المقهورين من أموالهم، واستعباد رجالهم ونسائهم، والأخذ بسنة العسف في معاملتهم، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة وغايتها تسويد الجنس الغالب على جميع الأجناس البشرية، ولكن الروابط الإسلامية كانت أصولا أدبية هي أرفع مايصل إليه العقل من معنى العدل الإلهي فهي تقوم على هذه المبادئ :

أولها: المساواة بين جميع الخلق لأن كلهم لآدم وآدم من تراب.

ثانيها: أن التفاضل بينهم لا ينبني على الفوارق من جنس ولون ولغة، ولكن على الكمالات النفسية، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

ثالثها: أن القبائل والشعوب خلقت لتتعارف على الاضطلاع بأعباء الحياة، لا لتتناكر وتتناحر.

رابعها: تسويد الحق في جميع المواقف على القوة، يقول تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾[1].

خامسها: العمل على إعلاء كلمة الله في الأرض، وهي العدل المطلق لا المصلحة المادية[2].

ولا شك أن النظم الإسلامية ومن خلال أثرها هي التي ساعدت على إخراج الأمة الإسلامية كواقع عملي في السابق، ولا تزل هي القادرة على إعادة إخراجها مرة أخرى متى تقوم برسالتها التي تحتوي ثلاثة أقسام رئيسية هي :

١) الإيمان بالله، ومحوره الإيمان بقدرته وهيمنته وإنه المالك المتصرف بالوجود كله. وثمرة هذا الإيمان تحرر الإنسان من طغيان الآلهية المدعاة، وإطلاق قدراته العقلية والنفسية والجسدية لاستعمالها في تسخير الكون دون عائق من رهبة أو رغبة.

٢) الأمر بالمعروف، ومحوره الدعوة إلى التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم، لأن في هذا التوافق بقاء الإنسان ورقيه.

٣) النهي عن المنكر، ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم لأن هذا الاصطدام تدمير لبقاء الإنسان وسقوطه في الدنيا والآخرة[3]، وهذه العناصر الثلاثة الرئيسية التي

---

(١) سورة يونس : آية ٣٢.

(٢) محمد فريد وجدي : مهمة الإسلام في العالم ٣٠ وما بعدها.

(٣) د . ماجد عرسان الكيلاني : إخراج الأمة المسلمة، كتاب الأمة ط أولى ١٩٩١م ٥٨.

تتكون منها الرسالة متضمنة فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(١).

إن النظم الإسلامية هى التى أكسبت الأمة عوامل قوتها وجعلتها فى مقدمة الأمم، بل خير أمة أخرجت للناس فى تاريخ الحضارات الإنسانية فى القديم والحديث، وذلك للدور الذى تضطلع به هذه الأمة. يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢) وهذه الرسالة مهمة وضروورية فى وجود الأمة واستمراريتها، وتبدو هذه الأهمية فى الأمور التالية :

الأمر الأول: تتقرر مكانة الأمة بين الأمم على المستوى العالمى، بمقدار ماتقدمه من عطاء حضارى للآخرين، وهذا العطاء هو الرسالة التى تحملها الأمة بين الأمم الأخرى، وتضع فى خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية، وهو مايسميه - توينبى - الأناقة الحضارية.

الأمر الثانى: إن هذا العطاء الحضارى هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها. ذلك أن الأمة التى تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ، والأخذ الذى لا يوافقه عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم. ولكنه فناء بطيئ، لا يراه إلا العارفون بقوانين الاجتماع البشرى وسنن التاريخ، ولأنه يتم على مراحل تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة.

- ففى المرحلة الأولى، تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية والحربية.
- وفى المرحلة الثانية ، تأخذ الأمة العادات المادية، كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام.

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٣.

- وفى المرحلة الثالثة، تأخذ الأمة المظاهر الثقافية، كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويح.
- وفى المرحلة الرابعة، تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية.
- وفى المرحلة الخامسة، تأخذ الأمة العقائد، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز، ويبدأ الذوبان الكامل.

الأمر الثالث: الذى يمثل أهمية الرسالة فى حياة الأمة هو أن الرسالة حاجة نفسية اجتماعية، والأمم التى تحمل رسالة، تحفظ وحدتها، وتجنب مجتمعها من الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصبيات المحدودة، وتتناوب الظاهرتان بشكل كامل بحيث إن غياب إحداهما يؤدى إلى بروز الثانية، ذلك أن الرسالة توحد أفراد الأمة وجماعتها حول هدف أسمى، يستهلك طاقاتهم ونشاطاتهم، فتختفى الانقسامات والفتن، أما حين تغيب الرسالة، فإن الناس تتقاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية، وبذلك تبرز الحزبية والعصبيات، وتشيع الفتن، وتتفرق الأمة إلى فئات متنابذة متصارعة»[1] وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2].

والمتأمل يرى أن العلاقة قائمة بين النظم الإسلامية وبين قيام الأمة المسلمة وإخراجها على المستوى العالمى، وهذه العلاقة هى أثر النظم فى تربية الفرد والأسرة والمجتمع، فكل أحكام النظم وقوانينها فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات تغرس فى المسلم روح الجماعة، «ويكفى الإشارة إلى زيادة الكم فى الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بالجماعة، على الآيات القرآنية الخاصة بالفرد، ولذلك نجد معظم آيات القرآن تأتى موجهة

---

(١) د. ماجد عرسان الكيلانى: إخراج الأمة المسلمة ٥٩.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٩.

إلى الجماعة .. نداء لها وخطابا .. تحدثا عنها وحاكمة عليها .. آمرة إياها وناهية .. مذكرة لها ومحذرة. وكذلك يكون الشأن فى آيات القرآن المتعلقة بالفرد، حيث نجد فيها مايربطها بالجماعة لفظا ومعنى»[١].

ويضاف إلى ذلك التطبيق العملى لرسول الله - ﷺ - وصحابته ومن جاء بعدهم، فقد عملوا جميعا لإخراج الأمة المسلمة، فوضعت لبنتها الأولى فى حياة رسول الله - ﷺ - وواصل الصحابة هذا الدور حتى كمل كيان الأمة وأصبحت حقيقة واقعية تؤدى دورها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بطاقة وقوة تتناسب مع الأمة وقدرتها، وتلك هى الخلافة العالمية التى ندب الله إليها الأمة، «فالأمة الإسلامية أمة منتدبة من الحق لخلافة الله فى الأرض، وليس فى هذا الأمر مايجرح كبرياء أمة من الأمم، ولا مايحط من عزتها وكرامتها، لأن واضع هذا الانتداب - سبحانه - لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب، ولا وقفا على جنس من الأجناس، ولم يشترط له بيئة من البيئات، ولكنه جعله للجماعة التى تدين بشرائطه المقررة، وأصوله المعينة من أى جنس كان آحادها، وفى أى بقعة من الأرض تأسست دولتها»[٢] يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٣].

فالفضل فى بناء الأمة يرجع إلى النظم الإسلامية التى تحمل أصول الفكر الذى يساعد على ذلك، وتحمل المنهج العملى الذى يحقق ذلك.

ولكن إخراج الأمة المسلمة مرتبط بتطبيق الإسلام ونظمه، فتلك هى المقومات الأساسية لذلك، ولم يكن اختفاء دور الأمة الإسلامية وحقيقتها إلا

---

(١) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٥٦.

(٢) محمد فريد وجدى : مهمة الإسلام فى العالم ١١٣.

(٣) سورة البقرة : آية ١٤٣.

بسبب إهمال النظم الإسلامية والتفريط فيها، يقول تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(١).

أثر النظم في بناء الحضارة.

الحضارة «هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على زيادة انتاجه الثقافى بعناصر أربعة :

١) الموارد الاقتصادية.

٢) النظم السياسية.

٣) العقائد الخلقية.

٤) متابعة العلوم والفنون(٢).

وهى كذلك «تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها فى نظام اجتماعى، يقود الإنسان إلى الرقى والإخاء والأمان»(٣).

ويرى البعض أن التعريف الإسلامى للحضارة هو «القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التى ينفرد بها الإنسان عن الحيوان»(٤) وذلك أنه «عندما طبقت شريعة الإسلام تطبيقا كاملا – ساد الأمة الإسلامية نظام واحد وفكر واحد – واتجاه واحد .. لأنها جميعا تستمد من نبع واحد وتسقى بماء واحد وتكون من ذلك – بعد الفتح الإسلامى لفارس والروم – عالم موحد فى روحه وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ساده مايعرف فى التعبير العصرى «بائتلاف النغمة» .. إن

---

(١) سورة محمد : آية ٣٨.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة د . زكى نجيب محمود، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م ٣/١.

(٣) أبو الأعلى المودودى : الحضارة الإسلامية، الطباعة العربية ٤، ٨.

(٤) د . توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، دار الوفاء بالمنصورة ط أولى ١٩٨٨م ٤٠.

هذا الذى حدث من التجانس العام فى عالم الإسلام يسمى : نظام الإسلام .. أما الحياة التى بدأت ثم ترعرعت وازدهرت - ثم توطدت وانتشرت فى «ظل نظام الإسلام» وتطبيقه بحركية إيجابية بناءة - وطاقة متجددة دائبة - ونماء موصول مطرد فى الزمان والمكان والإنسان فهو مايسمى «بالحضارة الإسلامية»(١).

فالحضارة هى الصورة المثلى التى تظهر فيها الملكات الإنسانية متفاعلة مع الكون فى إطار التفاعل والإنسجام لتحقيق الخير والسلام للجميع. وقد حملت النظم الإسلامية مقومات الحضارة فى معناها الصحيح، يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾(٢).

وهذه الآية القرآنية تعطى أسسا حضارية، ومقومات أساسية لابد منها لكى ينهض المجتمع المسلم بأداء واجبه فى الحياة.

إنها تشير إلى مايسمى فى العرف الحضارى - بالمنهج - وهو قوله سبحانه : ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فهو منهج ربانى، كما تشير إلى القيادة التى تتولى شرح المنهج والإشراف على تنفيذه، وذلك قوله سبحانه ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ومن بعده خلفاء مهديون يحملون العبء، وينهضون بالتبعة ويمضون على الدرب.

كما أنها تشير إلى العنصر الإنسانى، الذى ينتفع بالمنهج، ويتدرج فى سلم الحضارة وذلك قوله سبحانه : ﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾ فقد انتقلوا بالمنهج من الأمية إلى القيادة الحضارية، كما تشير إلى الجهد المبذول فى عملية تحضير الأمة الأمية، وهو الدور الشاق الذى قام به رسول الله - ﷺ - ليخرج العالم من الظلمات إلى النور.

---

(١) توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الكريم، دار المنار القاهرة ١٩٨٤م ٣٢/١.

(٢) سورة الجمعة : آية ٢.

وتشير الآية أيضا إلى مايسمى «بالساحة الحضارية» وذلك فى قوله سبحانه : ﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾ فقد انطلق بهم المنهج السديد الرباني من شبه الجزيرة العربية حيث نواة الحضارة، إلى عالم أوسع وأرحب يشمل أغلب المعمورة. وتشير الآية كذلك إلى «نقطة الانطلاق الحضارى» وذلك قوله : «وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» فقد تعاملت الحضارة الإسلامية مع بيئة تحمل الحيرة، والقلق والجهالة، والسفه، والانحلال والتخبط.

وتشير الآية كذلك إلى «ثمرة الجهد» وقيمة المنهج. وذلك قوله سبحانه : ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وبالمقارنة بين الصورتين تتضح لنا ثمرة المنهج الإلهى، والجهد التربوى الذى انتقل بالعالم - ممثلا فى العرب - من حالة الضلال المبين والحيرة الشديدة إلى حالة فكرية عملية جديدة تقوم على التعليم والتلاوة، ووعى الكتاب والحكمة. فتحولت حالة العرب من الصورة التى صورها القرآن فى قوله : ﴿إذ كنتم أعداء﴾[1] إلى الصورة الجديدة التى يصورها قوله : ﴿فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[2].

إن الأسس الحضارية السابقة من «منهج للتربية، وقيادة، ومجتمع، وساحة، وجهد مبذول، وثمرة، هى التى جهد شراح الحضارة فى إيجاد الصيغة الملائمة للتعبير عنها. وربما كانوا يصورونها للناس على غير أساس، ولكن الآية القرآنية الكريمة، تحدد معالمها، وتشخص مقوماتها، فى دقة وشمول وحسن واستيعاب وبصيغة مختصرة لا تعنى ولاترهق»[3].

وفى ظل النظم الإسلامية بزغت شمس الحضارة الإسلامية وأشرق نورها، وهذا هو أثر النظم الإسلامية فى الحضارة، فكل مقومات الحضارة

(١ ، ٢) سورة آل عمران : آية ١٠٢.

(٣) توفيق سبع : قيم حضارية ٥٠ وما بعدها بتصرف.

موجودة فى الإسلام، وكذلك أسبابها ووسائلها، فالحض على العلم والتعلم والبحث والتحرى والاستنتاج كلها حقائق إسلامية، وأصول شرعية، تقوم عليها نظم الإسلام. يقول تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[(١)] ويقول تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[(٢)] ويقول تعالى: ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾[(٣)].

وكذلك اهتم الإسلام بالإنسان فكرمه، وحفظ له مكانته بين المخلوقات الأخرى، وجعل التفكير والتعقل أخص خصائصه، ولذلك دعاه إلى إعمالها وتنميتها واستثمارها، وفتح له الطريق إلى ذلك فعرض عليه فى القرآن المنهج الصحيح إلى ذلك، وما أكثر الآيات القرآنية التى تؤكد ذلك وهى تعرض صوراً كونية من الأرض والسماء والنبات والحيوان والبحار والجبال، وصوراً إنسانية من أطوار الخلق ودقائق النفس، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾[(٤)]، كما اهتم الإسلام بالعمل كمقوم من مقومات الحضارة، فدعا إليه وحث عليه وحدد مجالاته التى تشمل الكون كله، وبين أسلوبه الصحيح وغاياته التي تجعله مشروعاً، وبين غير المشروع من الأعمال، وقد ارتقى الإسلام بمفهوم العبادة

---

(١) سورة العلق : آيات ١ - ٥.
(٢) سورة المجادلة : آية ١١.
(٣) سورة الغاشية : آيات ١٧ - ٢٠.
(٤) سورة آل عمران : آية ١٩٠، ١٩١.

فجعل العمل داخلا فيها إذا كان موصولاً بفكر الإسلام وعقيدته متصلا بمقاصده وغاياته، وذلك ليخرج المسلم من الحيرة الفكرية التى كان يعانى منها الإنسان فى غير الإسلام، فقد كانت الحضارات المادية والوضعية تفصل بين العمل الدنيوى وبين نظم العبادة فيها، أما فى نظم الإسلام «فالمؤمن يعبد الله ويتميز فى عبادته بهذه الشعائر الموقوته، كما يعبد الله بالفكر الراشد والعمل الصالح واستخراج الطيبات من الأرض»[١].

وقد عالجت النظم الإسلامية كل قضايا الحضارة بوضوح لاخفاء فيه وبموضوعية لا تزيد فيها وبعلمية تقوم على الحق والحقيقة، كما عالجت فكر الحضارة وقيمها، أى أن نظم الإسلام شيدت صرح حضارتها الخارجى والداخلى، المادى والروحى.

يذكر المستشرق الدنمركى جوستاف فون، أن التأثير الحضارى للإسلام ونظمه قد شمل تغييرات أساسية أحدثها فى مجال القيم، ومحور هذه التغييرات : تحديد هدف الحياة وغايتها وراء هذه الحياة الدنيا ومن ثم تكون قيمة أى إنجاز بشرى هى فى تقدير حسابه وجزائه فى الدار الآخرة الباقية، قد ضمن ذلك استمرارية الحياة الإنسانية بدون قطع أو تفتتها، وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعا لتصرفات جزئية متقادمة منعزلة بعضها عن بعض».

ويضرب أمثلة للأسئلة الجوهرية التى يطرحها الإسلام من خلال نظمه، ويقدم لها الأجوبة وهى : «كيف تعيش حياة صحيحة، وكيف تفكر تفكيرا صحيحا، وكيف تقيم نظاما صحيحا؟ وكيف قدم الإسلام أجوبته لهذه المشكلات والقضايا فى التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبى

---

(١) د . محمد فتحى عثمان : القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط أولى ١٩٨٢م ٧٣.

لمناشط الإنسان (الواجب، المندوب، المباح، المكروه، الحرام) وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية. وكان من ثمار هذه القيم الأساسية التى قررها الإسلام والأجوبة التى ارتآها للمشكلات الإنسانية الرئيسية فى ظل تلك القيم، أن استحدث الإسلام واجبات على عاتق الفرد أو عمد إلى تعديل واجبات قديمة، كما أنه قرر حقوقا جديدة. وتتناول هذه الواجبات والحقوق شتى مجالات السلوك الإنسانى، سواء السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى وعلاقة الفرد بقرابته أو بالجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة فى هذا الضوء، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده»(١).

وهذه الحضارة التى أقامها الإسلام أساسها العقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة والعبادات ذات الصلة بالفكر الحضارى والمعاملات الميسرة الواضحة والعلاقات الاجتماعية الصادقة الرصينة والمبدأ العام الأصيل الذى يرعى العدل والمساواة بين الجميع دون النظر أو التعويل على اللون أو الجنس أو البيئة.

ولما كانت نظم الإسلام من خصائصها العموم والشمول والربانية، والمعاصرة والأصالة، فقد أثرت كل هذه الخصائص فى بناء حضارة إسلامية إنسانية، وكل هذه المفردات التى تقوم عليها نظم الإسلام، إنما هى المفردات التى تكون الحضارة وتمثل روحها، لأن نظم الإسلام لم تترك شيئا فى الكون والنفس إلا وتناولته بالبيان والتنظيم ليأخذ مكانه الصحيح فى الحضارة الإسلامية.

وقد كان للحضارة الإسلامية خصائص لم تكن لحضارة أخرى، فقد قطعت شوطا زمانيا طويلا لم تبلغه حضارة أخرى، كما أنها بقيت تمارس دورها طول هذه المدة.

---

(١) د . محمد فتحى عثمان : القيم الحضارية ٤٢ وما بعدها.

وأهم هذه الخصائص التى أنتجتها النظم الإسلامية لحضارتها:

أولا: أنها حضارة إيمان، تؤمن بالله ورسالاته وأنبيائه - عليهم السلام - وتهتدى بهدى خاتم النبيين محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - والحضارة الإسلامية عندما اتخذت من الإيمان ركيزة لها، إنما استهدفت أن تحمي كيانها بسياج منيع من القيم الروحية، والمثل الكريمة، فلا خير فى علم دون خلق.

ثانيا: إنها حضارة تقدمية بكل معاني الكلمة، لا جمود فيها، ولا رجعية، ذلك أن الإسلام الذى ولدت هذه الحضارة وشبت وترعرعت بين أحضانه، جاء ثورة ضد الظلم والاستغلال والجمود والنكوص، والإسلام لا يمنع المسلم من الأخذ بكل جديد، طالما أن هذا الجديد لا يتعارض مع روح الدين ومثله وآدابه.

ثالثا: إنها تتصف بالمرونة وسعة الأفق، بمعني أن الحضارة الإسلامية لم تكن أبداً منذ مولدها منغلقة على نفسها، وإنما كانت دائما مرنة، قابلة للأخذ والعطاء، ولذلك وسعت كل الثقافات الأخرى وتعاملت معها بميزان الإسلام، فأخذت منها، وصاغت مافيها من تراث صياغة إسلامية، وهى فى كل ذلك تعمل على تنقيته من الشوائب الفكرية المنحرفة التى تخالف حقائقه وقواعده الأساسية.

رابعا: إنها حضارة محبة وسلام، تفرق بين السلام والاستسلام، وقد جعل الله شعار هذه الحضارة وتحية أهلها السلام، مما جعل كل أرجاء هذه الحضارة من البلاد والأقاليم التابعة لها تتمتع تحت مظلة من السلام لم تعرفه فى تاريخها السابق، حتى أطلق بعض المستشرقين على ذلك الوضع اسم السلم الإسلامي.

خامسا: إنها حضارة تسامح، لا حقد فيها، ولا كراهية، وقد جاءت مصادرها حافلة بالحقائق التى تدعو إلى ذلك وتحض عليه وترغب فيه، يقول تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[١] ويقول تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٢].

سادسا: إن هذه الحضارة الإسلامية تتصف بالحيوية والاستمرار والوحدة، فهذه الحضارة منذ مولدها وحتى اليوم ظلت حية قائمة، لم تمت مطلقا، لئن تعرضت للذبول حينا نتيجة لعوامل طارئة، فإن مثل هذه العوامل كانت تؤثر فيها تأثيرا مؤقتا لا يلبث أن يزول بزوال المؤثر ... ولئن كانت الدولة الإسلامية الكبرى قد تفككت فى بعض مراحل التاريخ، فإن تمزق الوحدة السياسية للعالم الإسلامى لم يؤثر مطلقا فى استمرارية وحدته الحضارية.

سابعا: إنها حضارة إنسانية بكل معانى الكلمة، تستهدف أولا وأخيراً خير الإنسان فى الدنيا والآخرة، والرحمة به، والحفاظ على كرامته والنهوض بمستواه الروحى والفكرى والاجتماعى والاقتصادى، ومنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتجنيبه كل مامن شأنه أن ينزل به الضرر، ويظهر ذلك بوضوح فى تنظيم الإسلام حياة الإنسان الخاصة والعامة.

ثامنا: تتصف الحضارة الإسلامية بالأمانة المطلقة، وهى صفة تميزها عن كثير من الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها[٣].

---

(١) سورة الزخرف : آية ٨٩.

(٢) سورة الحجر : آية ٨٥.

(٣) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : حضارة الإسلام، معهد الدراسات الإسلامية ط أولى ١٩٨٧م ١٤ وما بعدها بتصرف.

وقد ظهرت آثار تلك الحضارة التى بنتها النظم الإسلامية فى كثير من المجالات، وفى كثير من التخصصات، فكان التفوق العلمى، والتقدم العسكرى، والاقتصاد المتكامل، والبناء الاجتماعى المتماسك، حضارة لم يكن فيها جاهل ولا غريب، ترعى المحتاج، وتؤوى ابن السبيل وتحاصر الأزمات وتقضى على المشاكل، تتمتع بالتنظيم والتخطيط، حضارة صدح فيها صوت الأذان من الشرق إلى الغرب متواصلا بلا انقطاع لم يخل من صوت التوحيد وقت، ولم يقف جهازها الإعلامى عن تغذيه العقول والأفكار بأصول وثوابت ومرتكزات هذه الحضارة، حضارة الطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود، حضارة الرجل والمرأة، والشاب والكهل، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، حضارة أهل الفكر، وأهل الذكر، حضارة المحدِّثين، والمحدثين والفقهاء، وأهل الزهد، حضارة المعرفة بالله والولاية له. حضارة النشاط والوعى بالزمن، حضارة التذوق الجمالى والجمال الحسى والمعنوى، حضارة الضمير المؤمن، حضارة ذابت فيها الفوارق وانقطعت الحواجز، حضارة نصرة الضعيف، وتواضع الخلفاء والعلماء والمفكرين.

وبعد فهذه بعض الجوانب التى تظهر أثر النظم الإسلامية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والأمة، فى كل ميدان من ميادين الحياة، وفى كل جوانب النفس الإنسانية وأقطارها، أثر وصل إلى الذروة فى صورة حضارة إسلامية بكل ماتعنيه الكلمة، وفوق ماتعنيه فى كل الفلسفات، فالبون شاسع بين حضارة الإسلام وغيرها، وخصوصا إذا كانت حضارة الغرب المادى، والأمم السابقة لم يضف الى رصيدها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] ولم يضف إلى رصيدها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣.

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾(١) ولم يضف إلى رصيدها ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾(٢).

إنها حضارة الإسلام وحده، فهى حضارة إسلامية وكفى، حضارة النظم الإسلامية.

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠.

(٢) سورة الحج : آية ٤١.

المبحث الثالث : أثر النظم الوضعية (المادية)

تحدثنا فى مصادر النظم الوضعية عن الأصول التى تعتمد عليها هذه النظم فى القديم والحديث، وأنها لا تخرج عن المادية المفرطة المتمثلة فى العقل والطبيعة والعادات الشعبية، وقد تركت هذه النظم آثارها فى المجتمعات التى تأخذ بها.

أولا : أثرها فى الإنسان.

الإنسان مخلوق قابل للفجور والتقوى، ويتوقف ذلك على النظم التى تربيه وتغذيه، ومدى تكاملها وشموليتها، ومنهجها فى النظرة إلى الإنسان كمخلوق مادى فقط أو مادى وروحى معا، وقدرتها على التعامل مع جميع طاقات الإنسان.

وعندما نتأمل النظم الوضعية (المادية) فإننا نجد أنها لا تحمل عقيدة صحيحة تتناسب مع الجانب الروحى فى الإنسان، وإنما «العقيدة فى ظل النظريات الفلسفية والتربوية فى الغرب، تتشكل طبقا للرغبة .. فالرغبة فى شئ معين هى التى تولد فى العقل حوافز الاعتقاد بالكون أو الوجود حسب مقتضيات تلك الرغبة. وعلى المناهج التربوية هناك أن تيسر للعقل سبيل هذه الحوافز»(١).

وأما القيم التى توجه هذه النظم فمقطوعة الصلة بالدين، ويقتصر فيها على المنهج التجريبى فيما يتصل بالطبيعة وعلم الاجتماع، وقد أدى ذلك إلى التذبذب فى مفهوم القيم التى تأخذ بها النظم الوضعية، على سبيل المثال قيمة الحرية، والحق، والعفة، والصدق، والعلم، فالحرية عندما نتأمل وضعها فى النظم الوضعية، فإننا نجد أن الواقع فى مجتمع الغرب ينبئ أن

---

(١) د . محمد سعيد رمضان البوطى : منهج تربوى فريد فى القرآن ٧. نقلا عن عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٠٩.

الحرية هناك تنفصل عن الإحساس بالمسئولية، وتتم فى غياب أدنى شعور بالخضوع للمحاسبة، أى فى غياب الاعتقاد بوجود الله - عز وجل - بل إن الحرية هناك فى تلك المجتمعات لا تكاد تجد لها أثراً فى النفوس فى مفهومها السليم وعمقها الأصيل ... وفى الموقف الماركسى، نجده يكبل حرية الإنسان بما يسمى بالحتمية التاريخية.

وعن قيمة الحق نجد أن الالتزام بالحق عرضة للفرار منها والتنكر لها، لأنها فى اعتبار الإنسان الغربى تتنافى مع اللذة الزائفة التى يجنيها من الطريق السهل، طريق السكوت على الحق»[١].

وهكذا كل القيم التى تأخذ بها النظم الوضعية، قد تم تفريغها من المعنى الصحيح والمضمون، وأصبحت تفسر فى ضوء المصادر المادية التى تشكل فكر الغرب وعقله.

وقد تركت هذه النظم المادية من خلال تلك العقيدة الخاوية والقيم الخالية، آثارها فى الإنسان الغربى، «فكان الافتتان، وكان الغرور بالنفس والعقل، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[٢] فادعى لنفسه ماليس لها، ونسب إليها القهر، والحكمة والعلم، والإبداع، وظهرت فى الغرب المؤلفات التى تمجد الإنسان وترفعه، من أمثال تلك الكتب «الإنسان يصنع نفسه» و «الإنسان يقف وحده» أى دون أى معونة من الله، ودون أى وصاية من الله، ليكون سيد الأرض وقاهرها، والمسيطر على الطبيعة»[٣].

والسبب فى ذلك يرجع إلى القصور الموجود فى هذه النظم وتصورها غير الصحيح للإنسان والحياة، وقد عبر عن هذه الحالة واحد منهم وهو الدكتور «ألكسيس كاريلك» عندما سمى كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

---

(١) المصدر السابق ١١١ وما بعدها.

(٢) سورة العلق : آية ٦.

(٣) توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية ٤٨٥.

إن نظام القيم التربوية المادية يعصف بقوى الإنسان ويذهب بها طرائق قددا، ويلحق بها تشوهات مريعة يتحول معها الإنسان إلى كائن مستلب، غريب عن نفسه وغريب عن الكون الذي يحيط به ... فيصيبه الدوران والغثيان، ويشعر بالعبثية وانعدام معنى الحياة، إن الشخصية الإنسانية في ظل القيم المادية، وقد فقدت صلتها بخالق الوجود، تنجرف مع تيار التطور، والتغير دون ضوابط ولا قيود»(١).

وقد أدت هذه النظم الوضعية إلى صياغة عقل الإنسان وفكره صياغة مادية أدت إلى أمور منها :

- عدم احترام خصائص الإنسان.
- نمو الخصائص الآلية والحيوانية.
- الخواء الروحي والنفسي.
- تمزق الرابط الأسري.
- قياس التقدم الإنساني بالمقاييس المادية»(٢).

إن الإنسان في النظم الوضعية قلق لا يعرف الثبات ولا السكينة، ويفصح عن ذلك بحثه عن الشهوات والملذات، وبذله في سبيل ذلك كل شئ، وقد يدفعه ذلك إلى الكذب والخداع لتحقيق ذلك، والاعتداء على الأوطان والأعراض، وسلب حريات الآخرين.

ثانيا: أثرها في المجتمع.

المجتمع المادى محكوم بتصرفات الأفراد فيه، وقد وقفنا على المعاناة التى يعيشها الإنسان فى هذا المجتمع، وكان لابد أن ينعكس ذلك على جهاز

---

(١) د . عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٣٦.

(٢) توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية ٥٥٧.

المجتمع أو التنظيم الاجتماعى بالتهلهل والتحلل، وذلك فى غياب القيم التى ترك للإنسان تحديدها، فالوضعية التى نادى بها «أوجست كونت» عدت الإنسان كائنا يستطيع أن يشكل قيمه بنفسه، ويحولها إلى دين وضعى، يضبط حركته الاجتماعية، ولا حاجة بعد إلى الأديان والقيم القديمة فى زعمه. ثم ظهر بعد قرن كامل من الصراع والتجربة أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد القيم المجردة عن المصالح، لأن حب الإنسان لمصلحته، موجها من جانبه الحيوانى حال بينه وبين فهم الإنسان من حيث معناه وشموليته، ومنعه من إيجاد تلك القيم المجردة التى تعبر عن المعنى الشامل لإنسانيته»[١].

وفى ظل هذه الآثار السيئة للنظم الوضعية كانت علاقات الإنسان فى مجتمعه، وكانت صورة التعامل بين أفراد المجتمع، فالعلاقات مبنية على المصالح المتبادلة فقط، وهى بقدر ما تحقق من النفع المادى، فلا تزاور ولا تعارف، ولا تواصى بالحق، ولا أمر بالمعروف ولا نهى عن منكر. يقول تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٢]. وإذا ما انتقلنا إلى العلاقات الاجتماعية الأخرى فى المجتمع المادى الغربى فإننا سنجد أن الروابط الأسرية مفقودة وليس لها تأثير ولا ترتبط بغاية أوهدف، وإنما هى محكومة بالشهوة واللذة وبعد ذلك يأتى الزواج الذى لا يعرف الضوابط من الزوج أو من الزوجة، وقد ساعدت أحكام النظم الوضعية على ذلك، فالقانون لا يعاقب على الزنا إذا ثم بالتراضى، وهو يفرق بين موقف الرجل والمرأة فيه، وهذا يؤثر على الأطفال وعلى النسل بصفة عامة، وهذا بدوره قد أدى إلى ظهور أطفال غير شرعيين وأصبحت الحاجة ماسة إلى الملاجئ وبيوت رعاية غير معروفى النسب واللقطاء.

---

(١) د. محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٧٢.

(٢) سورة التوبة : آية ٦٧.

وفى ظل ذلك أصبحت الأسرة سرابا ووهما، وأصبح النسل أمراً غير مرغوب فيه هروبا من المسؤولية وتحقيقا للشهوات وجريا وراء المتع والشهوات التى لا تحمل معها أدنى مسؤولية، ولم يعد الإنسان متكيفا مع مجتمعه، فالآباء والأمهات يتركون أو يودعون المصحات النفسية أو يزجون إلى جمعيات رعاية المسنين.

وحتى يكون حديثنا عن هذا النظام الاجتماعى موضوعيا فى ظل آثار النظم الوضعية فلابد أن نتكلم عن عناصر ثلاثة :

الأول: التحرر الوجدانى.

فقد التقت الأفكار فى المذاهب الوضعية الشيوعية منها والمدنية الحديثة، على أن التحرر الوجدانى يكون فى انطلاق الغرائز، وإشباع الجسد، والتحرر من القيم والأهداف العليا، فغرق الناس فى حمأة الجنس بتأثير هذا التحرر الكاذب، ثم نسوا بذلك أنهم ينحرفون عن الأخلاق ويصبحون عبيداً للشهواة الحرام، فراحوا يقولون : إن الجنس عملية بيولوجية بحتة، لا علاقة لها بالأخلاق.

الثانى: المساواة الإنسانية.

لا تعترف النظم الوضعية بالمساواة، ولا تعترف فى كثير من الأحيان بحق الآخرين فى الحياة، فمثلا تبيح هذه النظم الضمير الأمريكى إفناء عنصر الهنود الحمر، كما تبيح تلك التفرقة المقززة بين الأبيض والأسود. وفى جنوب أفريقيا تمارس هذه التفرقة، كما تبيح لحكومة روسيا والحبشة والفلبين وإسرائيل وغيرها إفناء المسلمين بالجملة، ويضاف إلى ذلك حديثا ماتم فى البوسنة والهرسك وما وقع قريبا فى أفغانستان.

ولقد نتج عن عدم المساواة، والاعتداد بالجنس، وبناء الغايات على التعالى والعصبية، كثير من الحروب والانحرافات. سمع الناس شعار النازية

والفاشية والإنجليزية، فقال الألمان : ألمانيا فوق الجميع، وقالت إيطاليا : إيطاليا فوق الجميع، وقال الإنجليز : سودى يابريطانيا واحكمى(١).

ثالثا :التكافل الاجتماعى.

وقد أثرت هذه النظم المادية فى هذا الجانب، وكانت أهم مظاهر هذا التأثير، أن التكافل الاجتماعى الغربى يقوم على الحقيقة التى توافق منهجهم الحسى والجسمانى والحيوانى، فهم يعاملون الإنسان العاجز، سواء كان كبير السن أو صاحب عاهة، على أنه حيوان، لا يحق له إلا أن يأكل ويشرب فى تلك الملاجئ إلى أن تأتيه منيته، وكانت بعض الدول تتخلص من هذا الصنف، لأنهم يمثلون عبئا على الدولة والمجتمع.

وفى مجال الأسرة، إذا بلغ الولد - ذكرا كان أو أنثى - سن السادسة عشر، فإن الأسرة تقصيه يصارع الحياة، فتخرج البنت لا تجد أحداً بجانبها، فى مجتمع لا يعترف بالقيم بل يعتبرها ضعفا إنسانيا، فتضطر إلى أن تأكل وتعيش، إما بذراعها، أو بجسدها(٢).

وهكذا فعلت النظم الوضعية بالمجتمعات الآخذة بها، وقد عظمت الآثار وفدحت النتائج، فقد «كان من نتائج الفرويدية تحطيم الأسرة وضوابطها، من خلال الفوضى الجنسية العارمة التى تفذت إلى كل جزئية من جزئيات الحياة الاجتماعية فى الحضارة الحديثة، ومن خلال الانحرافات المتلاحقة التى سببت أمراضا نفسية وجنسية خطيرة ومعقدة فى المجتمعات الغربية، وانتقلت جراثيمها بدرجات متفاوتة إلى المجتمعات الأخرى فى العالم كله.

ومن هنا فمنهج التغيير النفعى «البراجماتى» انتهى إلى التخلخل الخطير فى الحياة الاجتماعية فى المجتمع خاصة، لأنه رأى الحق فى تحقق

---

(١) توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية ٥٥٨ وما بعدها بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٥٦٢.

المصلحة بمعزل عن القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل المجردين في تاريخ الفكر الإنساني»[١].

تلك هي آثار النظم الوضعية في المجتمع، تمزق وضياع، وفرقة، وأنانية، وفرقة واختلاف، واعتداء على الحرمات، وكبت الحريات وإهدار لكرامة الإنسان وضياع لحقوقه، بل إن الأعجب من ذلك أن الرق لا زال موجوداً في بعض هذه المجتمعات، فالبنات تباع خشية الإنفاق وخوفا من الإملاق[٢].

ثالثا: أثرها في الحضارة

مفهوم الحضارة المتداول مادي، وحتى عندما يشير بعض الباحثين إلى الضمير أو القيم الروحية، فإن مفهومهم لذلك يدور في نفس الإطار المادي، فأبحاثهم لا تنطلق عن وحي صادق، وإنما تنطلق عن ظن وهوى وتخمين، وهم أعجز عن التشخيص الحق الحقيقة أو الدواء.

وحتى يكون وصف الحضارة موضوعيا علميا فلابد أن يجمع بين الحقائق المادية والروحية. فما هو موقع الحضارة الغربية التي قامت على النظم الوضعية؟ يقول ألكسيس كاريك : «أصبح كل شخص أكثر اهتماما بالاكتشافات التي تقلل من بذل المجهود الآدمي ... أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التي تلقي بعض الضوء على أجسامنا وإحساساتنا. وهكذا أدى قهر العالم المادي الذي استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة إلى نسيان العالم العضوي والروحي نسيانا تاما»[٣].

---

(١) د. محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٧٣ وما بعدها.

(٢) شاهدت في عام ٢٠٠٢ برنامجا على إحدى الفضائيات يعرض تحقيقا حول هذا الموضوع، وكانت المبررات التي ذكرها الآباء لبيع بناتهن الفقر وكذلك لا داعي لوجود أكثر من بنت أو اثنتين في البيت، وكان هذا في دولة أوربية، كما ظهر أن من جملة أسباب وجود الرق في هذه البلاد خطف البنات وبيعهن الملاهي وغيرها من بيوت الجنس والدعارة.

(٣) ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ٢١.

وهذا يجعل مصطلح الحضارة أكبر من أن يطلق على مدنية أوربا وأمريكا، لأن هذه المظاهر تتجه فى اتجاه مادى لا علاقة لها بالروح، وقد أدى ذلك إلى شقاء الإنسان، «فإن العلم بمفهومه الغربى – وهو علم مادى بحت – وفر للإنسان راحة الجسم، ولم يوفر له راحة النفس، حقق له الرفاهية المادية، ولم يحقق له السكينة الروحية، هيأ له الوسائل والأدوات، ولم يهيئ له المقاصد والغايات، ولهذا عاش مزوق الظاهر، خراب الباطن ... ومن ثم رأينا الناس الذين يعيشون تحت سلطان هذه الحضارة يشكون من القلق والاكتئاب والخوف والأسى واليأس، والغربة النفسية، والشعور بالضياع وتفاهة الحياة، وأنها حياة لا هدف لها ولا رسالة ولا طعم ولا معنى. وهذا يحطم الإنسان من داخله.

والحضارة لم تجن على الإنسان وحده، لقد جنت على البيئة من حوله، فلوثتها بدخان مصانعها وفضلاتها، وآثار إشعاعها، وتفاياتها النووية، ومتخلفاتها الكيماوية فى النبات والحيوان، وأكثر من ذلك آثار الهندسة الوراثية، وقد بدأت هذه النتائج تبدو للعيان فى مثل (جنون البقر) أضف إلى ذلك الإخلال بالتوازن الكونى، كما يبدو فيما نكروه من (ثقب الأوزون) ولا ندرى ماذا بعد ذلك»[1].

وقد رصد القرآن الكريم هذه الآثار المترتبة على النظم الوضعية ولكن فى قوانين حقيقية ثابتة شاملة دائمة، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3] والحقائق القرآنية تشير إلى الأمراض

---

(١) د . يوسف القرضاوى : حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا ٨.

(٢) سورة طه : آية ١٢٤.

(٣) سورة الروم : آية ٤١.

النفسية التي هي آثار من آثار النظم الوضعية المادية البشرية، كما تشير إلى أنواع الفساد الذي يصيب الكون والمخلوقات من جراء هذا النوع من النظم، كما تشير إلى هذا الخلل الموجود في تلك الحضارة إن صح أن يطلق عليها هذا المصطلح.

وقد ظهرت تلك الحقائق القرآنية في المجتمعات التي تأخذ بالنظم الوضعية وباعتراف منهم يقول أحدهم : «إننا نواجه مشاكل أعظم خطورة تحتاج إلى حل سريع، إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية .. الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال. فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية .. ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى. وكالجنون، فإن الاضطرابات العصبية، وضعف القوى العقلية آخذة في الزيادة .. وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر .. إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن»[1].

وقد تعددت الآثار الناجمة عن النظم الوضعية ولم تترك مجالاً من مجالات الحياة إلا ظهرت فيه الآثار السيئة التي هي قانون وسنة إلهية تأتي عقابا للمخالفين وعذابا نفسيا وعضويا للمكذبين. تركت النظم المادية آثارها في الجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي وأصبح سلوك الإنسان بعيداً عن الإنسانية، فالكذب والقذارة، والفقر، وخراب الحياة الزوجية آثار ظاهرة وواضحة [2]. وقد أصبح الإنسان في هذه الحضارة فاقداً لخصائص

---

(١) الكيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول ٣٤.

(٢) مصطفى فوزي غزال : الحضارة الغربية على شفا جرف هار، دار السلام، ط ثانية ١٩٨٧م ١٩، ٧٢، ٧٧.

الإنسانية فهو مترف في اللذات، وهو لا يرى ولا يسمع غير مايتصل بها، وكأنه قد مسخ يقول تعالى - في شأن من لا يستفيد من آيات الله، ويخالف شرعة ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾(١).

ولذلك تعالت صيحات المحذرين تحذر الناس من خطر هذه الحضارة. يقول العالم (رينيه دوبو) : «إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر مايزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة، والخليط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»(٢).

ويقول الفيلسوف الأمريكي (جن ديوي) : «إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق قيم جديدة .. لهي حضارة تدمر نفسها بنفسها»(٣).

وهذه حقيقة، ولكن الحضارة لا تدمر نفسها بنفسها وإنما تدمرها السنن الإلهية والقوانين الربانية التي تعمل بإذن الله وأمره، كما دمرت في السابق حضارة عاد وثمود وغيرهم فقد تشابهت الحضارتين القديمة والحديثة في أسباب الهلاك التي كانت آثاراً للنظم الوضعية وكما أخذ الله الحضارة القديمة، فسوف يأخذ الحضارة الحديثة.

يقول أبو الأعلى المودودي : «إنه قد سلط على الأمم الغربية شيطانان قويان، يجرانها إلى مافيه الهلاك. أولهما شيطان قطع النسل والآخر

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٦٦.

(٢) رينيه دبو : إنسانية الإنسان، ترجمة د . نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة ٣١.

(٣) المصدر السابق ٤٣.

شيطان القومية، فالشيطان الأول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها، وإن الأول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسالهم بأيديهم. إنه يعلمهم تدابير منع الحمل، ويحضهم على تعمد الإسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم التى يقضون بها على قوتهم التوليدية للأبد، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم، فهذا هو الشيطان الذى يدفعهم تدريجيا إلى الانتحار.

وأما الشيطان الآخر فقد سلب كابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح، فهو يبعث فيهم نزعات الأثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع، وذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة، ليذيق بعضهم شدة بعض. وهذا أيضا من صور النقمة الإلهية»[1] يقول تعالى : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2].

وبعد فهذا تحذير للذين يسيرون فى ركاب النظم الوضعية، حتى لا يجلبوا على أنفسهم غضب الله وعقابه، وقد جاء الإسلام بنظمه واضحاً يحقق الأمن والأمان وفيه الكفاية والرشاد، وبه ستعود أمة الاسلام، وكما يقول أبو الحسن الندوى : «ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض، التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم، ومزاحمتها فى وضع العالم»[3].

وصدق الله العظيم ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ⑨﴾[4].

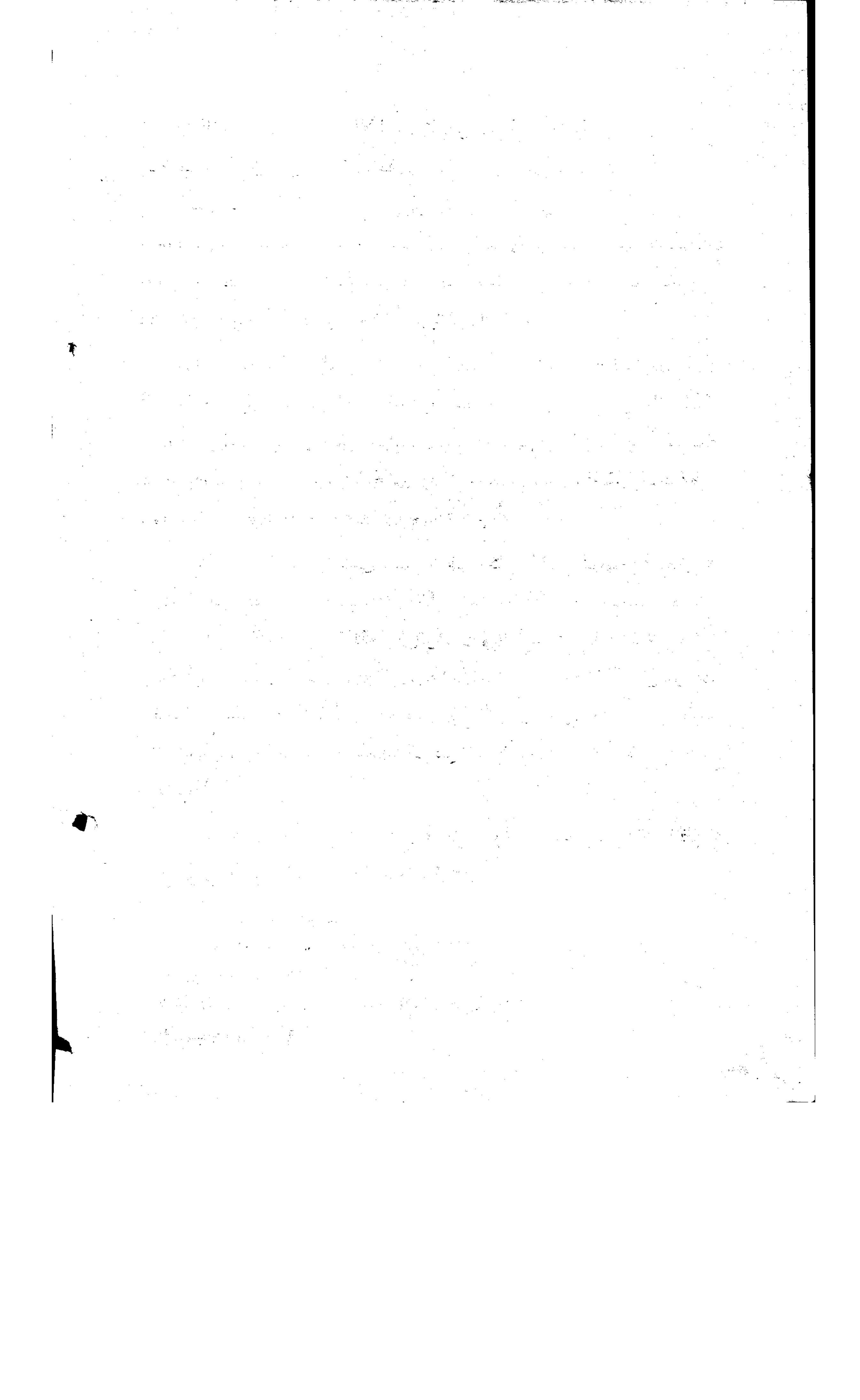
---

(١) أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ٧٧.

(٢) سورة الأنعام : آية ٦٥.

(٣) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ٢٢٩.

(٤) سورة الصف : آية ٩.



محتويات الكتاب

